طرد البحر



يوسف القعيد

طرح البـــحر

عنتر وعبلة

خد الجميل

يوسف القعيد

الفهرس

التصدير

" يوسف القعيد " هو سارد أحداث الفلاح المصـرى، ومؤرخ حواله في إنهزماته وإنكسـاراته. فـي إنتصـاراته وأفراحه. فى دقائق حياته الصغيرة، ومفرداته التي صـاغت أسلوب تفكيره.

حمل على عاتقه هم تطوير الريف المصرى، وتقـدم سكانه، من خلال رصده الدائب لكل صغيرة وكبيرة يمر بها الفلاح، في بيته، وفى أرضه، وفى علاقاته بجيرانـه، وفـى رؤيته لمستقبله.

هو إسم بارز فى جيل الستينات الروائى، ذلك الجيل الذى اكتوى بنار يونيو، وعايش الهزيمة كلها، وهـو ابـن شرعي للحقبة الناصرية، مؤمن بقضاياها، ومـدافع جسـور عن إنجازاتها، ومنشد ضالع لتحققاتها الملموسة.

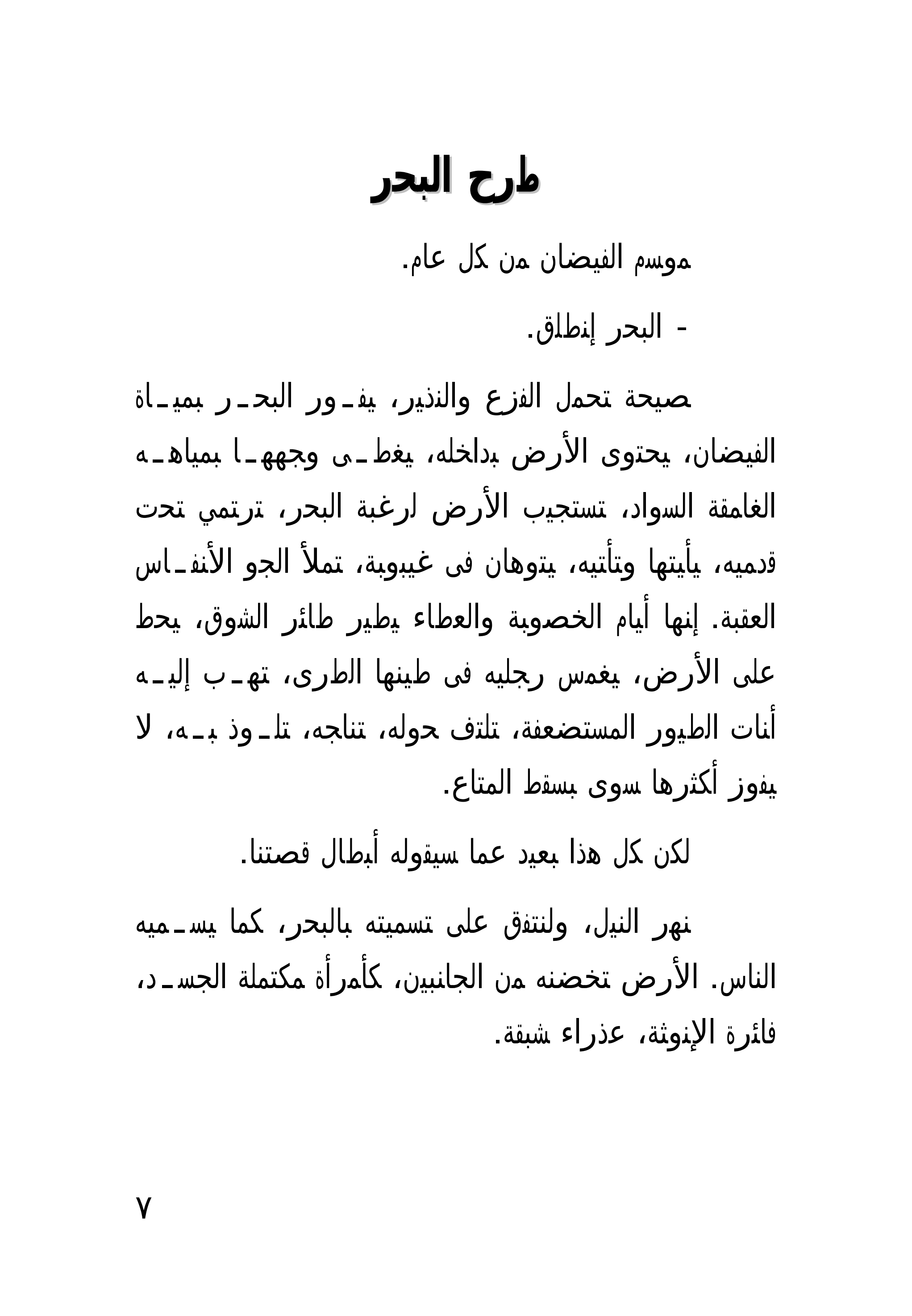
تجربته شديدة الثراء، وعطاءاته الروائية والقصصية تمتد لقرابة أربعين عاماً، قدم فيها عناوين متعددة تشهد على تفرد تجربته، وخصوصية صوته.

ومكتبة الأسرة تقدم لـ" يوسف القعيد " هذا العـالم، " ثلاث حكايات" تحت عنوان" طرح البحر"، تمثـل نموذجـاً دالاً على أبرز سماته الفنية، وأهم موضوعاته التى يعتنـى بها.

إنها مجموعة بديعة لكاتب متمرس.

مكتبة الأسرة

طرح البحر



طرح البحر

موسم الفيضان من كل عام.

- البحر إنطلق.

صيحة تحمل الفزع والنذير، يفـور البحـر بميـاة الفيضان، يحتوى الأرض بداخله، يغطـى وجههـا بمياهـه الغامقة السواد، تستجيب الأرض لرغبة البحر، ترتمي تحت قدميه، يأيتها وتأتيه، يتوهان فى غيبوبة، تملأ الجو الأنفـاس العقبة. إنها أيام الخصوبة والعطاء يطير طائر الشوق، يحط على الأرض، يغمس رجليه فى طينها الطرى، تهـب إليـه أنات الطيور المستضعفة، تلتف حوله، تناجه، تلـوذ بـه، لا يفوز أكثرها سوى بسقط المتاع.

لكن كل هذا بعيد عما سيقوله أبطال قصتنا.

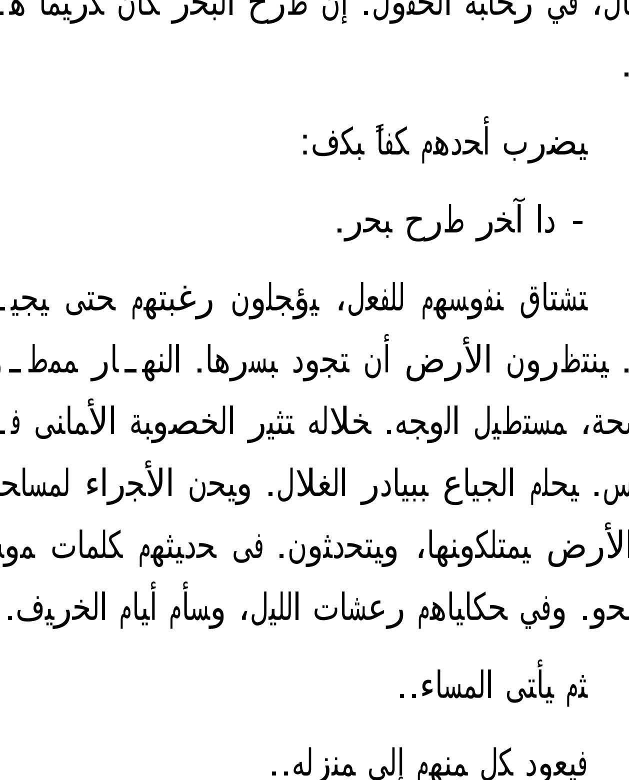
نهر النيل، ولنتفق على تسميته بالبحر، كما يسـميه الناس. الأرض تخضنه من الجانبين، كأمرأة مكتملة الجسـد، فائرة الإنوثة، عذراء شبقة.

الفيضان ليس البداية، فلا يوجد فى القصة سوى حدث واحد نجتره معاً، طول قراءتها. القصص التى بلا بداية، لا يكون لها نهاية أيضاً.

ما سيرونه خلاف، عندما يبدأ القصة، مختلف عن كل ما أقوله.

بعد موسم الفيضان، تنخفض المياة، تعود إلى مجراها الطبيعى، تكتسب لونها الأزرق. على البر، المساحات الواسعة التى كانت تغطيها مياه الفيضان، تبقى الأرض، عارية، بعد أن أودعها البحر سره. إن الرجال تطالع عيونهم كل صباح، طرح البحر، طبقات طمى تتحول إلى لون بني تحت أشعة الشمس الذهبية، أعشاب حال لونها الأصلى بفعل المياة، أسماك ميته، جيف حيوانات، نباتات صغيرة غطاها الطمي، ناشراً رائحة الخصوبة والنماء وسط الحقول.

سأنهى مقدمتي، لكى أعطى شخوصها وليس أبطالها فرصتهم، لكى يثبتوا مصائرهم فى بطون اوراق هذا الزمان.



يجف الطمى، تمتد يد الفلاح وفأسه وسن محراثـه، تقلب باطن الأرض، تودع البذور والأحلام في رحمها، يقول الرجال، في رحابة الحقول. إن طرح البحر كان كريماً هـذا العام.

يضرب أحدهم كفاً بكف:

- دا آخر طرح بحر.

تشتاق نفوسهم للفعل، يؤجلون رغبتهم حتى يجيـئ الليل. ينتظرون الأرض أن تجود بسرها. النهـار ممطـوط الماسحة، مستطيل الوجه. خلاله تثير الخصوبة الأمانى فـي النفوس. يحلم الجياع ببيادر الغلال. ويحن الأجراء لمساحات من الأرض يمتلكونها، ويتحدثون. فى حديثهم كلمات موشاه بالصحو. وفي حكاياهم رعشات الليل، وسأم أيام الخريف.

ثم يأتى المساء..

فيعود كل منهم إلى منزله..

* * *

هأنذا أنهى مقدمتى، معطياً القلـم. والأوراق لهما، خاف ورحمة فلنستمع إلى حديثهما ولنصبر عليهما هذه الفرصة. إنها الأولى، والأخيرة.

* * *

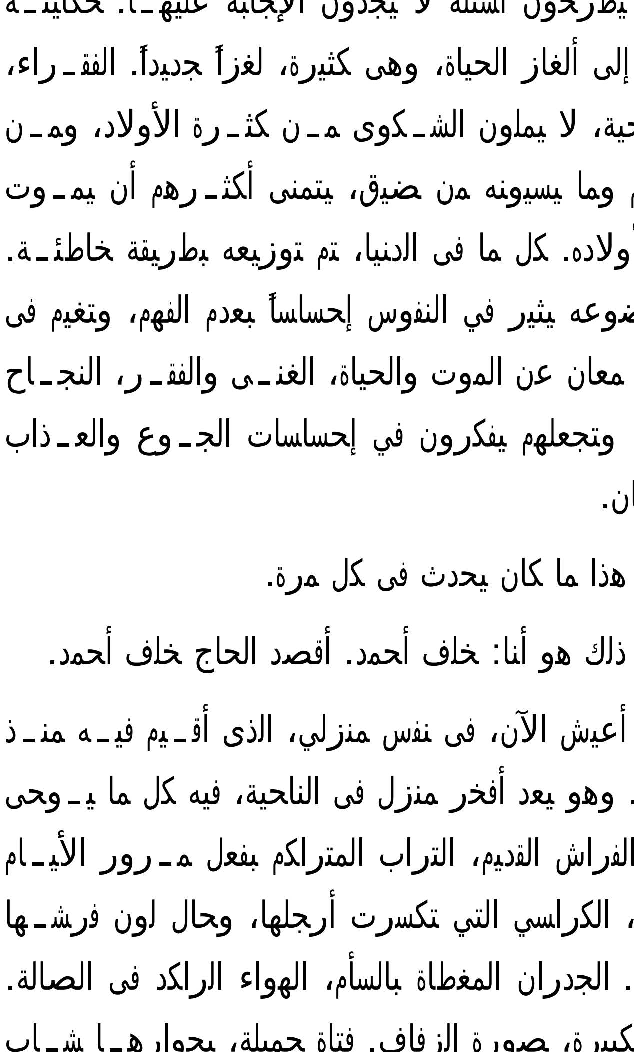
قراءة في عيني رحمة

-١-

يعرف الناس، فى ناحيتنـا، رجـلاً مشـهوراً بـين الجميع، بأنه أغنى رجال الناحية، ورث ثروة كبيرة، ولمـا كانت النقود تجلب النقود، فإن الثروة التي آلت إليـه، زادت أكثر من مرة، أصبح ما يملكه لا تحده حدود، عزبة كبيـرة، عندما يتحدث أحد عنها، فلا بد وأن يمتد الحديث إليـه. ولا تذكر إلا مقرونة بأسمه.

لكل أمر غرابته. إنه فى الخامسة والأربعين، زوجته فى الأربعين. منذ عشرين عاماً وهما زوجان. كل ظـروف حياتهما، كانت تؤهلهما لانجاب ألف طفل. غير أن السـنين توالت. جرت مياه كثيرة في البحر. تعكـرت بفعـل طمـي الفيضان، ثم عادت إلى الزرقة. ولم ينجبا. كلما تحدث الناس عن حكايته، تعجبوا من الدنيا، رفعو رءوسهم نحو السماء:

- اللهم لا إعتراض على كلمتك.. ولكن.



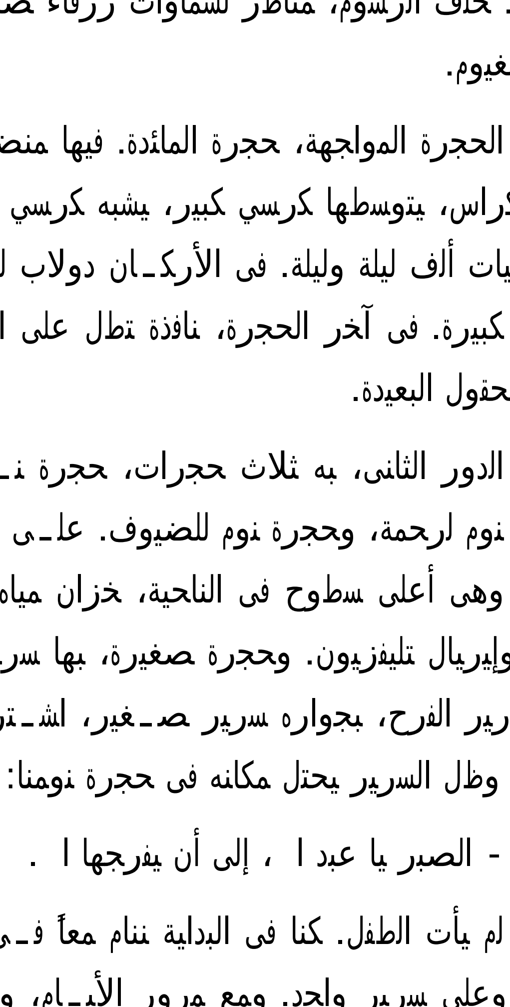
يطرحون أسئلة لا يجدون الإجابة عليهـا. حكايتـه تضيف إلى ألغاز الحياة، وهى كثيرة، لغزاً جديداً. الفقـراء، فى الناحية، لا يملون الشـكوى مـن كثـرة الأولاد، ومـن مشاكلهم وما يسيونه من ضيق، يتمنى أكثـرهم أن يمـوت نصف أولاده. كل ما فى الدنيا، تم توزيعه بطريقة خاطئـة. إن موضوعه يثير في النفوس إحساساً بعدم الفهم، وتغيم فى العقول، معان عن الموت والحياة، الغنـى والفقـر، النجـاح والفشل، وتجعلهم يفكرون في إحساسات الجـوع والعـذاب والحرمان.

هذا ما كان يحدث فى كل مرة.

ذلك هو أنا: خلف أحمد. أقصد الحاج خلف أحمد.

أعيش الآن، فى نفس منزلي، الذى أقـيم فيـه منـذ زواجي. وهو يعد أفخر منزل فى الناحية، فيه كل ما يـوحى بالقدم، الفراش القديم، التراب المتراكم بفعل مـرور الأيـام والليالي، الكراسي التي تكسرت أرجلها، وحال لون فرشـها الأصلى. الجدران المغطاة بالسأم، الهواء الراكد فى الصالة. صورة كبيرة، صورة الزفاف. فتاة جميلة، بجوارهـا شـاب نضر، الطرحة البيضاء، الملابس الطويلة، التى تذكرت بأيام

مضت ولن تعود. على الجدار المقابل، آية الكرسي فى إطار مذهب، على الجدار الجانبى، صورة لي، منذ أيـام الشـباب الأولى. شعر غزير، شارب كثيـف، عيـون تشـع شـباباً وحيوية. فى مواجهتها، صورة لرحمة، مرسومة بالفحم، فتاة صغيرة، تشع منها، رائحة الطهر والبراءة. الرضا عن الدنيا وعن حياتها، الإطمئنان إلى الماضى والحاضر والمسـتقبل. على اليمين حجرة الجلوس، فى صدرها دولاب قديم، انطفـأ لمعان زجاجه، بداخله أطقم شاى ومثلجات وجـاتوه، تقـول رحمة، إن هذه الأطقم اشتروها، في أعـوام الرخـاء. قبـل الحرب الكبيرة. (وأى الأعوام مرت بدون حروب). تراهن على أنه لا يوجد مثل هذه الأطقم الآن. ولا حتى فـي بـلاد السند والهند. على الأوانى والاكواب والدوراق. رسوم كئيبة باردة، محلاة بالذهب، لسفن سافرت ولن تعـود، ولرجـال ذهبوا إلى مدن العشق والحكمة، ليحضروا الدواء الشافي لكل الأوجاع، سقطوا فى منتصـف الطريـق، طلعـت علـيهم العفاريت، حولتهم بفعل السحر إلى طيور وحيوانات أليفـة، عاشوا هناك، في إنتظار المخاص الذي سيعيدهم إلى حياتهم



البشرية. خلف الرسوم، مناظر لسماوات زرقاء صافية، وأيام ملبدة بالغيوم.

الحجرة المواجهة، حجرة المائدة. فيها منضدة كبيرة، حولها كراس، يتوسطها كرسي كبير، يشبه كرسي العـرش، فى حكايات ألف ليلة وليلة. فى الأركـان دولاب للفضـيات وثلاجة كبيرة. فى آخر الحجرة، نافذة تطل على الفراغ اللا نهائي للحقول البعيدة.

الدور الثانى، به ثلاث حجرات، حجرة نـوم لـي، وحجرة نوم لرحمة، وحجرة نوم للضيوف. علـى السـطوح العالية، وهى أعلى سطوح فى الناحية، خزان مياه، وسـلك تليفون وإيريال تليفزيون. وحجرة صغيرة، بها سرير نحاسي قديم، سرير الفرح، بجواره سرير صـغير، اشـتريناه مـع الجهاز، وظل السرير يحتل مكانه فى حجرة نومنا:

- الصبر يا عبد ا ، إلى أن يفرجها ا .

لم يأت الطفل. كنا فى البداية ننام معاً فـى حجـرة واحدة، وعلى سرير واحد. ومع مرور الأيـام، ومرورهـا يفعل بالناس والأشياء أكثر الأمور غرابة، إقتنعنـا، دونمـا

عذاب الكلمات، وبعيداً عن مشقة الأخذ والعطاء. بأنه قد آن الأوان، لأن ينام كل منا بمفرده، على سرير خـاص، وفـى حجرة مستقلة، وأن يتحول سريرنا النحاسى الذى غدا احدى تحف هذا الزمان، وسرير الطفـل المنتظـر إلـى حجـرة المخلفات، فوق السطوح.

وقد كان..

فى الأمسيات، تأتي الرياح فتكنس الأمانى المحنطـة والأحزان القديمة، ويبقى في هذا المنزل الكبير، شئ مـا لا يعرفه أحد. وفى الردهات الطويلة، وعلى السـلالم وخـلال فراغ الحجرا_ العالية السقوف، يتحرك الضجر، يأتى الليل، وتنام العيون، ولا يبقى لنا، سوى رماد الـذكريات، وبقايـا كلمات هامسة، قيلت خلال النهار، وأحلام مدفونة فى حبـة القلب، استيقظت ثم ماتت. يتحول الليل، بطوله، إلى محاولة كى تطيل، حبال الصبر.

- ٢ -

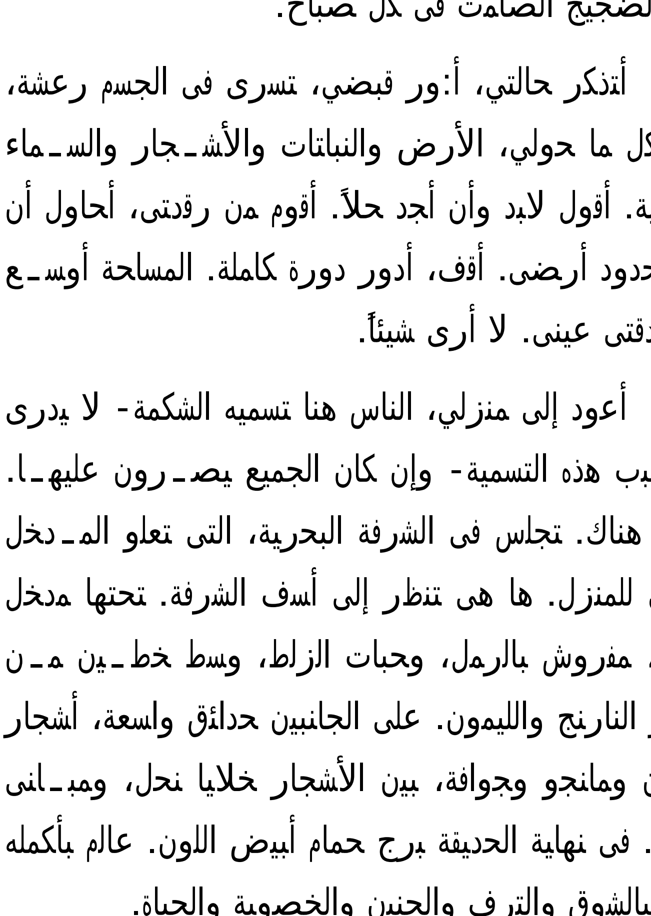
فى الصباح، أصحو من نومى، أفتح عينى، يبدأ اليوم بالإحساس بأماكن الألم فى الجسم، أدرك أن هيكلي مريض،

يطالع عيناى جدران الحجرة، وسقفها. نفس المشهد الذ أفـتح عليه عيناى منذ سنوات، أحاول الوقوف، أحس بدوار خفيف، يخيل إلى أن الأرض تدور، الجدران تلف، إن مرضـى لـم يكتشف بعد. فى الخارج صياح الديكة، السـكون المـوحش، قطرات الضوء تثقب رداء الفجر الرمادى. أخلع جلبابي الذى أنام به على اللحم. أرتدى ملابس خفيفة. أخرج بهـا. علـى باب حجرتى، أشم رائحة هواء الصباح الطرى، أفضـل أن يكون خروجى من الباب الخلفى، أمر على حجرة المعـاش، المنخزن، الحظائر تطل من داخلها العتمة. من خلال ضـوء الصباح الأزرق، أرى أحـدى العـاملات، تجلـس تحـت الجاموسة، تتحسس بأصابع يدها الخشنة الشعر النابت فـوق الضرع، أسم صوت اصطدام قطرات اللبن بقـاع الشـالية، بخار اللبن الدافئ يستريح على خدودها. يزيدها إحمـراراً. أشم رائحة اختمار الأرض بروث البهائم طول الليل.

أسير فى الطريق بين الحقول. تراب الأرض مبلـل بالندى، الشمس تخرج على البعد من الأفق الشرقى، تصافح عيناى خضرة النباتات، إنها تبدو كراحة يد مسـتوية، غيـر أنها راحة يد رصاصية اللون.

اليوم هو يوم الخميس، الوقت أول أيام الربيع، كل ما حولى ينشر رائحة الخصوبة، تبدو الأرض غامقة السـواد، على الحشائش الخضراء، آثار الطل الليلي، نداءات الطيـور والحيوانات، وخفيف أوراق النباتات والأشجار تتجاوب فـى فضاء الحقول. فتتحول إلى نغمة حب واشتياق.

فى كل صباح، أمشى وسط الحقول، دونما هـدف، أشعر بالتعب، أجلس على مدار ساقيه، أو فى خص أو تحت ضليلة، تستريح عيناى على زرقة السماء الربيعية الصـافية، ترتفع الشمس، تطول الجلسة، أنسى نفسي، أغرق فى ضباب أفكار صبيانية، أقلد صوتاً من أصوات سكان العزبة، أتـذكر كلمات حفظتها من أيام الدراسة، أنام على ظهـرى، أمسـك بقطع الطوب، أرميها فى مياه القناة، تتكسر أمـواج الميـاة الهادئة، أدير عينى فى الأرض والأفق البعيـد، أنظـر فـى أرضي قطعة قطعة، تستوقفنى المسـاحات البيضـاء مـن الأرض، إنها الأرض المالحة، على المدى، آخـر النظـر، يكون الصمت والفراغ العذب، حيوانات تأكل، أشجار تحرك نسائم الصباح أوراقها، قنوات بقايا مياه عكرة، طيور تعبـر فضاء السماء فى بطء، ملابس معلقة على أفرع الأشـجار،



رجال نائمون فى كسل، رغم رائحة الصـباح، أحـاول أن أتحسس الأرض بعروقى، تصل عيناى لأصوات الطبيعـة، لذلك الضجيج الصامت فى كل صباح.

أتذكر حالتي، أ:ور قبضي، تسرى فى الجسم رعشة، أهدد كل ما حولي، الأرض والنباتات والأشـجار والسـماء الصافية. أقول لابد وأن أجد حلاً. أقوم من رقدتى، أحاول أن أرى حدود أرضى. أقف، أدور دورة كاملة. المساحة أوسـع من حدقتى عينى. لا أرى شيئاً.

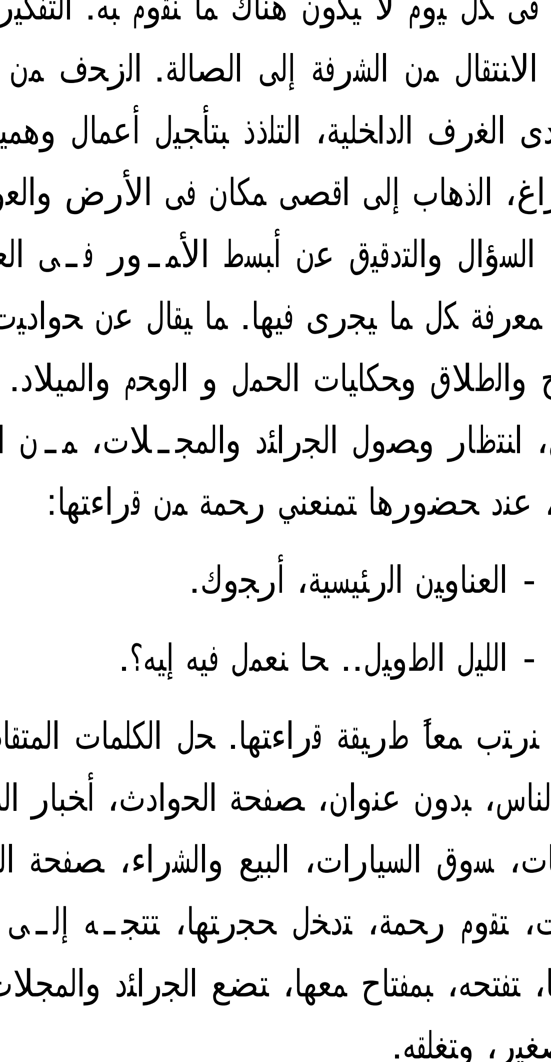
أعود إلى منزلي، الناس هنا تسميه الشكمة- لا يدرى أحد سبب هذه التسمية- وإن كان الجميع يصـرون عليهـا. رحمة هناك. تجلس فى الشرفة البحرية، التى تعلو المـدخل المامى للمنزل. ها هى تنظر إلى أسف الشرفة. تحتها مدخل طويل، مفروش بالرمل، وحبات الزلط، وسط خطـين مـن أشجار النارنج والليمون. على الجانبين حدائق واسعة، أشجار ياسمين ومانجو وجوافة، بين الأشجار خلايا نحل، ومبـانى أرانب. فى نهاية الحديقة برج حمام أبيض اللون. عالم بأكمله بضج بالشوق والترف والحنين والخصوبة والحياة.

- ٣ -

رحمة تجلس، منتظرة عودتي، أمامها طعام الإفطار، موضوعاً فى صينية نظيفة، فوقها غطاء أبـيض كالحليـب، بمجرد وصولى، ترفع الغطاء. أجلس علـى كرسـي قـديم مريح. أتناول إفطارى، أشرب كوباً واحداً من الشاى. متعـة رحمة الصباحية، أن تشرب أكواباً كثيرة من الشـاى، إنهـا تجلس أمامى، ترمى نظراتها الكسولة على امتداد الحقـول. الشمس فى هذا الوقت اتضحت، صعدت فى السـماء. فـى الحقول، رجال وأطفال ونساء يعملون أعواد النباتات مازالت مثقلة بقطرات الندى. إنها لم تجف بعد. تراب الأرض مبلـل بالطل. وهواء الصباح الطرى يرف بنعومة.

- ياه..

نجلس فى الشرفة، نتذكر، أننا كنا نجلس هذه الجلسة، منذ سنوات مضت، لا ندرى كم عددها. وأننا، إن امتد بنـا العمر. سنظل نجلس، نفس الجلسة، فى نفس الموعد، لسنوات كثيرة قادمة.

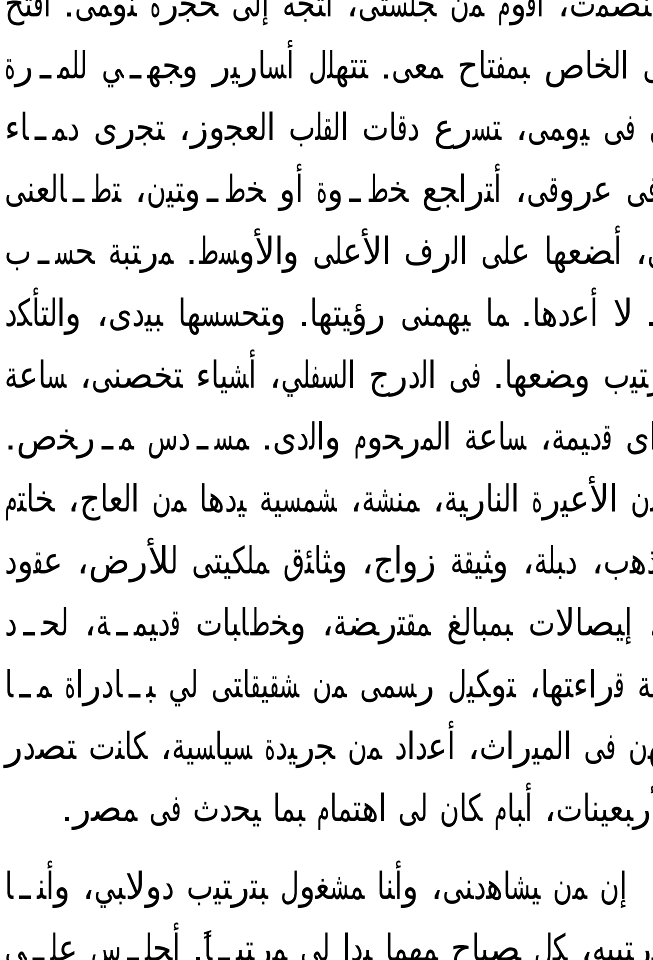


فى كل يوم لا يكون هناك ما نقوم به. التفكير فيمـا سنأكله. الانتقال من الشرفة إلى الصالة. الزحف من الصالة إلى إحدى الغرف الداخلية، التلذذ بتأجيل أعمال وهمية خوفاً من الفراغ، الذهاب إلى اقصى مكان فى الأرض والعودة إلى المنزل. السؤال والتدقيق عن أبسط الأمـور فـى العزبـة، محاولة معرفة كل ما يجرى فيها. ما يقال عن حواديت الحب والزواج والطلاق وحكايات الحمل و الوحم والميلاد. ونمـو الأطفال، انتظار وصول الجرائد والمجـلات، مـن البنـدر القريب، عند حضورها تمنعني رحمة من قراءتها:

- العناوين الرئيسية، أرجوك.

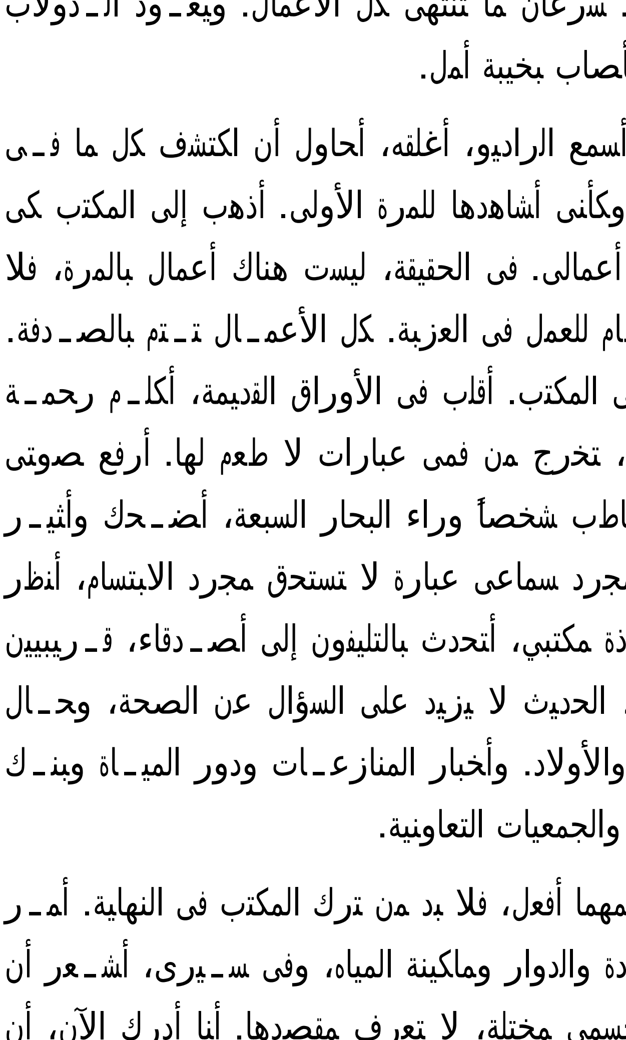
- الليل الطويل.. حا نعمل فيه إيه؟.

نرتب معاً طريقة قراءتها. حل الكلمات المتقاطعـة، أخبار الناس، بدون عنوان، صفحة الحوادث، أخبار المجتمع، الإعلانات، سوق السيارات، البيع والشراء، صفحة الوفيات، اليوميات، تقوم رحمة، تدخل حجرتها، تتجـه إلـى دولاب ملابسها، تفتحه، بمفتاح معها، تضع الجرائد والمجلات فـى درج صغير، وتغلقه.



ها نحن نعود إلى الجلوس، لا نجد من الكلمات مـا يقال، نصمت، أقوم من جلستى، أتجه إلى حجرة نومى. أفتح دولابى الخاص بمفتاح معى. تتهلل أسارير وجهـي للمـرة الأولى فى يومى، تسرع دقات القلب العجوز، تجرى دمـاء شابة فى عروقى، أتراجع خطـوة أو خطـوتين، تطـالعنى أموالى، أضعها على الرف الأعلى والأوسط. مرتبة حسـب قيمتها. لا أعدها. ما يهمنى رؤيتها. وتحسسها بيدى، والتأكد من ترتيب وضعها. فى الدرج السفلي، أشياء تخصنى، ساعة ترامواى قديمة، ساعة المرحوم والدى. مسـدس مـرخص. عدد من الأعيرة النارية، منشة، شمسية يدها من العاج، خاتم من الذهب، دبلة، وثيقة زواج، وثائق ملكيتى للأرض، عقود إيجار، إيصالات بمبالغ مقترضة، وخطابات قديمـة، لحـد صعوبة قراءتها، توكيل رسمى من شقيقاتى لي بـادراة مـا يخصهن فى الميراث، أعداد من جريدة سياسية، كانت تصدر فى الأربعينات، أيام كان لى اهتمام بما يحدث فى مصر.

إن من يشاهدنى، وأنا مشغول بترتيب دولابي، وأنـا أعيد ترتيبه، كل صباح مهما بدا لى مرتبـاً. أجلـس علـى الأرض، أبدو متعباً ونقاط عرق تثقل جبهتى، أعمـل بجـد



وهمة ونشاط، ثمة عمل هام أنجزه، لا يوجد غيرى يستطيع القيام به. سرعان ما تنتهى كل الأعمال. ويعود الدولاب مرتباً، فأصاب بخيبة أمل.

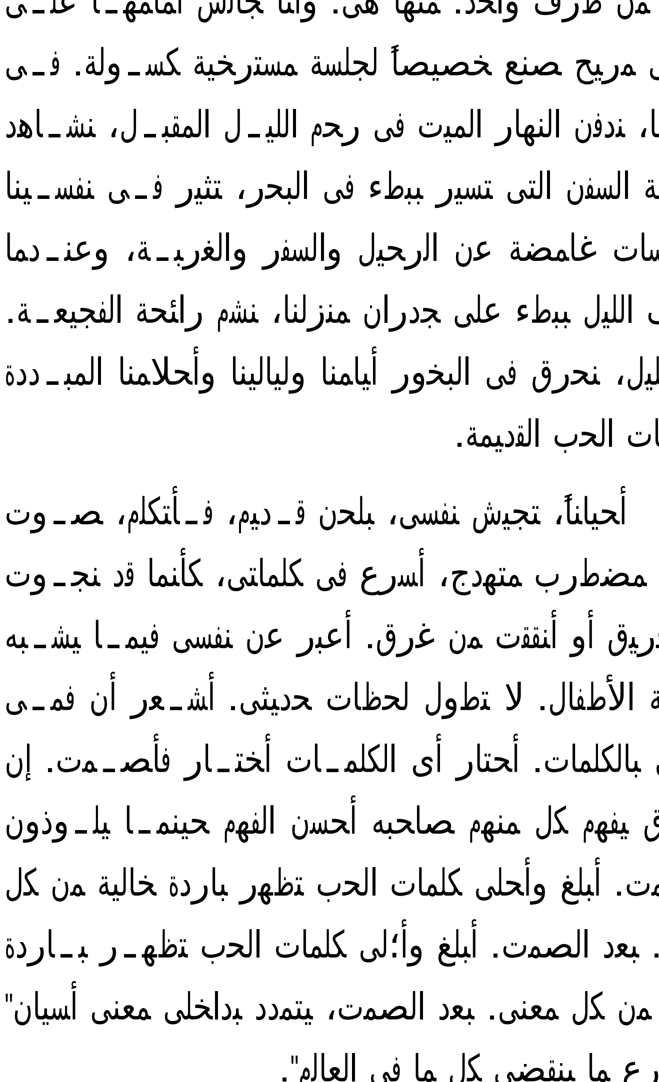
أسمع الراديو، أغلقه، أحاول أن اكتشف كل ما فى العزبة، وكأننى أشاهدها للمرة الأولى. أذهب إلى المكتب كى أصرف أعمالى. فى الحقيقة، ليست هناك أعمال بالمرة، فلا يوجد نظام للعمل فى العزبة. كل الأعمال تتم بالصدفة. أجلس فى المكتب. أقلب فى الأوراق القديمة، أكلم رحمة بالتليفون، تخرج من فمى عبارات لا طعم لها. أرفع صوتى كأننى أخاطب شخصاً وراء البحار السبعة، أضحك وأثير ضجة لمجرد سماعى عبارة لا تستحق مجرد الابتسام، أنظر من نافذة مكتبي، أتحدث بالتليفون إلى أصدقاء، قريبين وبعيدين، الحديث لا يزيد على السؤال عن الصحة، وحال الزوجة والأولاد. وأخبار المنازعات ودور المياة وبنك التسليف والجمعيات التعاونية.

مهما أفعل، فلا بد من ترك المكتب فى النهاية. أمر على التندة والدوار وماكينة المياه، وفى سيرى، أشعر أن حركة جسمى مختلة، لا تعرف مقصدها. أنا أدرك الآن، أن

إختلال حركة جسم الأنسان، تعنى اه فى سبيله إلى القبـر. أن الناس جميعاً يبدأون فى الموت إذا بلغوا سناً معينة، إنهـا بداية المنحدر. طريقة سير الرجل واتجاهه واندفاعـه فـى سيره، تحدد موقفه من الموت، الموت هو أبغـض الأمـور بالنسبة لى، إنه يعنى المعرفة المؤلمة، بأنه على المـرء أن يدع أشياء لم ينجزها، وكلمات لم يقلها، تبقى معانى معلقـة عرضة لكل التفسيرات والأكاذيب.

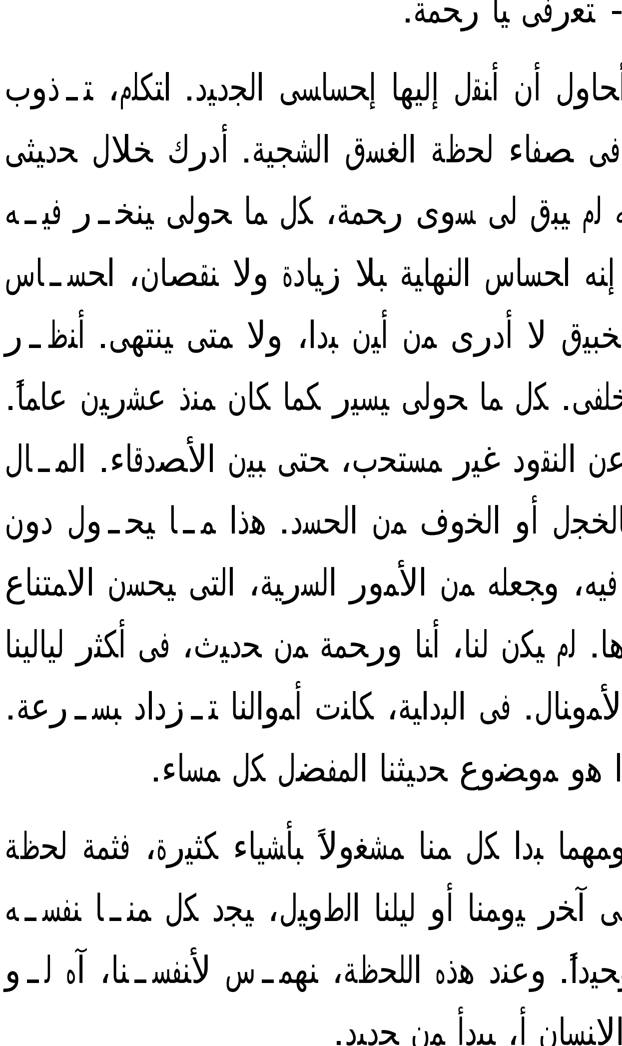
أعود إلى المنزل. ثم أخرج، ألف وأدور فى الحقول. أحادث من يقابلنى، أمرح مع الأطفال. لا أحب مـن سـكان العزبة سوى الأطفال. أتغنى فى سيرى، بمقطع مـن أغنيـة قديمة، تقول كلماتها، ما أحلى أن يتكاشف المحبـون، لكـن الأيام ضنية، تسيطر على ذهنى فكرة معينة، أرددها لنفسى، انتهت حياتنا، ولم يبق لنا سوى الوجود الباهت القريب مـن العدم، تغوص المعانى فى روحى كالسكاكين. كنت أجد لـذة خبيثة فى ترديد هذه المعانى فى ذهنى.

فى المساء. تنام الأحلام فى أهداب رحمة المرتعشة، تقول لي عيناها، هيا ننقش حكايتنا على سطح الماء الرقراق، وعلى نسمات الريح الهادئة ساعة الغروب، إن حديث المساء



يكون من طرف واحد. منها هى. وأنا جالس أمامهـا علـى كرسى مريح صنع خصيصاً لجلسة مسترخية كسـولة. فـى جلستنا، ندفن النهار الميت فى رحم الليـل المقبـل، نشـاهد أشرعة السفن التى تسير ببطء فى البحر، تثير فـى نفسـينا احساسات غامضة عن الرحيل والسفر والغربـة، وعنـدما يزحف الليل ببطء على جدران منزلنا، نشم رائحة الفجيعـة. فى الليل، نحرق فى البخور أيامنا وليالينا وأحلامنا المبـددة وأغنيات الحب القديمة.

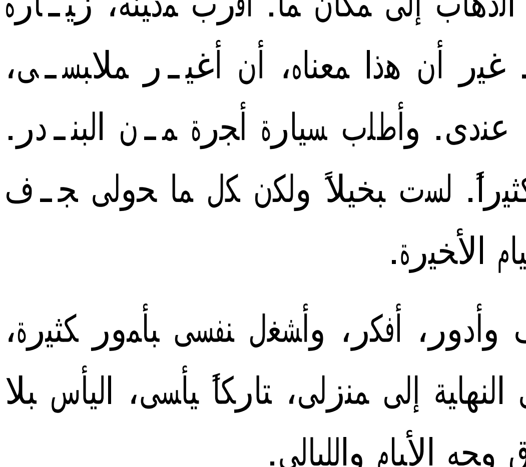
أحياناً، تجيش نفسى، بلحن قـديم، فـأتكلم، صـوت سريع مضطرب متهدج، أسرع فى كلماتى، كأنما قد نجـوت من حريق أو أنقذت من غرق. أعبر عن نفسى فيمـا يشـبه سذاجة الأطفال. لا تطول لحظات حديثى. أشـعر أن فمـى ممتلئ بالكلمات. أحتار أى الكلمـات أختـار فأصـمت. إن العشاق يفهم كل منهم صاحبه أحسن الفهم حينمـا يلـوذون بالصمت. أبلغ وأحلى كلمات الحب تظهر باردة خالية من كل معنى. بعد الصمت. أبلغ وأ؛لى كلمات الحب تظهـر بـاردة خالية من كل معنى. بعد الصمت، يتمدد بداخلى معنى أسيان" ما أسرع ما ينقضى كل ما فى العالم".



- تعرفى يا رحمة.

أحاول أن أنقل إليها إحساسى الجديد. اتكلم، تـذوب الكلمات فى صفاء لحظة الغسق الشجية. أدرك خلال حديثى معها، أنه لم يبق لى سوى رحمة، كل ما حولى ينخـر فيـه السوس، إنه احساس النهاية بلا زيادة ولا نقصان، احسـاس سرطان خبيق لا أدرى من أين بدا، ولا متى ينتهى. أنظـر أمامى، خلفى. كل ما حولى يسير كما كان منذ عشرين عاماً. الحديث عن النقود غير مستحب، حتى بين الأصدقاء. المـال مرتبط بالخجل أو الخوف من الحسد. هذا مـا يحـول دون الخوص فيه، وجعله من الأمور السرية، التى يحسن الامتناع عن ذكرها. لم يكن لنا، أنا ورحمة من حديث، فى أكثر ليالينا إلا عن الأمونال. فى البداية، كانت أموالنا تـزداد بسـرعة. وكان هذا هو موضوع حديثنا المفضل كل مساء.

ومهما بدا كل منا مشغولاً بأشياء كثيرة، فثمة لحظة بعينها، فى آخر يومنا أو ليلنا الطويل، يجد كل منـا نفسـه عاجزاً وحيداً. وعند هذه اللحظة، نهمـس لأنفسـنا، آه لـو استطاع الإنسان أ، يبدأ من جديد.



أعود إلى منزلى، لأنه لا يوجد مكان آخر أذهب إليه، قد أفكر فى الذهاب إلى مكان ما. أقرب مدينة، زيارة لبعض الأصدقاء. غير أن هذا معناه، أن أغير ملابسى، وأرتدى أجمل ما عندى. وأطلب سيارة أجرة من البندر. وكل هذا يكلف كثيراً. لست بخيلاً ولكن كل ما حولى جف ونضب خلال الأيام الأخيرة.

هأنذا ألف وأدور، أفكر، وأشغل نفسى بأمور كثيرة، إلا إننى أعود فى النهاية إلى منزلى، تاركاً يأسى، اليأس بلا حدود، علامة فوق وجه الأيام والليالى.

النوم في الظلال

-١-

كنت أعود إلى البيت عطشان، فترويني مـن مـاء الكلمات، الصوت المغنى يمسح الصدأ، ويذيب قلق الأيام. فى عيني رحمة، خليج، مرسى، مكان هادئ، ترسو فيه أشرعة الشوق. يا قلبى المتعب، فلأبحر فى عينى رحمـة، ولـتكن رحلتى الأولى، والأخيرة.

تزوجت ذات مساء. لأنه كان يجب أن أتزوج. طلب والدى منى ذلك. قيل لي، أن الزواج فى حياة والدى أفضل. العروس فتاة لم أعرفها من قبل. حاولـت أن أعتـرض، أن أوضح حقى فى إختيارها.

- يا والدى.. أصل

- يا خاف أنت صغير.

قال والدى، إنه ضمن ما تعلمه فى الزمان القديم، إن الزواج الأقارب ضار، لا يتيح عنه أطفال أقوياء. قالت أمى: إن والدى وضع عينيه على ابنه رجل مـن أغنـى رجـال

الناحية، أنا الإبن الوحيد للأسرة، أخوتى بنات، من خلالـي سيستمر اسم العائلة. ذكرت أمى اسم الأسرة التى سأناسبها، خفقة القلب لم أعرف طعمها، أغمضت عينى ورحت استجل أحلام الصبا والشباب.

- على بركة ا .

قلت لنفسى، ليكن الزواج نهاية الابحار فى سـنوات الإرهاق. لأستعد منذ الآن لاستلام العزبة والأموال والأسم، فى هذه الليلة، لم أن حتى الصباح. إن من كان يشاهدنى وأنا أسير فى حجرتى، بعد منتصف الليل، يدرك أنى كبرت مائة سنة دفعة واحدة، غدوت رجلاً مهموماً. لم أكـن أدرى مـا أريده. الزراعة سر غريب، إدارة العزبة تبدو عالماً مسربلاً بالطلاسم. كان والدى من انجح الرجال فى الناحية. غير أن نجاحه كان يبدو سره الخاص. وددت لو أعود إلى المدينـة. غير أنه كان فى المدينة، فشلى، ومكـانى غيـر المحـدد، وفراغى.

يوم الذهاب إلى منزل العروس، إنها المرة الأولـى، وقت العصر، حضر حلاق من البلد المجـاور لنـا، قـص شعرى وحلق ذقنى. بدا لى الأمر بالغ الغرابة، حضرت أكثر

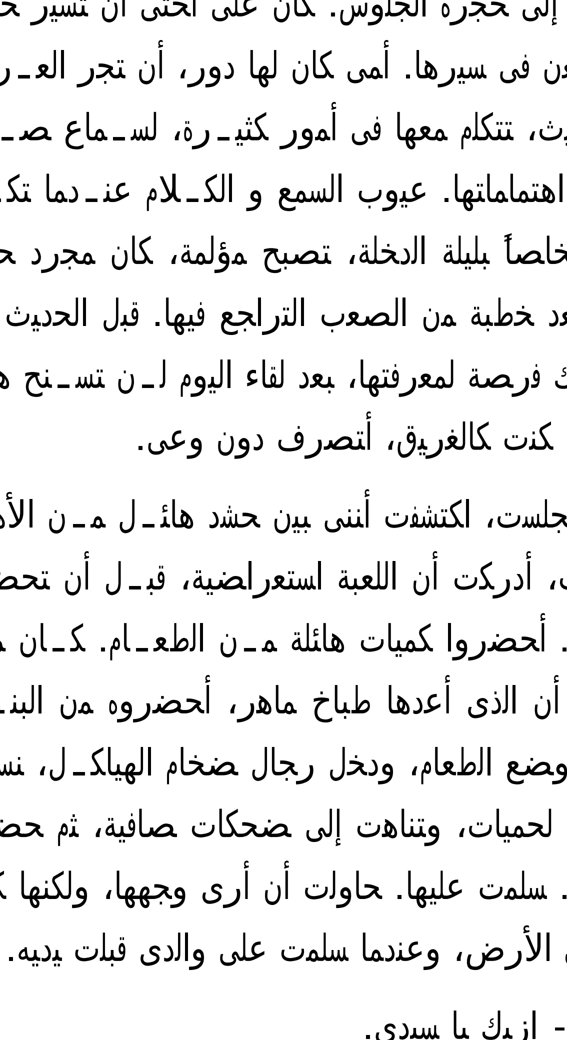
من سيارة، لنقل اسرتنا، فى السيارة، كنت صامتاً من حولى كان الصخب والضجيج، وكانت السعادة.

- مالك يا عريس؟

- لا.

وصلنا إلى بيت العروس. الوقـت مسـاء. انتـابنى احساس بالخوف، قلت لنفسي، فلنحتكم إلى حكم مـن نـوع جديد، ولتجر الأمور على أساس آخر، وهمست لنفسى، وأنا أضع قدمى على اول باب العروس. ليس المهم أن نبكى على ما ضاع، وهو كثير، أكثر من أن يحصى. إنه سنوات العمر التى مضت، أحلامه التى لم تتحقق، مشروعاته وطموحاتـه المجنونه، الأهم أن نستعد للبكاء على ما هو آت.

لا بد من الزواج. عجزت الكلمات عن إيصـال مـا بنفس الوافد الجديد، ابن المدينة إلى أبيه وأمه، أهله القدامى، رضخت، أخذ رضوخى شكل الاستسلام والمذلة، طلبت من أختى أن تجلس أمام العروس. فى مكان قريب منها، يمكنهـا من رؤيتها، أما أختى الصغرى. كان عليها أن تـدخل مـع العروس حجرة نومها. قد يكون بجسدها عيب ما. عند دخول



العروس إلى حجرة الجلوس. كان على أختى أن تسير خلفها، وأن تتمعن فى سيرها. أمى كان لها دور، أن تجر العروس فى الحديث، تتكلم معها فى أمور كثيرة، لسماع صوتها ومعرفة اهتماماتها. عيوب السمع و الكلام عندما تكون اكتشافاً خاصاً بليلة الدخلة، تصبح مؤلمة، كان مجرد حديث والدى يعد خطبة من الصعب التراجع فيها. قبل الحديث لم تكن هناك فرصة لمعرفتها، بعد لقاء اليوم لن تسنح هذه الفرصة، كنت كالغريق، أتصرف دون وعى.

جلست، اكتشفت أننى بين حشد هائل من الأهل والأقارب، أدركت أن اللعبة استعراضية، قبل أن تحضر العروس. أحضروا كميات هائلة من الطعام. كان من الواضح أن الذى أعدها طباخ ماهر، أحضروه من البنادر البعيدة، وضع الطعام، ودخل رجال ضخام الهياكل، نساء شحميات لحميات، وتناهت إلى ضحكات صافية، ثم حضرت العروس. سلمت عليها. حاولت أن أرى وجهها، ولكنها كانت تنظر فى الأرض، وعندما سلمت على والدى قبلت يديه.

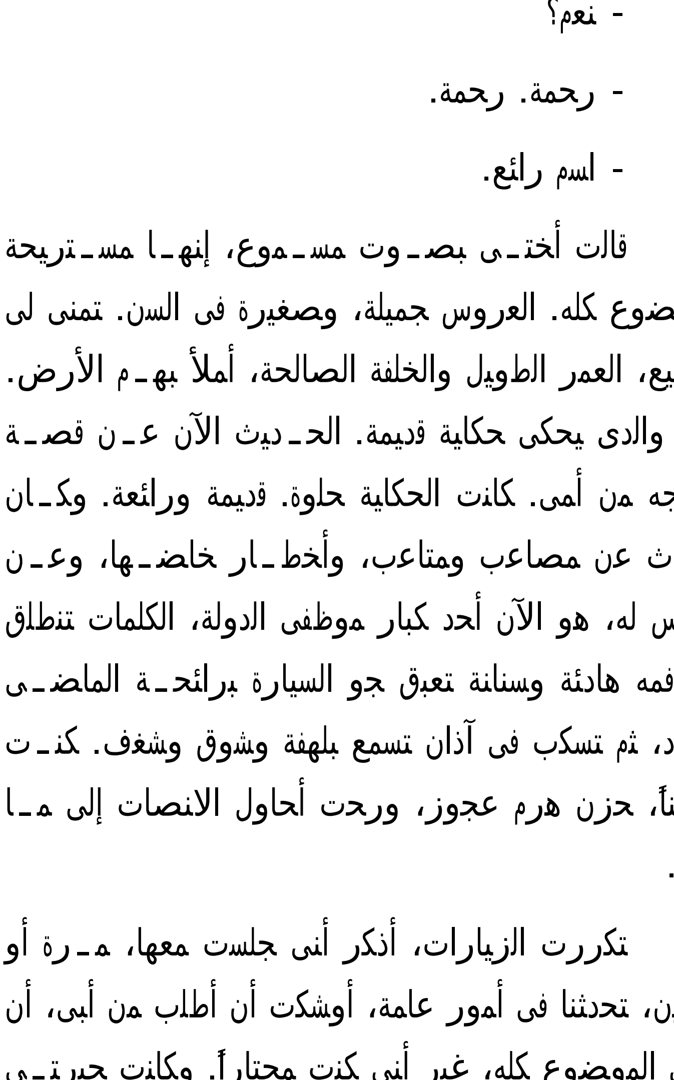
- ازيك يا سيدى.

قالتها بصوت منطفئ، أحسست بالضيق، قلت لنفسى، أن ما أقدم عليه الآن هزيمة، ليس له أسم آخر. سألت نفسى. بصوت جريح، عن أيام القـاهرة والإسـكندرية، الدراسـة، النجاح والفشل، الهروب، العودة إلى هنا. هجم الجميع علـى الطعام بلا رحمة. سمعت حديثاً عن الطعام، كثرته، دسامته، طريقة صنعه، قيلت نكات، وصفنا أهل العروس بالكرم أكثر من مرة. دعينا لهم بالعمران وطول العمر وكثرة الخير. أن فترة من الخمود تمر الآن. والكلمات تنطفئ ببطء، العبارات كسولة مسترخية، والوجوه تنطق بتعب واعيـاء لا يعـرف المرء السبب فيه.

قام والدى. وقف الجميع لقومته، حدثت أمور غريبة، تعاقد على أعمال تجارية، شراء أرض، اتفاق علـى كتابـة شكوى مشتركة إلى مهندس الرى. اقتراض نقود، التفكير فى عمل منحل. الشروع فى شراء جرار للحرث، البحث عـن ماكينة رى مستعملة، تحديد موعد زيـارات. فـى طريـق العودة، اقتربت من شقيقتى:

- العروس اسمها إيه؟

- رحمة.



- نعم؟

- رحمة. رحمة.

- اسم رائع.

قالت أختى بصوت مسموع، إنها مستريحة للموضوع كله. العروس جميلة، وصغيرة فى السن. تمنى لى الجميع، العمر الطويل والخلفة الصالحة، أملأ بهم الأرض. وبدأ والدى يحكى حكاية قديمة. الحديث الآن عن قصة زواجه من أمى. كانت الحكاية حلوة. قديمة ورائعة. وكان يتحدث عن مصاعب ومتاعب، وأخطار خاضها، وعن منافس له، هو الآن أحد كبار موظفى الدولة، الكلمات تنطلق من فمه هادئة وسنانة تعبق جو السيارة برائحة الماضى البعيد، ثم تسكب فى آذان تسمع بلهفة وشوق وشغف. كنت حزيناً، حزن هرم عجوز، ورحت أحاول الانصات إلى ما يقال.

تكررت الزيارات، أذكر أنى جلست معها، مرة أو مرتين، تحدثنا فى أمور عامة، أوشكت أن أطلب من أبى، أن ينهى الموضوع كله، غير أنى كنت محتاراً. وكانت حيرتى

اكبر من تفكيرى. كنت أود أن أنفرد بها، ولو مرة واحـدة. نتكاشف، ونقول ونحكى دونما رقيب، وقد نصل من خـلال المكاشفة إلى بر الأمان. ولكن هذا لم يحدث أبداً، طول فترة الخطبة. كنت معذباً.

- ٢ -

لية الدخلة، رائحة الدفء ومعنى البكـارة، الوجـه المتوهج بالرغبة، ذراعان من الذهب، اليدان تطوقان جسمى. أتمنى أن تطلق بداخلى الحياة التى طال احتباسها كنبع هادر ساخن.

كنت خائفاً

غرفة العروس. مدفأة موقدة فـى الحمـام. الحنـة الحمراء الداكنة فى راحة اليدين، وبطن القدمين، الماشـطات والغاسلات، البخار و التدليك، رحمة مجموعة مـن المنـى والاحلام، ثقيلة بالثياب و الـذهب، تحـت القـدمين ترمـى حكايات البسيطة.

- كان نفسى أكلمك من زمان

- نفس الشعور

في القدمين، خلخال غليظ من الفضة، اليـد مزدانـة بعدد من الخواتم الزرقاء والحمـراء والخضـراء. الثـوب الأبيض على الجسد. الحمرة الدسمة فـوق الشـفاه. الفـرق الأبيض وسط الشعر الأسود المدهون بماء الورد.

- فكرت أبعت لك كلام.

- إيه اللى منعك؟

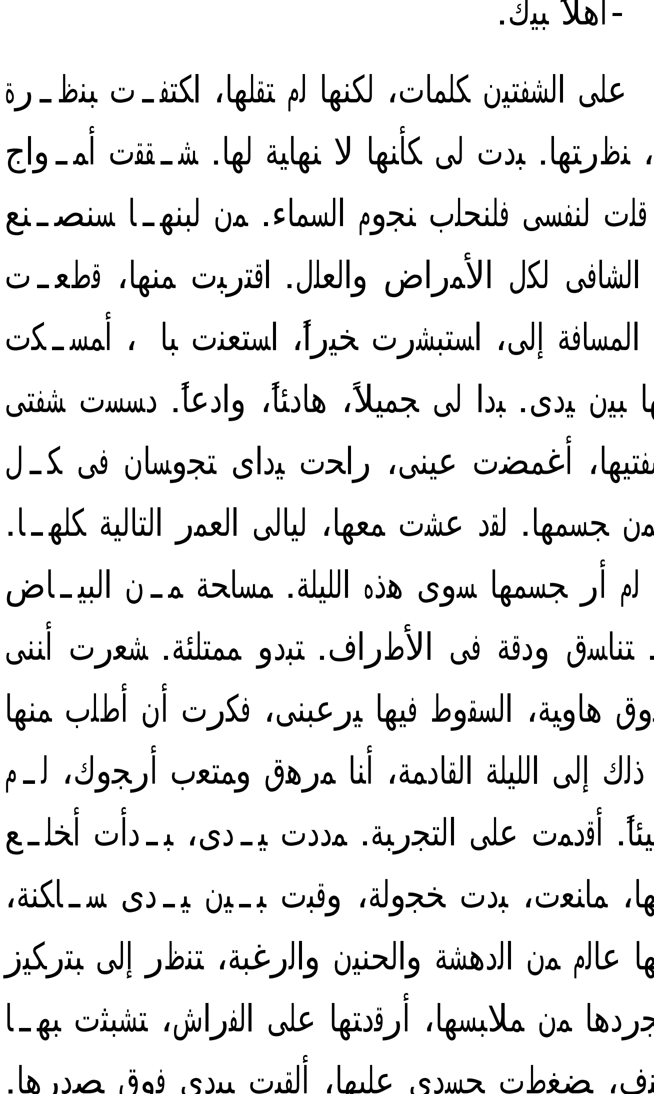
- خفت.

- من إيه؟.

- تقول على بنت سايبه.

هى هى ذى العروس، رفيقة العمر، فتـاة صـغيرة، قلب لم يجرب اللهفة والحزن والفرح والجنون. لم تعرف من قبل سوى بيت أبيها، لم تتعرض للفحات الهواء، ولم يلامس جسدها تيار بارد، ولا لفحات دافئـة، عيناهـا بحـر مـن الأشواق، يبحر فيه رجلها وفارسها.

- أهلاً رحمة.



-أهلاً بيك.

على الشفتين كلمات، لكنها لم تقلها، اكتفت بنظرة طويلة، نظرتها. بدت لى كأنها لا نهاية لها. شققت أمواج الليل، قلت لنفسى فلنحلب نجوم السماء. من لبنها سنصنع الدواء الشافى لكل الأمراض والعلل. اقتربت منها، قطعت نصف المسافة إلى، استبشرت خيراً، استعنت بـا ، أمسكت بوجهها بين يدى. بدا لى جميلاً، هادئاً، وادعاً. دسست شفتى بين شفتيها، أغمضت عينى، راحت يداى تجوسان فى كل جزء من جسمها. لقد عشت معها، ليالى العمر التالية كلها. ولكنى لم أر جسمها سوى هذه الليلة. مساحة من البياض الناعم. تناسق ودقة فى الأطراف. تبدو ممتلئة. شعرت أننى أقف فوق هاوية، السقوط فيها يرعبنى، فكرت أن أطلب منها تأجيل ذلك إلى الليلة القادمة، أنا مرهق ومتعب أرجوك، لم أقل شيئاً. أقدمت على التجربة. مددت يدى، بدأت أخلع ملابسها، مانعت، بدت خجولة، وقبت بين يدى ساكنة، نظراتها عالم من الدهشة والحنين والرغبة، تنظر إلى بتركيز وأنا أجردها من ملابسها، أرقدتها على الفراش، تشبثت بها فى عنف، ضغطت جسدى عليها، ألقيت بيدى فوق صدرها.

أدهشنى هدوءها، تذكرت أن اصدقائى، كـانوا يقولـون أن ممارسة الجنس تبدو مثل الصـراع، كانـت تنـام سـاكنة، أفزعتنى نظرتها الباردة، النظرة التى تمتد إلى، تلمس جسدى كالسلك البارد، فجأة. خمد كل ما فى داخلى، انفصلت عنها، نمت بجوارها، اكتشفت أن نور الحجرة مضاء. نظرت إليها، كانت عارية، تنام على ظهرها، وساقاها منفرجتـان بشـكل مثير، ويدها تغطى عينيها، ويداها الأخرى تنام فى تجويـف صدرها. كانت جميلة، استمرت على ذلك، فترة ما. فهمـت أنها مازالت تنتظر، فالمضاجعة لـم تـتم، كـان علـى أن أتصرف.

- أنت نمتى؟

لم تفهم الأمر بعد.

- خلاص، قومى.

قامت ارتدى ملابسها.

من إيه؟.

قلت وأنا أطوف بعينى فى حجرة نومى:

- أنا أصلى مرهق النهاردة.

كنت أريد أن أبكى، وأن يستمر بكائى حتى تجف كل أنهار العالم، وتذوقت فى صمتى طعم حبات الملح تحت الأضراس، أغمضت عينى، رحت أستحضر صوراً من الماضى البعيد، أستعين بها على مواجهة اللحظة الحاضرة، بذلت كل ما أقدر عليه، ولكنى فشلت، كنت أعيش فى نوع من الوهم والضباب الذى لا أرى فيه صورتى الحقيقية، وكانت رحمة، مرآة جديدة لى، أرى فيها الأشياء، كما هى فى الواقع، الامتحان صعب. والنتيجة قاتلة. لم تتكلم رحمة كثيراً فى ليلتنا الأولى، وحتى بعد هذه الليلة، لم تكن تحب كثرة الكلام.

كان ما حدث كثيراً على، قررت فى صمت الليل، أن يظل هذا الجرح، سرى الخاص بى، لا يجب أن أكشف عنه فى سلوكى أو مظهرى الخارجى، بل أطكويه فى أعماق روحى، أن الجراح تلتئم، ولكن الندوب تظل باقية، علامات على الجسد وفى الروح، وبدأت أنظر إلى حياتى، وإلى رحمة، وإلى مستقبلى نظرة مجردة من البهجة الأولى.

نامت رحمة، وبدأ النوم يكشف لى، عن أروع ما فيا، إنها فتاة جميلة، أحسست نحوها بالعطف، إنها مستغرقة

فى النوم، ورأسها على صـدرى، أشـعرنى ذلـك بـدفء وخالجنى، للحظة عابرة، عشق حار لها. فجر الـدموع فـى عينى، كان قلبى البكر، مترعاً بالحب فى الأيام الأولى مـن شبابى.

هل أحببت رحمة؟ إنى أقف الآن، فى أيام الكهولـة الشاحبة وبعد عشرتى الطويلة معها، أمام هذا التسـاؤل. ولا أدرى كيف أجيب عليه، هأنذا أؤكد أننى وقعت فى هواهـا. منذ ليتنا الأولى، من البداية، رحت أربط بينها وبين جميـع الأشياء الجميلة فى حياتى، التى تحولت إلى مستحيلات معلقة على جبين العمر. كانت رحمة، حانية رقيقة، لا تكثر طـرح الأسئلة، ومهما تكلمت، فى أيامنا الطويلة، فإنها كانت تبقـى أشياء كثيرة، تود أن تعرفها، وكلمات ترغب فى سـماعها. وكان السكوت فى الوقت المناسب، أحب ميزاتها إلى نفسى.

- ٣ -

فى يوم الصباحية، لاحظت أمى، أننا لـم نسـتحم، سألت رحمة، فخلجات من الرد، سألتننى، لـم أرد عليهـا،

شربت كلماتها، وبدأ لى الرد جزيرة أمـان مـن الصـعب، الوصول إليها.

قالت: إنى مربوط. أكملت، وكنت أستمع إليها فـى ذلك الصباح البعيد متعباً. قد تكون رحمة، على علاقة بشاب ما فى بلدتها، أحبها بجنون، وفى آخر لقاء معهـا، تحـدثت النظرات وقطرات الدمع ودقات القلوب، وقالتهـا الأصـابع المتشابكة، والأكف النائمة فى الأكف، إن الفراق قـد حـل أخيراً. رحمة تقول، لا حيلة لها فيها حدث، تطلـب منـه أن يتصرف فهو رجل. عند أحد الشـيوخ يتصـرف العاشـق العاجز، يذهب إليه، يحكى له الحكاية، المطلـوب معجـزة، ستعود له فتاته، بعد ألف سنة، المهم أن تظل عذراء.

- بسيطة يا زين الشباب.

يكتب له عملاً، يربط الرجل الآخر، هذا وحده كفيل بهدم الأسرة الجديدة، يخرج الشاب، بيده اليسرى ورقة فيهـا مطالب الشيخ، ويده اليمنى تبحث عن حافظة نقوده، يحـاول أن يعرف ما معه، وما يحتاجه كى يتم المشـروع. أخيـراً، يكتب العمل المطلوب، ورقة بيضاء، بها خطوط بقلم أحمـر لا معنى لها. يوضع العمل فى مكان يحدده الشـيخ، جـذع

شجرة عجوز، عش غراب مهجور، أسـفل بـرج حمـام، وينتظر العاشق ما سيحدث للزوج الغريم.

استمعت لحديث أمى، عجبت من راحة اليقين، التـى تبدو فى كلماتها، لم يخالجها شك فى كل ما قالته لـى، ولـم أحاول من ناحيتى أن أناقشها، كنت مهزوماً حتـى النخـاع، وكان الصباح يبدو لى مكفهـراً، مصـفر الجبـين بالمذلـة والهوان، رفضت الفكرة، قالت أمى، من المهـم أن أعـرف الشيخ الذى كتب العمل، فهو وحده القادر على إبطال مفعوله.

قالت: ليس من الهم الانتقام منه، أو تحويل الأمر إلى فضيحة، فالشامتون أكثر من أن يحصيهم العد، ومـا نطلبـه الآن هو الشفاء فقط،

- ولك رب اسمه الكريم يا بنى.

بعد حديثها، بدأ لى الليل، رحلة نحو النهاية، وتمثلت معنى العجز والمحاولات اليائسة، وتذكرت حبـات العـرق والنظرات المنكسرة، والتساؤل الذى كان يرف فـى وجـه رحمة طول الليل كالطير الحبيس، والأحرف التـى كانـت تخرج من الحلق الجاف بلا معنى، وعشت من جديد صـمت

الليلة الماضية. وقلت لنفسى: إن الصمت ليس هـو البـديل للكلام. إنه ليس امتناعاً عن إحداث أصوات. الصمت عـالم زاخر بما فيه، الصمت عالم الهجرة إلى الداخل والعجـز و التردى فى الهاوية والأسهم التى تشير إلى أسف.

طول يومى الأول. كنت نائماً. أضع رأسـى علـى وسادة قديمة، محشوة بأنات المحبـين ومغسـولة بالآمـال المؤجلة والأحلام المستحيلة التحقيق. حاولت أن أتكلـم، أن أقرب فمى من فم رحمة، أن تغلق باب حجرتنا علينا، حيـث يهدر شلال الأغنيات القديمة، أقول وتقول، أحكى وتحكـى، أغنى وتغنى، وعبر رأسينا، ينتقل طوفان الكلمات السـاخنة. قرب الظهر، اقتربت منى. بدت لى إمرأة تقدم بهـا العمـر، وقفت بجوار سريرى، وضعت يدها على حافة السرير:

- يا سى خاف.

التلفت إليها، قالت بصوت خافت كالأنين الموجع:

- إوع تزعل نفسك، شدة وتزول، أنت سيد الرجالة كلها.

تهت فى مشاعر دافقة فياضة، صعد بخار ساخن إلى صدرى ورأسى، نبتت حبات عرق فى كل مكان من جسمى. قلت لنفسى، فلتكن رحمة هى كل عالمى، رفيقة العمر، الدار والدواء، أشعرنى حديثها، بأشياء كثيرة، دم النفاس، الولادة، ليالى الزفاف، أيام الطهور، مواد القطط، نباح الكلاب، عواء الذئاب، هديل الحمام فى البنانى، نداءات إنـاث الحيوانـات، الرحم الكبير ينز منه الدم الأحمر، مياه الحمـوم ورغـوات الصابون فى حوارى العزبة صباحاً. فم طفل يمـتص ثـدياً ممتلئاً.

واستسلمت لكل ما طلب منى، كنت كالمخدر، ضرب الودع، فتح الكتاب، الاستيقاظ فى الفجر الرمادى المـوحش لرمى حجاب فى مياه ترعة لم تقع عليها عين إنسان. مـص زعازيع القصب.

شرب كميات من عسل النحل قبل الإفطار، أكل خبز معجون بدم رحمة، الذكر فى حلقات الزار، التطـوح يمينـاً وشمالاً حتى أغيب عن الوعى، الصراخ والعويـل والبكـاء والسباحة فى بحور من العرق، أكل جمـارة الـذرة، مـص رحيق الأزهار، شرب طاسة الخضة قبل الفجر، أكل قلـب

وكبدة ديك أبيض لا توجد به أى إشارة، مضغ قلـب هدهـد يتيم.

جلست أمام الغجرية، فى العين فجور، وفى الجسـد رعشة محببة.

- ارم بياضك.

مساحة الرمل تبدو فى غموض وضيق الأيام القادمة، مددت يدى فى جيبي، أعطيتها كل ما معى.

- وشوش الدكر.

ذكرت اسمى، واسم أبى واسم أمى

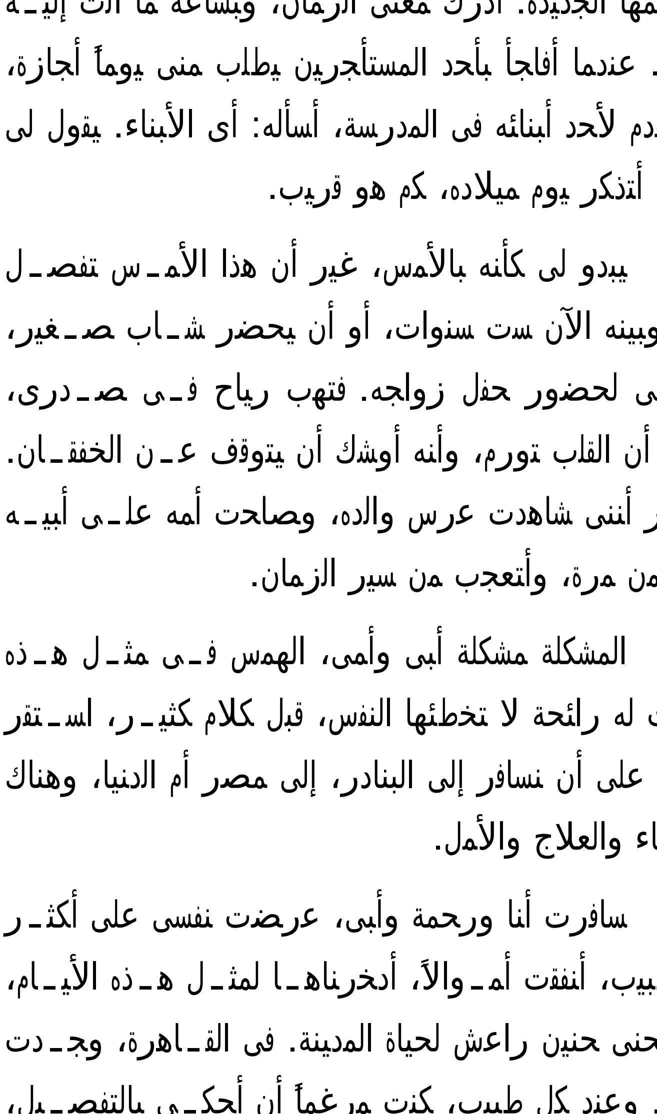
- قدامك سكة سفر

تحدثت الغجرية، دعت أن يكفينى ا شر الحسـود، ذكرتنى بنذور أنذرتها وأنستنى الأيام إياها، طلبت منـى أن أطمئن. وران صمت. منعنى الحرج أن أقول مـا عنـدى، البوح بما فى الصدور ليس هذا وقته ولا أوانه.. فـى أيـام الصبا فتحت ذراعى، وقلت لنفسى، سأقرأ وأجـرى وألعـب وأشرب كل أفراح العالم، ثم... ما حـدث كلـه معـروف. الغجرية ما زالت تتكلم، زوجتى تحبنى، يجـب أن أحـافظ

عليها، إن مستقبلاً سعيداً ينتظرنى، فى الطريق إلـى أولاد. سبعة من الذكور، وثلاث بنات كالبدور، الأحلام التى تتحقق أبداً تسيل من كلمات الغجرية، حديثها مـازال يـأتى إلـى، يتحول إلى خيوط أطير عليها إلى عالم آخر.

السفر إلى أولياء ا الصالحين سـكة فـى القلـب، النذور معلقة فى أماقى العيون، الجلوس أمام ستارة بيضـاء ساعات لن تحسب من العمر، الوسـيط ينقـل الأمـانى إلا مولانا، يعود حاملاً طلبات سيدنا: العالم أمـل. كلـه أمـل. لحظات الانتظار عصمتى الوحيدة، فدية أمام المرض وقـال مولانا: اصبر يا بنى. الصبر دواؤنا وزادنا، وصبرت، غير أنه لم يكن صبراً.. كان نوعاً من الموت.

فعلت كل ما طلب منى دون مناقشة، بـدت الثـورة على كل ما يحدث، كالجنون، البحث عن أسباب عذاب كـل يوم أمام الآخرين رحت أوكد فى كل وقت إننى رجل سـعيد. وإن رحمة أسعد نساء الأرض. حـوادث الحمـل والـولادة تضايقنى، حتى بين الحيوانات، أتوقف أمام نمـو الأطفـال السريع المدهش، قطع اللحم الحمراء التى لا تعنى أى شـئ. فى غفلة من الزمان، نفجأ بها تفرض علينا وجودها وحياتها



وأحلامها الجديدة. أدرك معنى الزمان، وبشاعة ما آلت إليـه الحال. عندما أفاجأ بأحد المستأجرين يطلب منى يوماً أجازة، كى يقدم لأحد أبنائه فى المدرسة، أسأله: أى الأبناء. يقول لى اسمه، أتذكر يوم ميلاده، كم هو قريب.

يبدو لى كأنه بالأمس، غير أن هذا الأمـس تفصـل بينى وبينه الآن ست سنوات، أو أن يحضر شـاب صـغير، يدعونى لحضور حفل زواجه. فتهب رياح فـى صـدرى، أشعر أن القلب تورم، وأنه أوشك أن يتوقف عـن الخفقـان. وأتذكر أننى شاهدت عرس والده، وصاحت أمه علـى أبيـه أكثر من مرة، وأتعجب من سير الزمان.

المشكلة مشكلة أبى وأمى، الهمس فـى مثـل هـذه البيوت له رائحة لا تخطئها النفس، قبل كلام كثيـر، اسـتقر الرأى على أن نسافر إلى البنادر، إلى مصر أم الدنيا، وهناك الحكماء والعلاج والأمل.

سافرت أنا ورحمة وأبى، عرضت نفسى على أكثـر من طبيب، أنفقت أمـوالاً، أدخرناهـا لمثـل هـذه الأيـام، واجتاحنى حنين راعش لحياة المدينة. فى القـاهرة، وجـدت نفسى. وعند كل طبيب، كنت مرغماً أن أحكـى بالتفصـيل،

وأن أجيب على ألوف الأسئلة أخذت منى عينات كثيرة. وقيل لى بالحرف الواحد، فى حضور والدى، فى إحدى حجـرات كبار الأطباء الرطبة، التى تعبـق برائحـة المستحضـرات الطبية:

- حالة عقم

أكثر من طبيب أكدوا هذا.. وجدت نفسى أصبح فى بلادة، لم أكن أشعر بحزن ولا بفرح ولا لهفة أو حبور، بـل استسلام، أقرب إلى اطمئنان من لا يفهمون الأمـور علـى حقيقتها. ثار والدى قال إنه قادر على الذهاب إلى كل بـلاد العالم، لن يعرف طعم اليأس، نقـوده قـادرة علـى فعـل المستحيل.

العودة إلى العزبة، قال والدى، سـتعود وإن كانـت المشكلة لا بد وأن تحل بشكل أو بآخر. قال إنه متأكـد مـن ذلك. قلبه دليله. وهو صادق لم يكذبه من قبل.

عدنا نحن الثلاثـة. إن شـعوراً بالتعـب والألـم، يعترينى، واشتياقاً عميقاً للراحة، يملأ نفسى. كان ما قمـت به، طوال رحلتنا يساوى جهود عمر بأكمله. وبدأ لـى مـا

يملكه والدى وهماً لا قيمة له، وتأكد لى هذا عندما أدركـت أننا لا نستطيع أن نشترى بإعلان فى الصحف صدراً رحيماً، نبكى فوقه آلامنا، واخفاقاتنا الصغيرة.

- ٤ -

آخر الليل من جديد.

تتسع الحجرة علينا، تبدو رحمـة ريانـة، مفكوكـة الشعر، تنز منها قطرات المياه، التى لهـا رائحـة الجلـود البشرية، ترتدى جلباباً على اللحم، تجلس بجوارى، تقتـرب منى، يرتجف بداخلى شئ ما من الخوف، أتحسس بأصـابع يدى ملمس جلدها الناعم، يخيل إلى، أن الرجال الغرباء خلف باب الغرفة يرون كل شئ. أغمض عينى من الخجل، أول لو أتكور بداخلها. أن أدفن وجهى فى صدرها. أن نشرب معـاً قطرات عرق الليالى. حتى ما بعد منتصف الليل، ثمة وقـت للتساؤلات والكلمات والأحلام والمنى. يدا رحمة صغيرتان. لا تغطيان كل مساحة ظهرى، العارية. ومهما مرت بيـدها على ظهرى، تبقى دائماً مساحة صغيرة معرضة للطعنـات. تدور بنا الحجرة، تعتدل، تميل، تقترب الجـدران الأربعـة،

ينخفض السقف، ترتفع الأرض، أنظر أسفل فلا أرى سـوى بئر عميقة، فراغ لا نهائى، أنظر إليها، تموت نظرات الحب الودودة فى المسافات الشاسعة بينى وبينها. أمد لهـا يـدى، يقول لى صمت الحجرة وظلامها. إنه يفصلنى عنها سـبعة بحور وسبعة بلاد وسبع سنوات عجاف.

- مالك يا زين الرجال؟

أفزع من سؤالها، أجمع غدائر الشعر الليلية، تـزداد العيون إتساعاً. يضيع العمر هباء. أتمنى أمنيات غريبـة، أن أقف على حافة الجنون، أن أدخن الجوزة حتى تشتعل النـار من الحجر، أن آكل الـدالتورة، فتـدور الـرأس، و تـزوغ النظرات وتنحل العظام، وتنفك عقدة اللسان.

- رحمة؟

- نعم يا سى خلف.

- عمرك ما رحتى المركز؟

تحاول أن تتذكر، تغمض العينين وتحرك الشفتين

- وا مانا فاكرة ياسى خلف.

اجلس فى حجرة نومى، أمامى رحمـة، ولا يمـلأ خيالى، سوى منظر شاهدته فى المركز، فى الزمان القـديم، راقصة مترهلة الجسد، تطل من وجهها أصـباغ صـارخة، شعرها أكرت ومنفوش حولهـا رجـال مبتسـمو الوجـوه، يشربون خموراً رخيصة، تفوح منها رائحة الكحول، الأيادى تمتد و الأصابع تنغرس فى مساحات اللحم، يتعرى الجسـد، كتل دافئة من اللحم النحاسى اللامع، يومها، أحسست بشـئ دافئ وحار وملتهب يجرى فى عروقى، رعشة لم تتكر بعـد ذلك أبداً. اشتقت كثيراً للمرأة، غير أنها كانت المرة الأولـى والأخيرة.

فى كل صباح، أشاهد رحمة، تبدو عيناهـا مرخـاة الأهداب على استفهام جارح، كطعنة السكين، لم كل هذا؟ لم أكن أملك الإجابة عن سؤالها، أصمت، تقترب رحمة منـى، تسكب المسك المعطر بالكافور فى أرجاء القلب، فتسـكرنى رائحته. يطول الصمت والانتظار، أخرج، أحاول أن اذيـب فى طفولة شمس الصباح، ما انتشر فى النفس من هموم الليلة السابقة، أشم رائحة الاشتهاء فى تراب الأرض المبلل بالندى.

أسير فى الحقول. أشـرب الأصـوات الصـباحية، تنحـدر النغمات والأصوات من الأذان إلى القلب فتكره.

أبتعد عن المنزل، أتوقف، أسـتدير بـبطء، أنظـر، أحاول أن أرى، أين رحمة، فى النهاية، أتمكن من رؤيتهـا، نقطة صغيرة فى الشرفة العلوية ويخيل إلى، إن وجهها الذى يبدو لى بعيداً، كأنه يبدأ أيام البكاء.

الإحتضار فى ليل طويل

- ١ -

هيا يا رحمة، لنجدل مشنقة من لحظـات الإنتظـار والسهاد والعيون الذابلة والقلوب المتآكلة، ثم نعلق نفسينا فيها بالتناول، وهناك. فى العالم الآخر، قد يصبح الليل نهراً مـن العناق والتواصل والاشتياق والحب.

عدت من المدينة البعيدة، لأنه كان يجب أن أعـود. كانت إرادة أبى " عد فوراً- كتب إلى – ولا تخف" عـدت، وإن كنت لا أدرى السبب. لم أكن أكملات تعليمـى" سـنة أو سنتين وأكمل تعليمى، وأحصل على شهادة". كـان مصـمماً على أن أستعد لتسلم العزبة، السبب واضح، جميع إخوتى من البنات أنا الرجل الوحيد فى العائلة بعد أبى.

فى أيام قليلة، أنهيت جميع أعمـالى فـى القـاهرة، وتأهبت للعودة إلى العزبة، بدا لى النقاش ومحاولات الاقناع والأخذ والعطاء دون جدوى، كان والدى يبدو قويـاً سـليماً. الأيام أمامه طويلة والأعمار بيد ا ، ولكن والـدى- ككـل

الآباء الآخرين- كان يجب أن يرى ابنه الكبير، والوحيـد، و هو يقوم بنفس الأعمال التى كان يقوم بها.

عدت، فى الأيام الأولى، اكتشفت، إن كل مـا فـى الغربة، الأرض و الزراعة والناس يسـير بطريقـة بالغـة الغرابة، لم تكن هناك دفاتر ولا حسابات ولا أوراق، كل شئ مرتبط بوجود والدى شخصياً، وكان هو الـذى يقـوم بكـل الأعمال.

فى يومى الأول، سألت فى الصباح، عـن الكاتـب وأمين المخزن وناظر العزبة والخفير والميكـانيكى، سـألت عنهم جميعاً دفعة واحدة، لتصورى أن العزبة تعنى أن هناك، نظاماً للعمل بها.

كانت دهشتى لا توصف عندما قيل لى، إنه لا توجد فى العزبة أى شخص من هؤلاء، سألت، وكيـف تصـرف الأعمال؟ لم يجب أحد، حملت تساؤلى إلى والدى، قلت لـه: إن إدارة الأعمال فن، وإن عزبة مثل هذه تحتاج إلى طـاقم من العاملين، ونظام عمل، كى تستمر الأمور، فى مواجهـة الظروف المتغيرة كل يوم.

قال أبى:

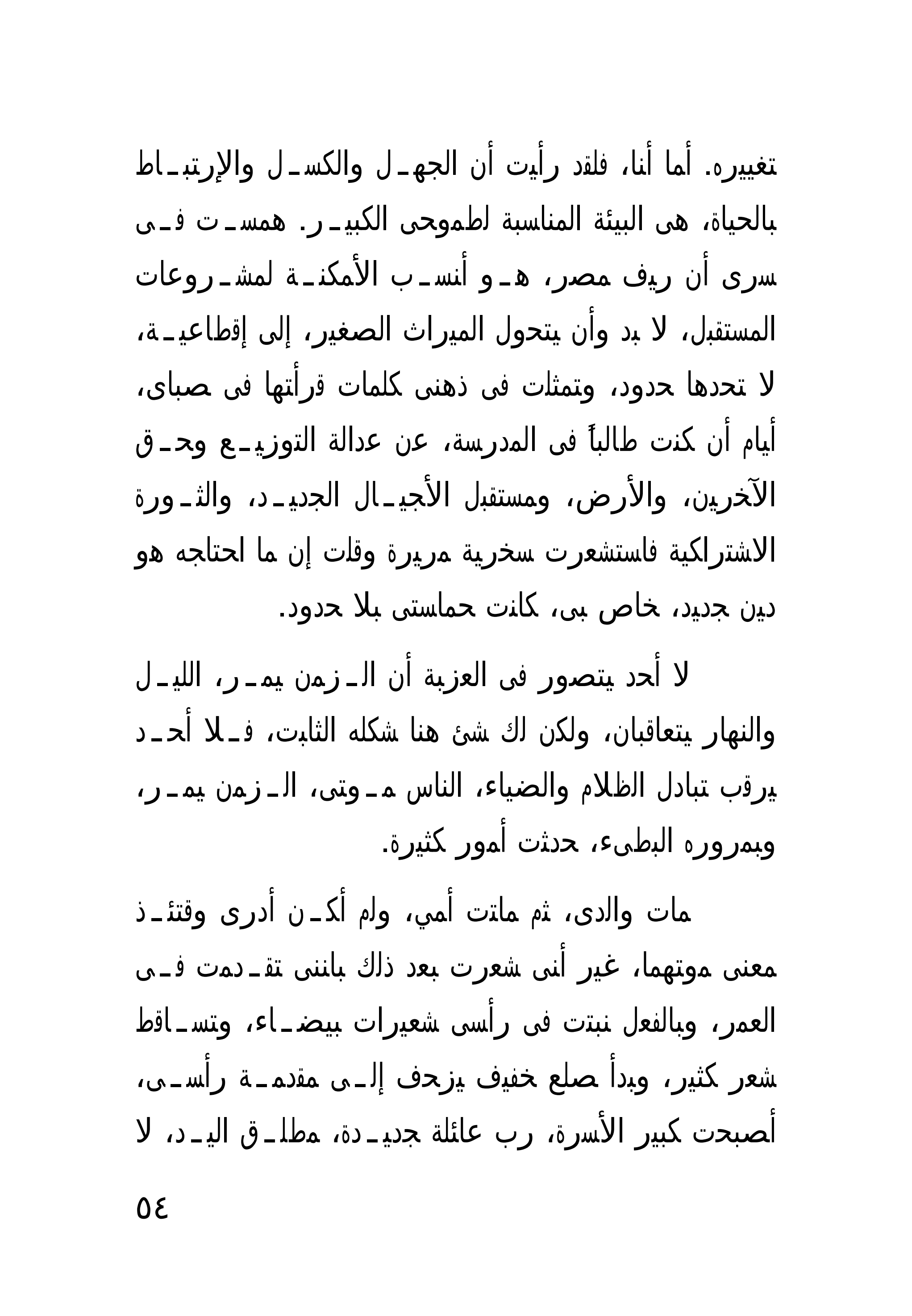
- دا كلام كتب.

عدت. لم يكن بداخلى سوى الإحساس بالصدمة، على باب بير منزلنا العظيم، توقفت، أدركت أنه توجد فى آخر حجرات هذا المنزل من الداخل، حجرة صغيرة، مدفونه، هى حجرتى: وأن هذه الحجرة لا بد وأن تستقبل إنسانة أخرى، لا أعرف إسمها حتى الآن. فأصابنى انكسار جديد.

- ٢ -

حاولت أن أعرف مقدار ما يملكه والدى، بدت لى الأرقام صغيرة بالنسبة لما أتصوره من قبل، سألت عن الموارد الأخرى، غير الزراعة، لم يكن هناك سوى الزراعة، زراعة أراض ملكنا وأرض مؤجرة.

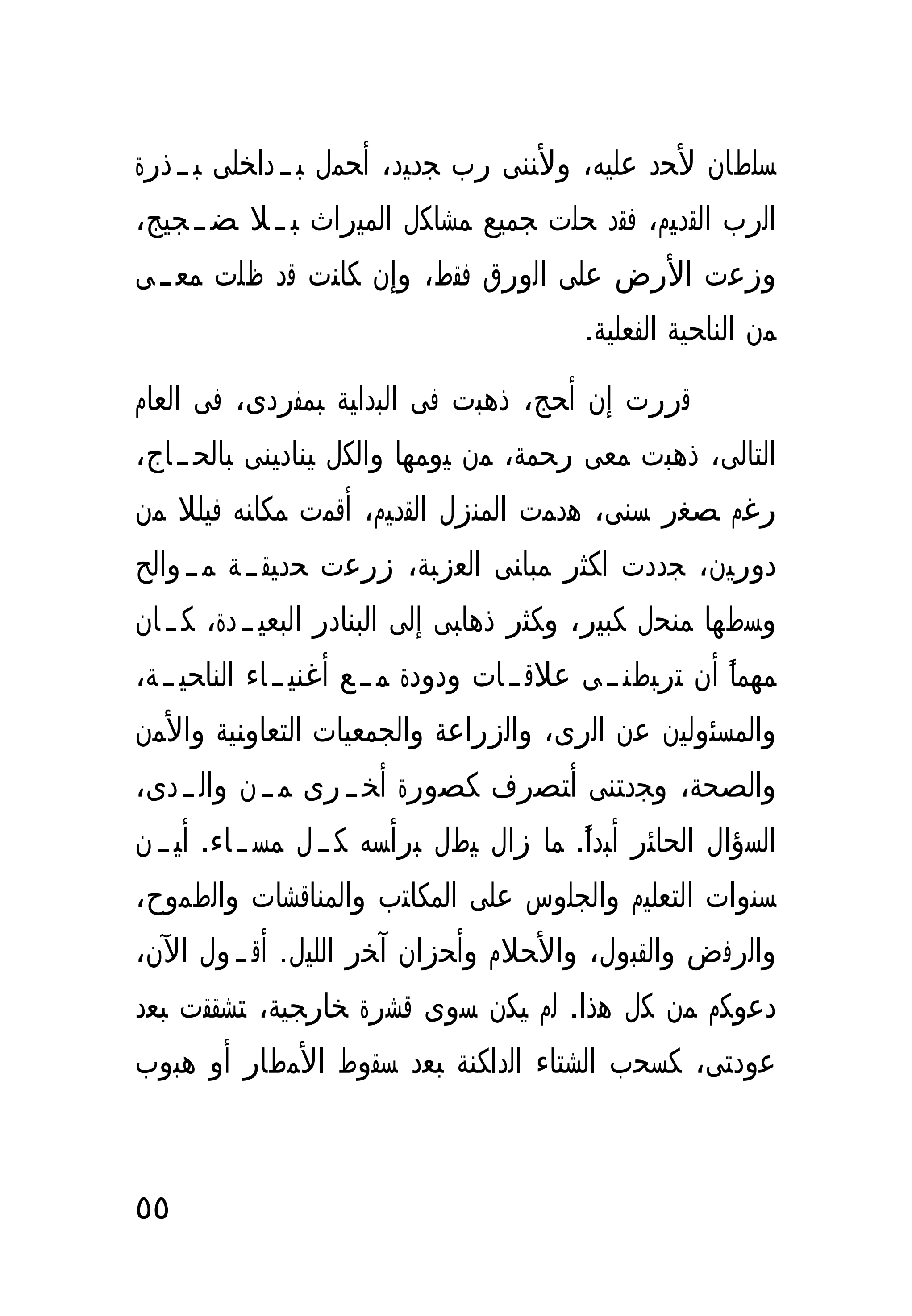
قلت لنفسى إن المطلوب منى أن يتضاعف هذا الرقم فى سنوات قليلة، ليتحول فشلى الممثل فى دعوتى، إلى نجاح من نوع آخر. كانت الناس سكرى بطموحات صغيرة تافهة، كانوا مرتبطين بالأرض وبشكل ثابت للحياة من الصعب



تغييره. أما أنا، فلقد رأيت أن الجهـل والكسـل والإرتبـاط بالحياة، هى البيئة المناسبة لطموحى الكبيـر. همسـت فـى سرى أن ريف مصر، هـو أنسـب الأمكنـة لمشـروعات المستقبل، لا بد وأن يتحول الميراث الصغير، إلى إقطاعيـة، لا تحدها حدود، وتمثلت فى ذهنى كلمات قرأتها فى صباى، أيام أن كنت طالباً فى المدرسة، عن عدالة التوزيـع وحـق الآخرين، والأرض، ومستقبل الأجيـال الجديـد، والثـورة الاشتراكية فاستشعرت سخرية مريرة وقلت إن ما احتاجه هو دين جديد، خاص بى، كانت حماستى بلا حدود.

لا أحد يتصور فى العزبة أن الـزمن يمـر، الليـل والنهار يتعاقبان، ولكن لك شئ هنا شكله الثابت، فـلا أحـد يرقب تبادل الظلام والضياء، الناس مـوتى، الـزمن يمـر، وبمروره البطىء، حدثت أمور كثيرة.

مات والدى، ثم ماتت أمي، ولم أكـن أدرى وقتئـذ معنى موتهما، غير أنى شعرت بعد ذلك باننى تقـدمت فـى العمر، وبالفعل نبتت فى رأسى شعيرات بيضـاء، وتسـاقط شعر كثير، وبدأ صلع خفيف يزحف إلـى مقدمـة رأسـى، أصبحت كبير الأسرة، رب عائلة جديـدة، مطلـق اليـد، لا



سلطان لأحد عليه، ولأننى رب جديد، أحمل بـداخلى بـذرة الرب القديم، فقد حلت جميع مشاكل الميراث بـلا ضـجيج، وزعت الأرض على الورق فقط، وإن كانت قد ظلت معـى من الناحية الفعلية.

قررت إن أحج، ذهبت فى البداية بمفردى، فى العام التالى، ذهبت معى رحمة، من يومها والكل ينادينى بالحـاج، رغم صغر سنى، هدمت المنزل القديم، أقمت مكانه فيللا من دورين، جددت اكثر مبانى العزبة، زرعت حديقـة مـوالح وسطها منحل كبير، وكثر ذهابى إلى البنادر البعيـدة، كـان مهماً أن تربطنـى علاقـات ودودة مـع أغنيـاء الناحيـة، والمسئولين عن الرى، والزراعة والجمعيات التعاونية والأمن والصحة، وجدتنى أتصرف كصورة أخـرى مـن والـدى، السؤال الحائر أبداً. ما زال يطل برأسه كـل مسـاء. أيـن سنوات التعليم والجلوس على المكاتب والمناقشات والطموح، والرفض والقبول، والأحلام وأحزان آخر الليل. أقـول الآن، دعوكم من كل هذا. لم يكن سوى قشرة خارجية، تشققت بعد عودتى، كسحب الشتاء الداكنة بعد سقوط الأمطار أو هبوب

الرياح، وبقى ما أسميه بالبذرة الداخلية، روح العائلة، التـى عمرت هنا ألوف السنين، أنا نتاجها بكل ما فيها.

قال لى و الدى، قبل أن يموت بفترة، إن الظـروف فى مصر الآن، أصبحت ضدنا:

- كل الظروف.

أكد والدى ذلك، وكنت أفهم ما يعنيه بكلمة الظروف، كان يقول لى، إن تاريخ عائلتنا طويل فـى الناحيـة، نحـن الجيل السابع أو الثامن منه، ،عن كان الآباء والأجداد حافظوا على ماورثوه حتى الآن، بل زادو عليه أحيانـاً، أكـد لـى والدى، إنه زاد على ماورثه خمسين فداناً، ولولا الظـروف الجديدة، والتهديد بنزع الملكية، ونظام الإيجارات، وارتفـاع أجور العمال، لأصبح عنده ألف فدان.

- أما أغنياء هذه الأيام.

قال أبى، إن هناك أغنياء جدداً، ليست لهم عـائلات قديمة، يغتنون فجأة، هؤلاء أمرهم غريب، الجيل الأول يجمع الثروة ويصل لحد الغنى، والجيل الذى يليه، عليه أن ينفقهـا عن آخرها وكان ا بالسر عليماً،

- أما عائلتنا نحن.

قال أبى، أننا فرع من عايلة قديمة، قدم مصر نفسها.

- عائلة قديمة، كبيرة، مفرعة فروعاً كبيرة.

أكمل أبى، إن الأصل يقيم فى الصعيد، هناك أهلـى وأعمامى، تذكرت أننى أعرفهم، فهم يحضرون إلينـا فـى المناسبات الهامة، الزواج أو الوفاة، قال أبى. إنـه مطلـوب منى، أن أحافظ على اسم العائلة بأى وسيلة كانت.

كان والدى راقداً على سريره القديم، ينظر فى ظلام المساء الوليد، بدأ يحدثنى عن مخاوف يشعر بها أكثر منـى، طلب منى ألا يعرف اليأس سبيله إلى نفسى، وأن أفكر فـى الزواج مرة أخرى، وأن أدرك، أن كل ما أقوم به، محافظـة على ما جمعه الأجداد. كنت أنصت إليه، أشـرب كلماتـه، عيناى مفتوحتان على آخرهما. يحاول أن أثبت صورته على جدران الذاكرة، طريقته فى الحديث، فتح فمه، غلقه نظرتـه إلى، رقدته، الذبول فى عينيه، المرض فوق ملامح وجهه.

خرجت من حجرته، وأنا لا أستطيع حتى الوقـوف على الأرض، للحظة، شعرت بخوف قاتل يسرى فى دمـى،

ولكنى أدركت أنه لا بد لى من أعمل، ومن يومها أشعر أنى رجل جديد.

أقبلت على حياتى بنهم، دخلت فى أعمال تجاريـة، خارج نطاق الزراعة، كان النجاح حليفى، وكنت أعجب من إقبالى الشره على الحياة، إن علاقة غريبة تربطنى بالـدنيا، لقد كنا، كمن يعانق عدواً لدوداً ليس فى وسعه أن يهزمـه، وبدا لى، فى هذه الفترة على الأقل، أن قبول مصير شاحب، أيسر من التخلى عنه.

سعدت بكل ما حولى، وعشت على اعتقاد غريـب، بأن الأغنياء، خلقوا لكى يكونوا أغنياء، وأما الفقـراء، فلقـد خلقوا، لكى يصبحوا فقراء، وكنت أتصور، أن الفقير سـعيد بفقره، متمسك به، محافظ عليه، مثل سعادة الغنى بغناه، قلت لنفسى، إن حدث فى مصر تغيير ما، فمعناه الوحيد، أن يزداد الغنى غنى، و الفقير فقراً، وكان هذا هـو التغييـر الوحيـد المطلوب فى نظرى.

هأنذا أحبس نقفسى فى منزلى الكبير، مـع زوجـة مطيعة بكماء، لا يسمع كل منا الآخـر، إلا كلامـاً شـحيحاً قاسياً، أخاف من الناس ولا أصادق إنساناً، لا أشعر بالحاجة

إلى الثقة فى أحد، وسلواى الوحيدة، الاكتفاء بجمـع المـال، وشراء الأرض، إن لذة جمع المال وتكديسه أصبحت تفـوق كل ما عداها فى نفسى، أدهشنى رغبتى فى الاستيلاء علـى كل ما حولى، وربما كان ذلك راجعاً إلـى كثـرة الفقـراء حولى.

أجلس فى الليل، فى حجرتى، الظلام مـن حـولى، أحاول أن أتصور مستقبل أيامى، أحصى مـا يملكـه أكبـر أثرياء العالم، تتضاءل أكبر الأرقام فى نظرى، أكتشـفت إن طموحى لا تحده حدود، وأقرر أن ما سـأملكه بعـد عشـر سنوات يجب أن يكون أكبر من كل هـذه الأرقـام.(كنـت أتصور أرقامها لا أجرؤ حتى على كتابتها هنـا). وارسـم بنفسى فى ظلام الليل، والليل يخفى حقائق الأشياء. الوسـائل التى سأحقق بها الأحلام. لم أكن أنسى أدنى التفاصيل، إن ما آل إلى من الأرض والجاه قليل. وكنت اقرر كل مسـاء، إن أفعل ما لم يفعله أحد من قبل.

أنظر إلى نفسى الآن، اكتشف فقـدان حماسـتى، لا أعرف كيف ومتى بدأ الأمر، الأمور كلها تسـتوى عنـدى، الفقر والغنى، الحيـاة والمـوت، الحـب والكراهيـة، ذاب

الطموح، ما أملكه يكفينى حتى الموت، وفى هذا الكفايـة، (مع افتراض أن أمامى ثلاثين سنة سأعيشها).

ومنذ سنوات، قلت لنفسى وأنا أسـير فـى شـوارع القاهرة، بجوار فتاة صغيرة، زرقاء العينين، لا أذكر اسمها، الأرض تساوى العرض، ولو أخذ منى فى المستقبل، قيراطاً واحد لدمرت الكون، وأشعلت النار فى مصر كلهـا. قلـت الكثير عن أحلامى، وكنت أقول لنفسى، فى أكثر الأوقات.

كل ما فى العزبة تغير، الزراعة، والنـاس، الـربح والخسارة، ازداد طلب إخواتى للمال، لا أحد يـدرى كيـف توزع علينا الأدوار، قد تكون قصتك نهاية قصة اعز النـاس عليك، مرة أخرى لا أحد يـدرى، أخـواتى يهـددننى بيـع ميراثهن من الأرض، عمال الزراعة والمستأجرون تغيـرت معاملتهم، انتهت أيام خضوعهم، الدنيا تغيم فى عينى، أحتار ماذا أفعل، أحساس كابوسى يضغط على، أشعر أننى عـاجز حتى عن التنفس، أثور، تسرع دقات القلب. فى الغد، الصباح الباكر على الأكثر، سأفعل المعجزات لا مطلـب لـى الآن، سوى أن يمتد بى العمر حتى الصباح. فى الصـباح، يكـون الخمول والكسل واللامبالاة. أبقى فى سريرى حتى الظهـر،

وقد أظل نائماً طول النهار فاتحاً عينى، شاغلاً ذهنى بـأمور تافهة. قرب الغسق، أجلس فى الشرفة البحرية، أنظـر إلـى الحقول، والليل الزاحف، اتذوق صمت ساعة الغروب، أتذكر كل الأمور، لا يبقى لى فى النهاية سوى رماد الذكريات، إن ما يفزعنى أن اليوم الذى يمر لا يعـود آخـر مثلـه، وأن القيراط الذى أبيعه من الأرض، لن أشترى غيره أبداً.

فى النهار، أسير كثيراً، بين الحقول، حتى أصل إلى جسر البحر، وهو الطريق العالى بجوار النيل، إنـه أعلـى مكان فى الناحية، أتوقف بعد صعود طويـل، مـن حـولى أشجار الكافور والجازورين، تفوح منها رائحـة الخصـوبة، على البعد، تلوح العزبة، أرضى، لا أكـاد أرى حـدودها، اشمس ساطعة، السماء زرقاء. الصمت يلف المكان بداخلـه، فى وقفتى، أدرك معنى المجهول، أتجاوز بعينى الخط الـذى تلتقى عنده السماء بالأرض، عند هذا الخط البعيـد، البعيـد، توجد أجوبة شافية على كل تساؤلاتى، وحياة أكثف وأغنـى وأكثر حرارة من حياتى الجافة التى أحياها مع رحمة.

الحلم فى العراء، الإبحار فى السـنوات العجـاف، إنكسار الظلال لحظة الهجير. القاهرة والصخب والضـجيج،

رائحة هواء الاسكندرية المبلل بالمياه، الفتيات الصـغيرات، تعبير البراءة علـى وجـوه الأطفـال، الوجـوه المبتسـمة الضاحكة، الأولاد، المال، ليـالى الجـنس، أنهـار العنـاق والقبلات، السباحة فى بحار العرق، آه ما أكثر مـا حملـت، إنى أوكد، إنه لا توجد أشياء لم أحلم بها قط.

- ٣ -

لنتحدث قليلاً عن رحمة:

أغدقت فى الانفاق عليها، حاولت أن أحـافظ علـى حبها لى، كنت أعول كثيراً على أن أغرقهـا فـى التـرف والغنى، الإنسان يألف الترف والرخاء بسهولة، يصعب عليه أن يستغنى عنه، يصبح ضرورة من الضرورات بعد فتـرة ما. أو من بأن للحواس سلطاناً لا يقهر، وأنـا أحتـرم هـذا السلطات. رحت أنتظر اليوم الذى يستبعد الترف فيه حواس رحمة.

- ينقصنا.

بتلك الكلمة، تبدأ رحمة حديث كـل مسـاء، كـان ينقصها الكثير، طفل صغير، وقد لا يبدو الطفل بهذه الدرجة

من الأهمية أمام الآخرين، غير أن أؤكد أنه أهـم مـا فـى الحياة. الأطفال هم السبب الوحيد لمواصلة الحياة، كل الناس لا تطب سوى ذلك، وعندما يقول أحدهم، إنه يود أن ينجـب من يرثه أو يحمل اسمه، أو يكون امتداداً له، فهـو كـاذب. الصدق الوحيد، أ، نقول أن منظر الأطفال، خاصـة عنـدما يكونون فى الثانية أو الثالثة من العمر يبلغ أقصى درجـات الجمال البشرى، إنهم يصبحون مبرراً قوياً للحياة عند آبائهم وأمهاتهم. آه. مواصلة الحياة. هلـى تفهـم معنـى الكلمـة. لأكررها، مواصلة الحياة.. حتى لو سرقنا أو نهبنا أو قتلنـا. إن ذلك لن يكون نابعاً من الرغبة فى العذاب أو حب الغير. بل من أجمل صور الحياة وهى تنفجر فى جزء صغير منك، طفل رائع يعبث بيديه فى الهواء. ينطق الحروف مكسـرة، هشة، متآكلة، وهو لايدرى أى شئ عن هذا العالم.

فى أول المساء، تبدأ رحمة حديثها عنه، طفلنا، أهـم أطفال الكون، فى البداية تمنحه أسماً، لا أعرف لم كان الطفل فى حكاياتها ذكراً، لم تتصوره فتاة أبداً، تتحول رحمة إلـى خالق، تعطيه صفاته:

- أبيض فى لون الحليب، طول عود السرو.

هكذا كانت رحمة تقول.

الليل يتقدم، وهى ما زالت تتكلم، تسرع الكلمات فى فمها، ويخيل إلى، للحظة ما، أن الطفل معنا، يجرى، يلعب، يحرك يديه فى الهواء، ليلنا مفعم بالصمت الذى يحدثه بكـاء طفل يطلب أمه.

ألوح بيدى يائساً، أحاول أن أطلب منهـا السـكوت، تصبح المرارة جبالاً فى القلب، أقول لنفسى، فلتتكلم، فكل ما فى هذا العالم، له نهاية ما على أى حال.

وهذا ما يحدث كل ليلة. إن الكلمات فى فم رحمـة، تصبح كسولة، مسترخية بليدة، بطيئـة الخـروج، وتبتلـع لحظات الصمت كل الكلمات فى فمها، فتصمت:

- تصبح على خير يا سى خلف.

رائحة النوم فى كلماتها، أرد ببطء:

- وأنت من أهله يا رحمة.

* * *

لهفة ما بعد الأوان

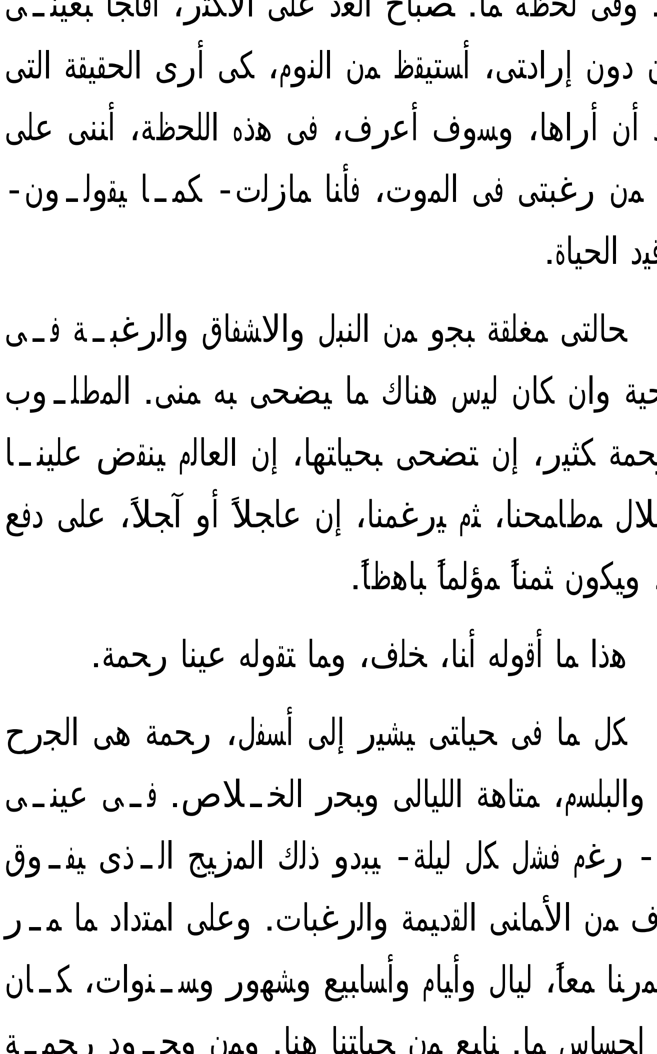
- ٢ -

أصبحت أرى حياتى الآن، من خلال وضوح مـؤلم، لا مفر منه أبداً، وإن كان قد أتى، بعد فوات الأوان، الذهاب إلى المشايخ فى البلاد البعيدة، تحمل الكـى بالنـار، فـوق الظهر، فى أكثر من موضع، فى منتصـف الـرأس، فـوق الظهر، على الساقين، تحملت الكثير:

- لعل وعسى.

- كنت أقول ذلك لنفسى فى كل مرة، إن الأمـل لا ينضب فى قلوبنا أبداً. حتى آخر لحظات العمر، ثمة أمل ما. حاولت وحاولت، لم تكن المحاولات تمرداً وعصـياناً، بـل كانت استسلاماً مطلقاً.

إن نضوباً هائلاً أمتص الرغبة فى الحياة بـداخلي، ولكن جسمى يواصل حياته، حتى أثناء نومى، الدم يدور فى العروق، المعدة تمتلئ بالطعام فى مواعيدها، تنمو أظـافرى، يطول شعرى، تنبت لحيتى كالمعتاد، يتصبب جسمى عرقـاً



بالليل. وفى لحظة ما. صباح الغد على الأكثر، أفاجأ بعينـى تفتحان دون إرادتى، أستيقظ من النوم، كى أرى الحقيقة التى لا أود أن أراها، وسوف أعرف، فى هذه اللحظة، أننى على الرغم من رغبتى فى الموت، فأنا مازلت- كمـا يقولـون- على قيد الحياة.

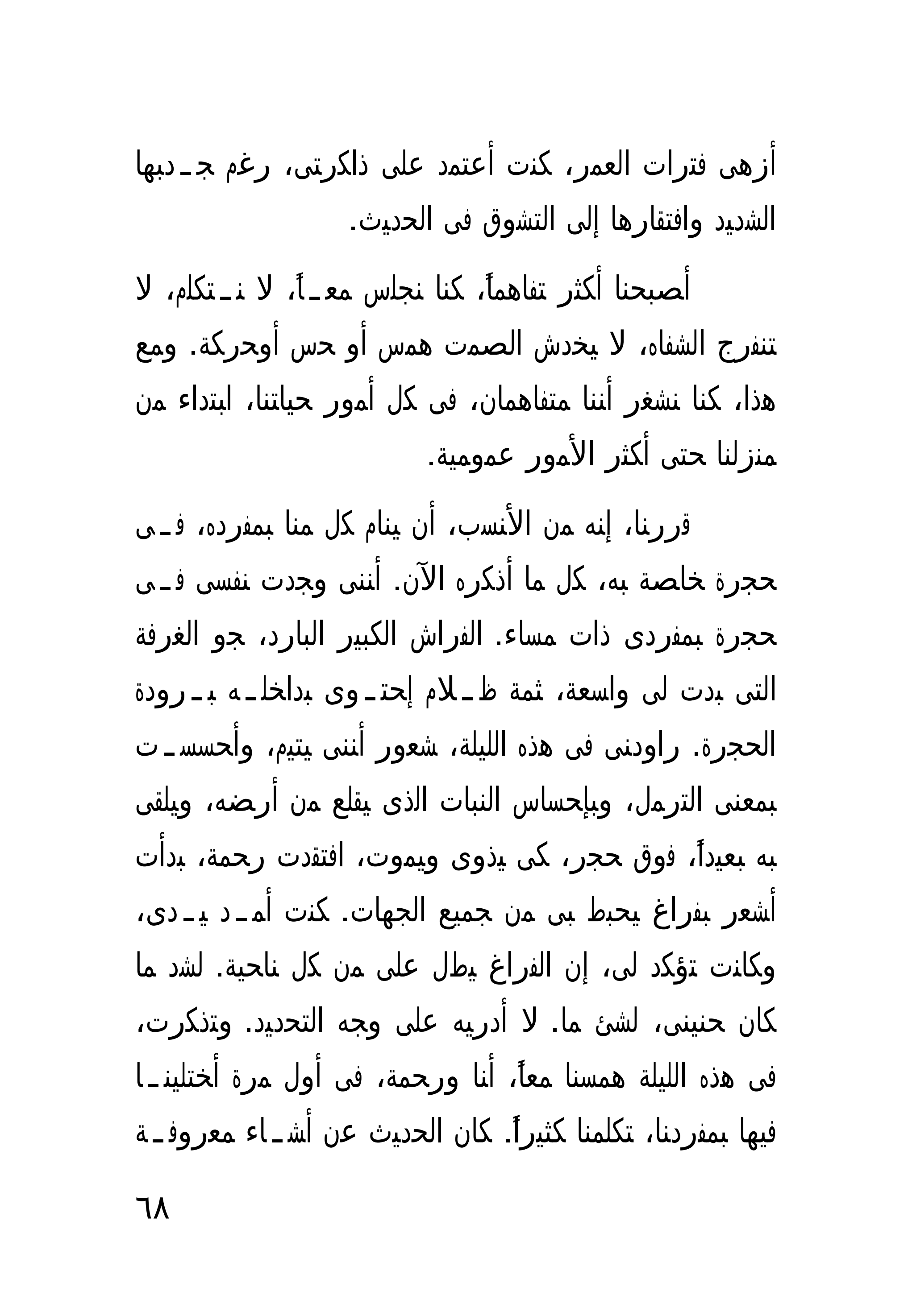
حالتى مغلقة بجو من النبل والاشفاق والرغبـة فـى التضحية وان كان ليس هناك ما يضحى به منى. المطلـوب من رحمة كثير، إن تضحى بحياتها، إن العالم ينقض علينـا من خلال مطامحنا، ثم يرغمنا، إن عاجلاً أو آجلاً، على دفع الثمن، ويكون ثمناً مؤلماً باهظاً.

هذا ما أقوله أنا، خاف، وما تقوله عينا رحمة.

كل ما فى حياتى يشير إلى أسفل، رحمة هى الجرح والألم والبلسم، متاهة الليالى وبحر الخـلاص. فـى عينـى رحمة- رغم فشل كل ليلة- يبدو ذلك المزيج الـذى يفـوق الوصف من الأمانى القديمة والرغبات. وعلى امتداد ما مـر من عمرنا معاً، ليال وأيام وأسابيع وشهور وسـنوات، كـان عندى إحساس ما. نابع من حياتنا هنا. ومن وجـود رحمـة

معى، إن الأمور ستحل فى النهاية، وهذا مـا دفعنـى إلـى الجرى والتعلق بالآمال الكاذبة.

يأتى الليل، أشرب نفسى بلا رغبة، عذاب الظـلام، رحلات الشك واليقين، الإبحار فوق أجنحة الكلمـات، فـى بحار بلا شاطئ آخر، وفى وسط هذا العالم، لم يبق لى سوى رحمة، أقتربت منها واقتربت منى، نمـت بجوارهـا ليـالى طويلة شحيحة المتعة، دخلت عليها الحمـام وهـى عاريـة، جريت وراءها والفوطة فى يدى، كى أجفف لها جسدها الذى تنز منه مياه الاستحمام، قبلت شفتيها وعليها بقايـا طعـام، بكيت على صدرها، قلت لها ما لم أقله لأحد أبداً، ما أخجـل منه، أعترفت بين يديها، كانت الوحيدة التى تحدثت معها عن عجزى. تبدو قانعة، تحسست بيـدى جسـدها وهـى فتـاة صغيرة، أخذتها فى أحضانى وقد امتلأ جسـدها وأصـبحت امرأة مكتملة الأنوثة. فى الليالى الأولى، كنت أود أن أبـدو فى نظرها رجلاً مسربلاً بالأسرار. إن الناس يرتدون، أفخر ملابسهم، كى يقابلوا ضيوفاً، حتى وإن كانوا فى المنزل، لـم يكن فى حاضرى ما أحكيه لها. عهد الصبا والشـباب هـو



أزهى فترات العمر، كنت أعتمد على ذاكرتى، رغم جـدبها الشديد وافتقارها إلى التشوق فى الحديث.

أصبحنا أكثر تفاهماً، كنا نجلس معـاً، لا نـتكلم، لا تنفرج الشفاه، لا يخدش الصمت همس أو حس أوحركة. ومع هذا، كنا نشعر أننا متفاهمان، فى كل أمور حياتنا، ابتداء من منزلنا حتى أكثر الأمور عمومية.

قررنا، إنه من الأنسب، أن ينام كل منا بمفرده، فـى حجرة خاصة به، كل ما أذكره الآن. أننى وجدت نفسى فـى حجرة بمفردى ذات مساء. الفراش الكبير البارد، جو الغرفة التى بدت لى واسعة، ثمة ظـلام إحتـوى بداخلـه بـرودة الحجرة. راودنى فى هذه الليلة، شعور أننى يتيم، وأحسسـت بمعنى الترمل، وبإحساس النبات الذى يقلع من أرضه، ويلقى به بعيداً، فوق حجر، كى يذوى ويموت، افتقدت رحمة، بدأت أشعر بفراغ يحبط بى من جميع الجهات. كنت أمـد يـدى، وكانت تؤكد لى، إن الفراغ يطل على من كل ناحية. لشد ما كان حنينى، لشئ ما. لا أدريه على وجه التحديد. وتذكرت، فى هذه الليلة همسنا معاً، أنا ورحمة، فى أول مرة أختلينـا فيها بمفردنا، تكلمنا كثيراً. كان الحديث عن أشـاء معروفـة

لنا، غير أننا تذوقنا لذة قولها على الألسن، ونحن ننطق بها، الحديث المألوف، عن الاسم والسن ومسقط الـرأس، أحـب الألوان، الأمنيات المؤجلة، ذكريـات الشـباب الأول. كـان صوت رحمة هادئاً وادعاً، كصوت قادم من ديـار العشـق والمحبة، وكان صوتى مزيجاً من الراحة والحدو والاشـتهاء والتحفظ.

كنا سعداء. ولكن أين ذلك منا الآن.

فى الليلة الثانية، بدت لى غرفة نومى باردة كئيبـة، وعندما مددت جسمى على السرير، تصـورت أن المـلاءة مبتلة بفعل الطل، مددت يدى، تحسستها، لـم تكـن مبتلـة، وعندما نمت فى السرير، بدا لى أنى أضع جسدى على سطح من الصلصال البارد. احترت، لم أشعر بـذلك فـى الليلـة الماضية، الحجرة كانت حجرتنا، كانت مضـاءة ومفروشـة وتعبق برائحتنا. إن حرارة أنفاس رحمـة، ودفء حواسـنا تخلق جواً من الشفافية والوهم والضباب، يخفى عن أعيننـا حقائق الأشياء.

بدأت أفكر، وأحدث نفسى طول الليل، لم أكن أنـم، كنت أنصت لليل العزبة وصوت تقلب رحمة فى سريرها فى

حجرتها. فى كل ليلة، أتصور أن وجود رحمة معى أمان فى حد ذاته، وكنت على وشك أن اجرى إليها، وأناديها، وجودها كان عذاباً جسدها الشاب المتفجر، الـذى يريـد،، شـبابها وجمالها، يبنوع حزن. أخذت أروض نفسـى علـى النـوم بمفردى. فى أكثر الليالى، كنت أقوم، بعد انتصـاف الليـل، أرتدى ملابسى، أخرج بلا هدف، هروباً من الـذهاب إليهـا والنوم معها، آه وفى الليل، تحلو تعزية النفس، إنـى أقـول لنفسى، ما من رجل فى هذا العالم يموت، ما من رجل مهما صغر أوقلت قيمته يموت، ما من رجل فى هذا العالم يموت، ما من رجل مهما صغر أو قلت قيمته يموت، دون أن ينقـل للآخرين جزءاً منه، حركته، حكمته، ابتسامته، ما من أحـد يترك عالمنا دون أن يخلف شيئاً ما. يضـاف إلـى النـاس جميعاً. ما كنت أعنى سوى رحمة، كنت متمثلاً فيها، أعيش فى داخلها، كانت رحمة، معجبة بى، فأنا أعنى لها، المنـزل والمستقبل وعذاب الليل، ونقاط العرق فى السرير والخـوف من المجهول، وكلما نظرت رحمة إلى، أدركت، أن الذين لم يفقدوا حماسهم للدنيا، رغم الاحباط والفشل، أبطال بشكل ما.

فى رحمة بطولة، نوع من البطولة التـى لا يتحـدث عنهـا الناس كثيراً.

وتتحول حياتى كلها إلى أستفهام جارح، أوجهه إلـى نفسى: هل سبق أن عرفت المرأة، أقصـد كرجـل، أتـذكر وأحصى، أسترجع العمر كله، تبدو لى الـذكريات شـاحبة، أقف طويلاً أمام سمارة، وأضحك منها ومـن نفسـى ومـن الدنيا.

سمارة فتاة ريانة العود، لينة، رائعة، تعمل فى أحـد حقول العزبة، خاف شاب خجول. أدرك أن كل ما فى العزبة ملكى، سمارة. بين الشفتين ترف الكلمات كالطير الحبـيس. السير وقت القيلولة بين الحقول، متعة خاصـة لـى، تحـت شجرة عجوز، تقف سمارة، تشير لى بيـدها. وقفـت فـى مكانى. اليدان ممدوتان كالأمل. وأطل من العينين الناعستين والجسد المتفجر والنظرة اللينة، نداء حـار، لـم أتحـرك. وتذكرت أن أمى قالت لى، إن لحظة القيلولـة، هـى وقـت ظهور الجنيات وسط الحقول.

- تعال يا سيدى خاف.

خفت، اتجهت نحوها، نامت يدى فى لحمها الـدافئ، اقتربت منها، جلست على الأرض تحت الشجرة، تربعـت، وضعت رأسى على فخدها، أحسست عن قرب بليونة ودفء تجويف البطن، مدت يدها، مرت بها على وجهى، خيل إلى، أنها تمسح عنه الألم والتعب وآثام الشباب.

- سمارة.

- مالك.

لم أكمل حديثى، مدت يدها، خلعت جلبابى، وخلعـت جلبابها، أشارت إلى أن أكمل خلع ملابسى، وأكملـت خلـع ملابسها بسرعة، الصدر والبطن و الفخذين، مساحات مـن اللحم البرونزى اللامع، شاهدت غراباً أسود يطير فى الجو، فأسرع فى طيرانه، واقتربت منـا سـحلية فولـت هاربـة، وخرجت من مياه القناة ضفدعة، فعادت إلى الماء، العالم كله مساحات من اللحم الدسم الدافئ، نقطة عرق تنزلق من الكتف إلى ما بين النهدين، شفتاها تتحركان، الجسد يطلب العطـاه. كتلة اللحم تقترب، بدا لى الأمر مفزعاً، وغنت فـى داخلـى أصوات مبحوحة، وانسالت فى الأعماق قطرات دمع دافئـة. وقالت لى أمى ذات مساء. إن ذلك حرام، وخـوفتننى مـن

جنس النساء، وحكت حكايت، أصابتنى بالغثيان، غير أنـى كنت أود أن يحدث هذا الحرام، كنت أتوق إليه بكل ذرة فى كيانى.

- لا يا سمارة.

- ياه... ليه؟.

ماتت فى عينيها رغبة وظمأ وجوع، ومات بـداخلى احساس كان قد استيقظ لتوه، ولم أعشه بعد ذلك أبداً.

- ٢ -

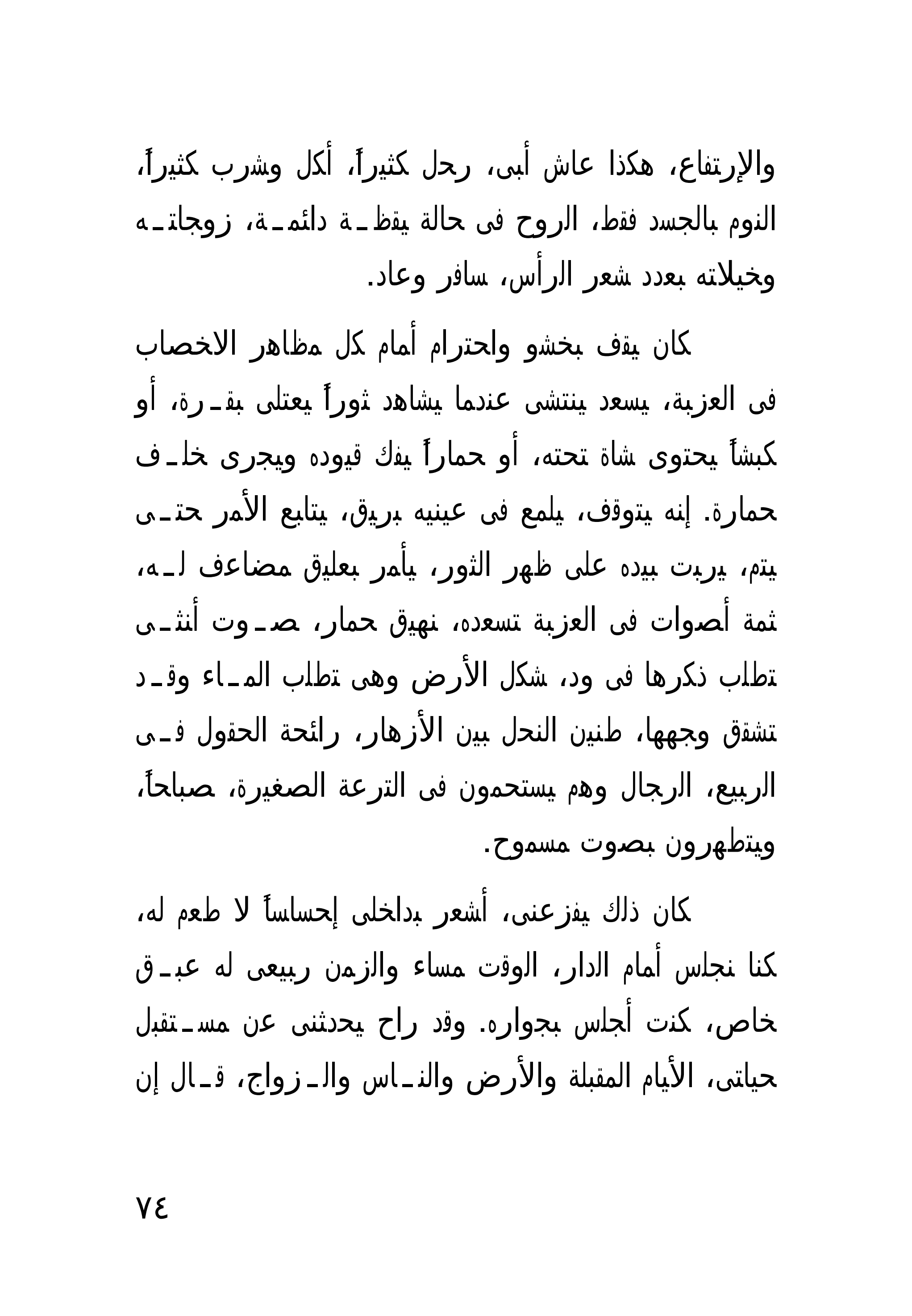
كان أبى يقول لى:

- الرجولة كنز يا خالف

- يعنى إين كنز؟

- شوف يا سيدى

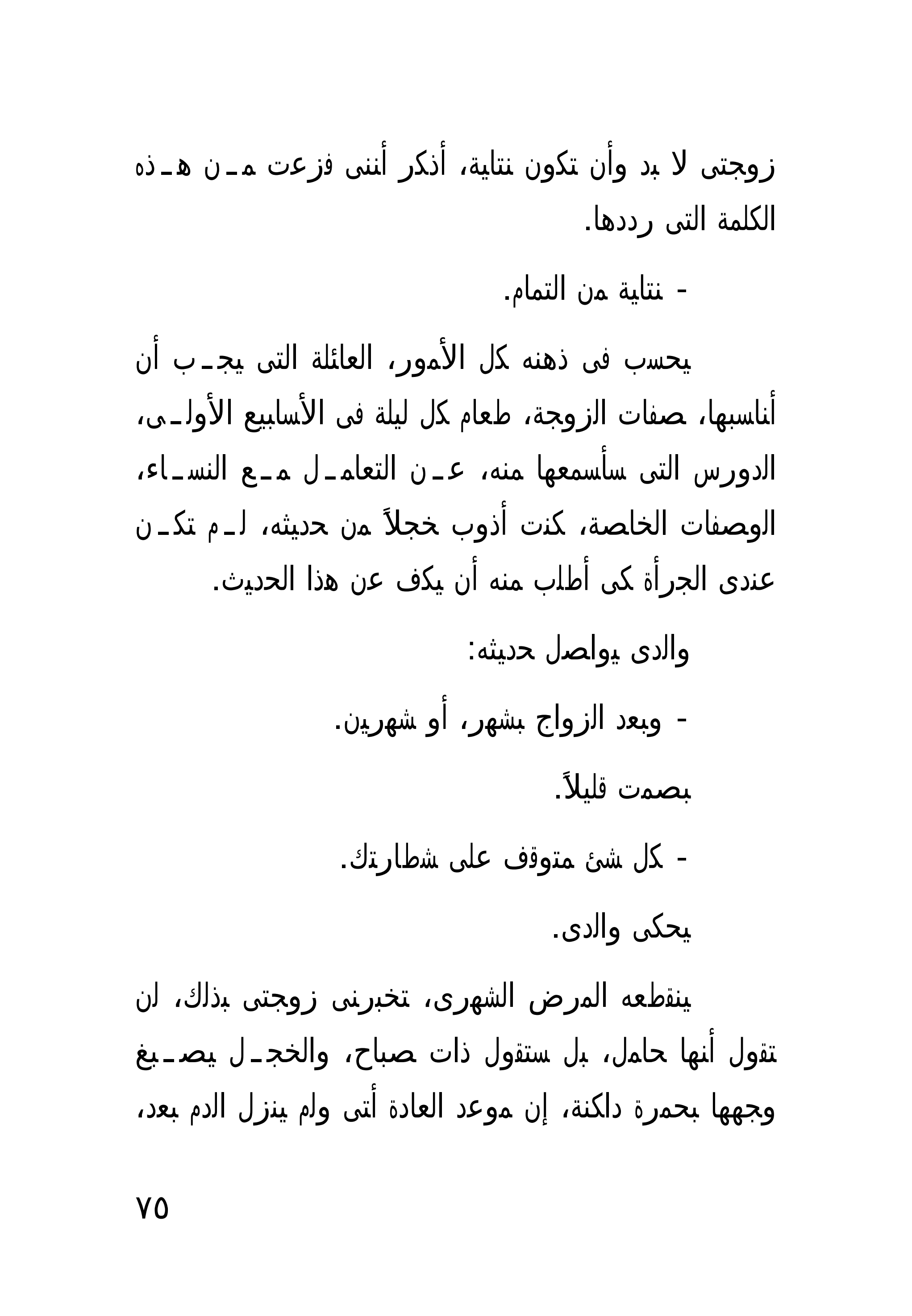
كان يتكلم كثيراً عن الرجولة والرجـال، الرجولـة مرتبطة فى ذهنه بالذكورة، والغزارة الجنسية، الحديث عـن غزاوته وعلاقاته بسبب له نشوة خاصة، الرجل فـى نظـر أبى، هو من يعـيش حياتـه بـالطول والعـرض والعمـق



والإرتفاع، هكذا عاش أبى، رحل كثيراً، أكل وشرب كثيراً، النوم بالجسد فقط، الروح فى حالة يقظـة دائمـة، زوجاتـه وخيلاته بعدد شعر الرأس، سافر وعاد.

كان يقف بخشو واحترام أمام كل مظاهر الاخصاب فى العزبة، يسعد ينتشى عندما يشاهد ثوراً يعتلى بقـرة، أو كبشاً يحتوى شاة تحته، أو حماراً يفك قيوده ويجرى خلـف حمارة. إنه يتوقف، يلمع فى عينيه بريق، يتابع الأمر حتـى يتم، يربت بيده على ظهر الثور، يأمر بعليق مضاعف لـه، ثمة أصوات فى العزبة تسعده، نهيق حمار، صـوت أنثـى تطلب ذكرها فى ود، شكل الأرض وهى تطلب المـاء وقـد تشقق وجهها، طنين النحل بين الأزهار، رائحة الحقول فـى الربيع، الرجال وهم يستحمون فى الترعة الصغيرة، صباحاً، ويتطهرون بصوت مسموح.

كان ذلك يفزعنى، أشعر بداخلى إحساساً لا طعم له، كنا نجلس أمام الدار، الوقت مساء والزمن ربيعى له عبـق خاص، كنت أجلس بجواره. وقد راح يحدثنى عن مسـتقبل حياتى، الأيام المقبلة والأرض والنـاس والـزواج، قـال إن



زوجتى لا بد وأن تكون نتاية، أذكر أننى فزعت مـن هـذه الكلمة التى رددها.

- نتاية من التمام.

يحسب فى ذهنه كل الأمور، العائلة التى يجـب أن أناسبها، صفات الزوجة، طعام كل ليلة فى الأسابيع الأولـى، الدورس التى سأسمعها منه، عـن التعامـل مـع النسـاء، الوصفات الخاصة، كنت أذوب خجلاً من حديثه، لـم تكـن عندى الجرأة كى أطلب منه أن يكف عن هذا الحديث.

والدى يواصل حديثه:

- وبعد الزواج بشهر، أو شهرين.

بصمت قليلاً.

- كل شئ متوقف على شطارتك.

يحكى والدى.

ينقطعه المرض الشهرى، تخبرنى زوجتى بذلك، لن تقول أنها حامل، بل ستقول ذات صباح، والخجـل يصـبغ وجهها بحمرة داكنة، إن موعد العادة أتى ولم ينزل الدم بعد،

أفهم الباقى، الحديث عن رغبات غريبة، أكلة فسيخ وبصـل أخضر، أو شقة بطيخ أو نصف تفاحة فى غير زمانه، أعانق المستحيل، أسافر إلى بلاد السند والهند، أحضر لها كل مـا تطلبه منى، إنه ابنى الأول. الأبن الأول لـه طعـم خـاص مختلف حتى لو أنجبت ألف ابن بعده.

- الابن الأول يا خاف، بيكون بعد كدا أخ وصديق..

تمر الأيام- يكمل حكايته- ينتفخ الـبطن، يتكـور، ينداح إلى الأمام، يكبر الأنف، تـزوغ النظـرات، تتضـخم الشفتان، تشكو من الدوخة والغثيان، تصفر أطراف جسمها، وذات مساء. (أكد لى أبى، أن الولادة لا تتم عـادة إلا فـى الليل، آخره أو أوله، بالتحديد، لحظة ميلاد الليل، أو مـيلاد النهار) تكون زوجتى نائمة على السرير، تئن وتتوجع وتتألم، أذهب كى أحضر لها الداية، الألم يزداد، يرغمهـا علـى أن تفتح ساقيها الرائعتين، يظهر بين الساقين رأس طفل صغير، وقد كساه شعر أسود متناثر، الآخرون وما أكثرهم، يلتقطون الطفل الغالى، ينتهى المشهد بفرحة، أنين حلو فرح، يتذكرون أننى موجود فى مكان ما، يحضرون إلى، يطلبون منـى أن ألقى نظرة عليه. أكد بى، أن المولود الأول، لا بد وأن يكون

ذكراً، بعد ذلك تأتى البنات، قاعدة ثابته فـى عائلتنـا، هـذه القاعدة ثابتة فى عائلتنا، هذا القاعدة روعيت طوال عشـرة أجيال كاملة، يؤكد الجميع أن المولود يشبهنى، إنـه جـزء منى، يخصنى وحدى، دون الآخرين.

بعد وفاة أبى، كثيراً ما تمثلت حكاياه لى، وعشت من جديد روعة حكاياه، وأكدت لى الأيام، استحالة حدوثها فـى مكان آخر من العالم، سوى عقل المحموم، فى كل مرة، كنت أتذكرها، الذكى تظل سرى الخاص، مرة أو مرتين، اشتركت رحمة فى هذا، ولكنه لم يتكرر كثيراً.

- ٣ -

كانت رحمة تحمل فى عينيها نبوءة الأيام والليـالى، نبوءة تلاها شحاذ مفقوء العينين ذات مساء:

- وتمر بالعزبة شدة عظيمة، تأتى علـى الأخضـر واليابس. وتنتهى الحكاية.

هكذا أعيش فى مواجهة رحمة، وقد ضاق كل منـا بنفسه ويرفيق عمره وبالعزبة، الضيق والتبرم لا يزالان فى ذهن كلينا، لم نقله، لم يتحول بعد إلـى أحـرف وأصـوات

وكلمات، غير أنه أعطانى إحساساً بالانتهاء، ورحت أعـانى الرغبة فى البوح ليالى كثيرة، لم تكن الأمور واضـحة فـى ذهنى، العزبة ليست أرضاً امتلكها، بل هى حياتنا معاً، إننـا كالسمك، لو خرجنا منها لحظة فسنموت. إن الإقامة فى مكان ما مدة طويلة، حتى لو كان هذا المكان سجناً، تتطلب قـدراً من البطولة والشجاعة، فما بالك باقامتى فى هـذا المنـزل، طوال المدة الماضية، أنا ورحمة، كنا وحدنا، ومهمنا زرنـا الآخرين، استقبلنا زواراً، سـافرنا، ذهبنـا إلـى طنطـا أو دمنهور، دخلنا السينما، شاهدنا المسرح، سـمعنا الراديـو، دخلنا بيوت الفلاحين، مهما فعلنا طوال يومنا الطويل، فتبقى دائماً لحظة أخيرة، عذاب طلب النوم، مقاومة الأرق، البحث عن حبوب منومة، فى هذه اللحظة، نكتشف أننـا بمفردنـا، وجها لوجه، إننا لا نجد الكلمات بعد يومنا الطويل، نحتمـى معاً بصمت الجراح.

ومع مرور الأيام البطئ، استدار الأمر بداخلى، وأخذ شكله الأخير، يجب أن نرحل عن هـذا المكـان، بـدا لـى الرحيل، مساحة يقين نقف عليها، اقتربت من رحمة، بدت لى أمرأة محطمة تقدمت بها السنون، حدقت فيها، أحسسـت أن

بداخلها نوعاً من السكينة، أنعكست عليها، فمنحتها صبراً لا ينفد، وأصبحت نبرة صوتها عذبة، عذوبة شجية تبعث على البكاء.

- رحمة.

- يا روح رحمة.

كان صوتها يشبه البكاء.

- عايز أكلمك فى موضوع مهم.

كنت أتحدث بانفعال، وكانت دقات القلب تنفض عنه صدا الأيام، وقرأت فى عينيها حزناً قديماً.

- أى موضوع؟..

جلست، وضعت رأسى على فخدها وقلت:

- موضومع يخص حياتنا كلها.

رحت أتكلم، لا أذكر الآن ما قلته لها فى ذلك المساء البعيد، غير أنى قلت ما يمكن أن يقوله رجل سئم هذا العالم، وتعب منه، وود لو يستريح أخيراً.. اندفعت العبارات من فمى، مختلطة، مهوشة، متداخلة المعانى، غامضة، ملفوفة

بالضباب، ما كنت أدرى عن الأمر شيئاً، وكذلك رحمة، كان حديثى طويلاً، غناء رجل متعب القلب، وعندما وصلت إلـى الجزء الأخير من حديثى، وفى اللحظة التى كـان يجـب أن أبلغها فيها قرارى بترك العزبة، والرحيل، لم أقو على ذلك، كان الأمر صعباً. قلت لها: أن قضاء أسبوع فى مكان و احد يفقد المرء شجاعته فى التعامل مع عالمنـا، تـذكرت أننـى قضيت سنوات طويلة هنا. لم يكن لكلمة الرحيل وجود بيننا، لم تخرج من بين شفتى، ولم تنطق بها رحمـة، وإن كانـت ظلالها، فرضت نفسها علينا طوال جلستنا، خرجت، طفـت بالعزبة، كنت كمن يشاهدها لأول مرة، إنها صغيرة، خطـوة أوخطوتين وتنتهى الحارات الصغيرة الملتوية، حتى الحقول، التى ما فكرت فيها، إلا واقترنت فى ذهنى بمعنى الرحابـة والاتساع بدت صغيرة كأنها سجن، وفى كل خطـوة، كنـت أقول لنفسى، ما زالت هناك حارة أخرى لم أذهـب إليهـا، الدوار والمكتب والتندة وماكينة النور، لم أرها بعد.

النفس تفرح، مان لم أفعله بعد كثير، المساء لا يزال طويلاً أمامى، شفتاى تتحركان وأصابعى تتعانق، إكتشـفت أننى أحدث نفسى، وقد أفاجأ بأن أحد الفلاحـين أو العمـال

ضبطنى متلبساً بحديث النفسى، أصاب بفزع، وبعد أن يمـر على، أقف، أستدير، فأراه واقفاً ينظر إلـى، وقـد اعترتـه دهشة، يضرب كفاً بكف.

- لا حول ولا قوة إلا با العلى العظيم.

رغم خوفى من الآخرين، كان يحدث هذا كل مساء، أحدث نفسى، كثيراً، يبدأ الحديث بكلمات تدور فى الخـاطر، دون أن أحرك شفتى، أنسى، وتتحـرك الشـفتان بعبـارات هامسة همساً لا أسمعه، أنطلق، تستغرقنى المحاولـة، يعلـو صوتى، تتحرك يداى، أتوقف كأنى أخاطب شخصاً أمـامى، وقد أصيح. وعند الصياح، أنتبه إلى نفسى، فيحمـر الوجـه خجلاً، وأتوقف، ألتفت إلى كل الجهات، أحمد ا ، إن أحـداً مالا يرانى، أقسم ألا يحدث هذا أبداً، ولكنى أفعله بعد دقـائق قليلة، أقول لنفسى:

- يا ويلى من الأيام القادمة.

سرت كثيراً، كانت الأشجار تبدو لى فى الليل، كأنها أقربائى وأصدقائى وأحبابى، وكأنها تهب إلى فرحة سـعيدة، شعرت أن الكلمات التى قلتها لرحمة كانت تجثم فوق روحى،

وكان فى ذهنى معنى واحد. اننى فى الصباح، لا بد وأن انفذ ما قررته بنفسى.

وعندما عدت إلى المنزل، كانت رحمة تقـف فـى الشرفة البحرية، الليل فى أوله، والأشياء يحيط بها غمـوض ساعة الغروب، حيث تبهت ملامحها الخاصة وتذوب البيوت والأشجار والسماء، تغتسل فى عينى رحمة، وعلى وجههـا، قرأت السهاد والسهر وألم الانتظار، اقتربت منها. طوقتهـا بيدى، شربت من عينيها ألفاظاً لم أوقن معناها، غيـر أننـى أحسست فى سواد عينيها، خيبة أمل وحنيناً مبهماً، وسـألت نفسى:

- أما لكل هذا من نهاية؟!.

* * *

لم ننته بعد

- ١ -

يحكى أنه حدث فى سالف الزمان، أن كـان هنـاك ملك، لم يولد له ولد، وقد دعى آلهة زمانه، أن يهبوه ولـداً، ورأى فى الرؤيا، أنه سيولد له ولد، غير أنه سيلاقى حتفـه على يد تمساح، أو حية أو كلب، وذلك بعد أن يكبر ويـتعلم وينضج، ثم أتى الولد، فجعل الملك اقامته فى بيت كبير فـى الصحراء. كبر الطفل، اشتاق إلى الحرية، طلب الخروج إلى أرض ا الواسعة، رفض والده، ولم يكن يستطيع أن يخبره بأنه مقضى عليه بالموت على يد تمساح أو حية أو كلب، ألح الشاب وعندما هدد والده بالانتحار، أجيب إلى طلبه، إبقـاء على حياته.

لف ودار- تحكى رحمة- وعاد إلى والده سليماً أكثر من مرة، أقنع والديه، بأن قراءة الغيب وهم، وقال ثلاثـتهم ذات مساء:

كذب المنجمون ولو صدقوا.

وبدا الملك سعيداً، ستة أسفار قام بها الشـاب وعـاد سليماً، الدنيا تضحك فى عينيه، غير أنه فى السفر السـابع. مات. وكان موته بسبب لدغة حية، كما كان مقدراً لـه مـن قبل.

تقول رحمة:

- سبحان من له البقاء وحده.

وأقول أنا، أن الحديث عن هذا الموضوع، مثل موج البحر، الذى يرقد تحت شرفة شقتنا، الجايـات أكثـر مـن الرائحات فيه. حدث أهم تغيير فى حياتنـا. تصـرفت فـى أرضى بالبيع أو الإيجار، القليل بقى للزراعة، يتولاه نـاظر العزبة، أغلقت منزلنا ورحلت إلى الإسـكندرية، فـى شـقة صغيرة، مكونة من أرب غرف ضيقة، أشعر بـداخلها أنـى حبيس، الاحساس بالغربة يزداد يوماً بعد يوم. وقالـت لـى شوارع الاسكندرية: إننى لن أكون فى يوم من الأيام جـزءاً من هذا البلد، اقتربنا مـن بعضـنا الـبعض، رحمـة الآن، صديقتى ورفيقتى وكل حياتى.

رحمة يا حياتى- كتبت لها من الاسـكندرية- إنهـا حياة واحدة نحياها، ثم نموت بعد ذلك، مرة واحـدة نعـرف الحياة بكل ما فيها، ثم نمضى لكى يأتى غيرنا، هل تـدركين معنى ما أقوله، ومع مضى الزمان، فإننا نزداد بلادة، ويزداد إحساسنا بالتعب، ونفقد مع مرور الأيام البطيئ، أى موهبـة للإحساس الصادق، ولا يعود يربطنا بالحياة سوى أننا نقـوم من النوم فى أوقات معينة، نتناول الطعـام، نتحـدث عـن أنواعه، إننا نأكل بسرعة، ننظف أصابعنا من الدسم العـالق بها. نخرج فضلات الطعام من بين أسناننا، ثم نغفو، تتحـول الاغفاءة إلى نوم، نصحو وننام، إننا نفعل كل هذا، لأننا لا بد وأن نفعله.

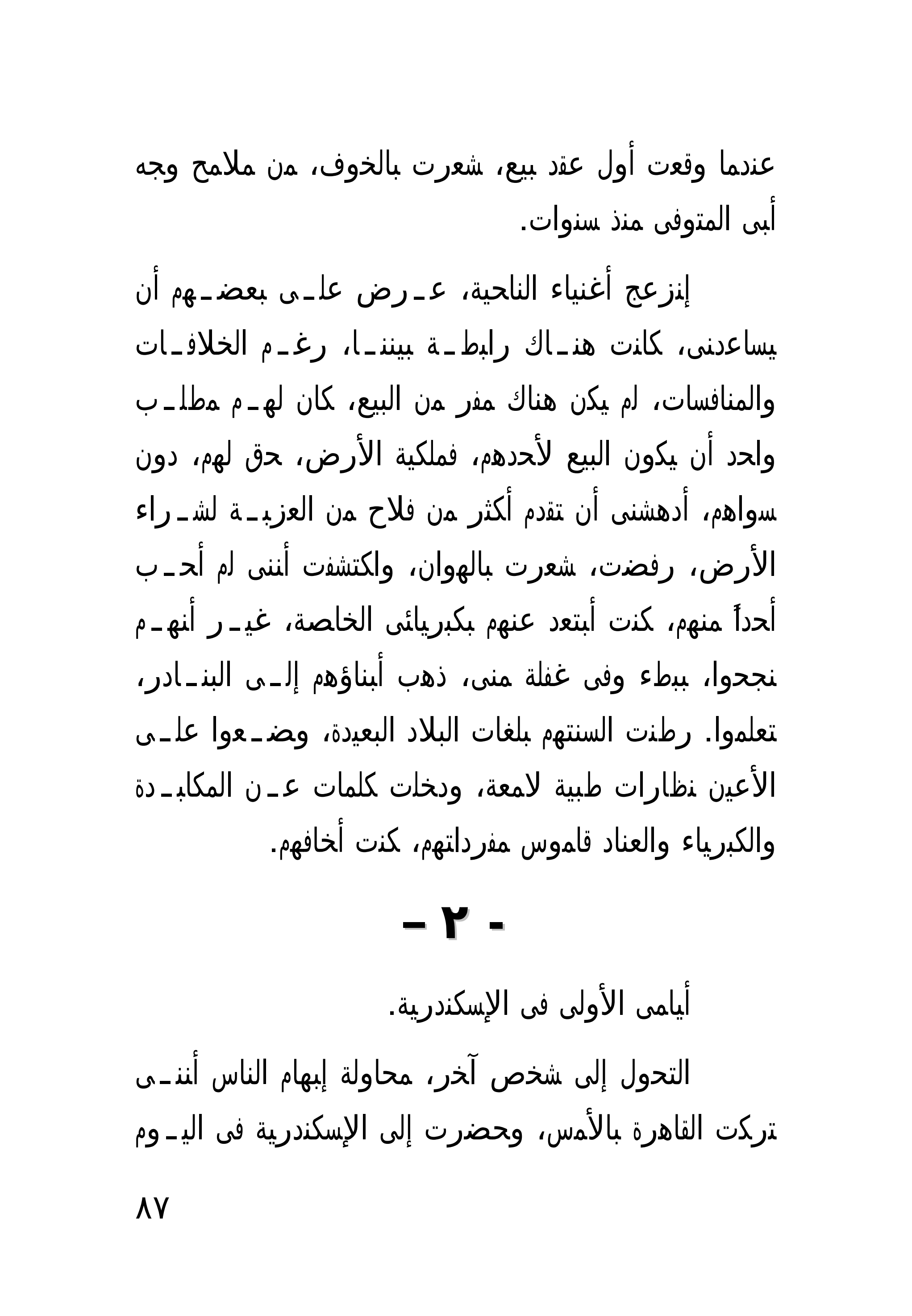
فى السنوات الأخيرة، أصبح السفر إلى الإسـكندرية أحدى عاداتى، كنت أحب هذا المدينة، وكنت أقول لنفسـى، تلك هى النهاية، ما أعيشه هو حلاوة الروح، التـى تسـبق السقوط.

حضرنا إلى الاسكندرية، ومعنـا أفراحنـا اليتيمـة، ومكابدات الألم الصامت، وجراح العمر كله، الإخفاق والفشل والعجز، كنا على أبواب كهولة مبكرة، تلك المرحلة الباهتـة

من العمر، ورغم الكهولة والعجز، فثمة آمال وأمان تـدفء القلب العجوز، وتمنيه بأيام سعيدة قادمة.

لن أنسى ذلك أبداً.

يوم رحيلى عن العزبة، ما أفعله لم يحدث من قبـل، ما من رجل فى الدنيا يترك عزبة بكل ما فيها، لكى يعـيش منزوياً فى مدينة بعيدة. كان من الصعب علـى أن أشـرح الأمر للناس، قبيل الرحيل بأيام، بدأت أقرأ فى نفوس النـاس معانى جديدة، لم أرها من قبل، طلبوا منى أن أكتب لكل منهم عقد إيجار، قال لى أحدهم، لا أحد يضمن الزمن، الكلمـات تحمل أكثر من معنى، قرأت مصيرى فى عبارته، هجمـت عليه، هددت الجميع، لوحت لهم بقبضة يدى، قلت لهم: لـن أترك العزبة أبداً، ولن يحصل واحد على شبر و احـد مـن الأرض، و أننى باق لهم مهما حدث، فكرت طويلاً، لم أنـم. فى الصباح، قررت أن أحول كل لحظة تمر بى، إلى متعـة جديدة، لا بد وأن تستمتع بكل دقيقة تمر، التمع فى ذهنى هذا المعنى الطارئ، أن أبيع جزءاً من الأرض، لا يؤلم الفـلاح سوى أن يفكر فى بيع أرضه. الأرض بالنسبة لعائلتنا هـى الحبيب والملك، والمسافة بيننا وبين الآخرين مـن النـاس،



عندما وقعت أول عقد بيع، شعرت بالخوف، من ملامح وجه أبى المتوفى منذ سنوات.

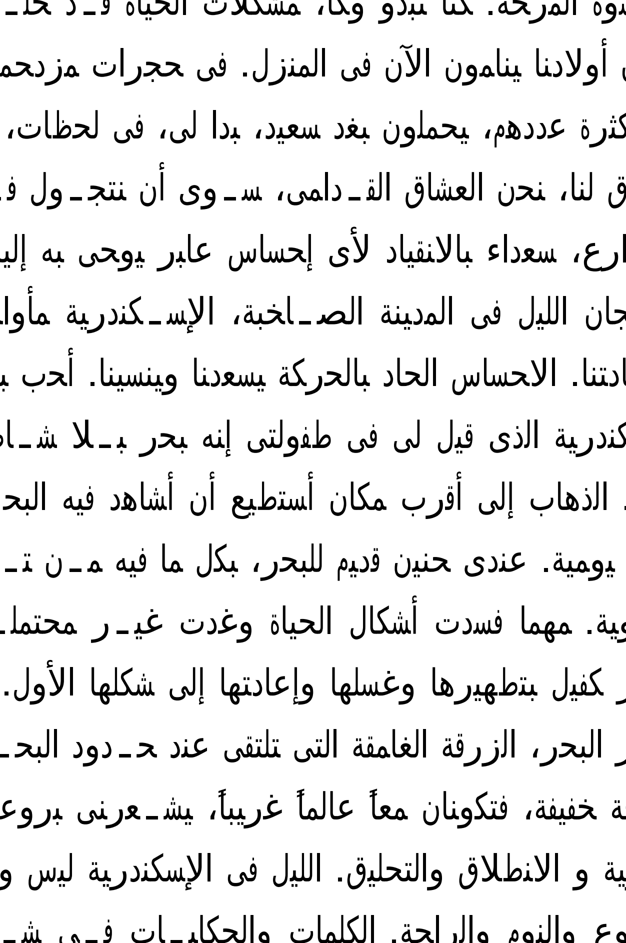
إنزعج أغنياء الناحية، عـرض علـى بعضـهم أن يساعدنى، كانت هنـاك رابطـة بيننـا، رغـم الخلافـات والمنافسات، لم يكن هناك مفر من البيع، كان لهـم مطلـب واحد أن يكون البيع لأحدهم، فملكية الأرض، حق لهم، دون سواهم، أدهشنى أن تقدم أكثر من فلاح من العزبـة لشـراء الأرض، رفضت، شعرت بالهوان، واكتشفت أننى لم أحـب أحداً منهم، كنت أبتعد عنهم بكبريائى الخاصة، غيـر أنهـم نجحوا، ببطء وفى غفلة منى، ذهب أبناؤهم إلـى البنـادر، تعلموا. رطنت السنتهم بلغات البلاد البعيدة، وضـعوا علـى الأعين نظارات طبية لامعة، ودخلت كلمات عـن المكابـدة والكبرياء والعناد قاموس مفرداتهم، كنت أخافهم.

- ٢ -

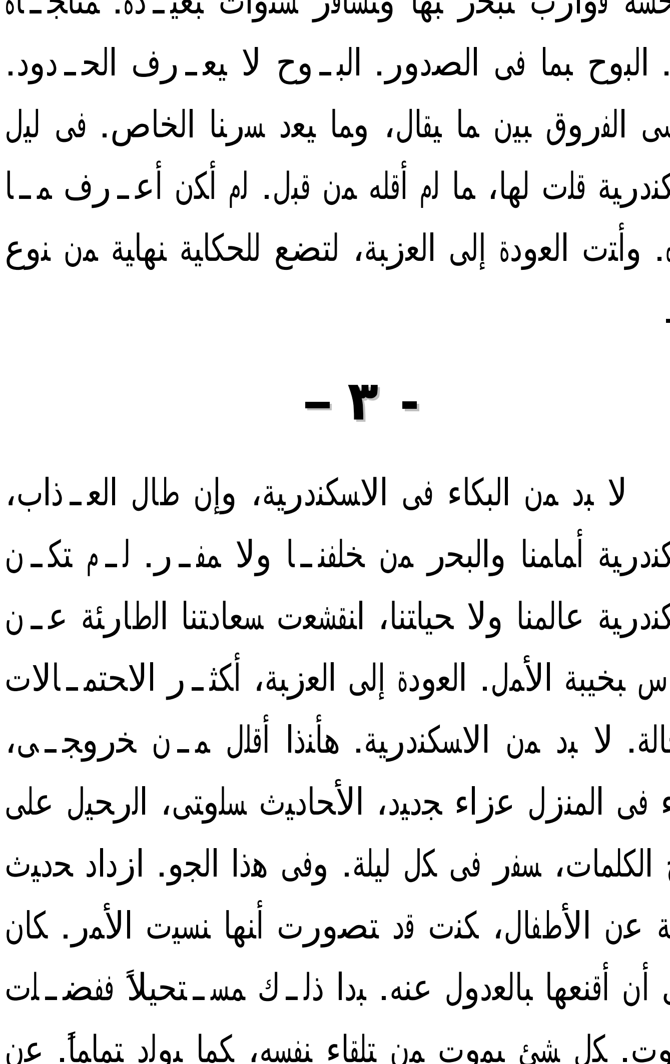
أيامى الأولى فى الإسكندرية.

التحول إلى شخص آخر، محاولة إبهام الناس أننـى تركت القاهرة بالأمس، وحضرت إلى الإسكندرية فى اليـوم

التالى، إسقاط سنوات العزبة من حسابات الربح والخسـارة، أخذت رحمة من يدها، طفت فى شوارع الالسكندرية الخالية المهجورة. الفصل هو الشتاء، الخروج من شارع لشـارع. بدت لى شوارع الاسكندرية صاعدة هابطة كسنوات العمـر، ملتوية كخيبة الأمل. واكتشفت رحمة، أن فـى الاسـكندرية شخاذين ومجاذيب ينتظرون المهدى المنتظر، وإن بها بحراً يغسل آثام العمر، قلت لها: آه لو ينق أسـفلت الشـارع، أو جدران البيوت، أو موج البحر الأزرق المغسول، لقال الكثير عن أيامنا التى ولت ولن تعود. شاهدنا الموج يتكسر ويموت على رمال الشاطئ. سمعنا كلمات السكارى المعربـدة فـى الشوارع الليلية، قرأنا على وجوه العشاق أحـلام السـنوات القادمة، رأينا وجوه فتيات الليل المتعبة والأصباغ المترنحـة على ملامح الوجوه. كنت سعيداً بوضعى الجديـد. وكنـت أتحدث مع رحمة عن حياتى. قلت لها الكثير. كنـا نقضـى الصباح بطوله فى شقتنا، ونخلو مع نجوانـا فـى المسـاء. يصبح من الممتع أن نغادر عشنا الصغير. نغوص فى قلـب المدينة. وفى الشوارع، حيث تبلغ حركة المـرور ذروتهـا ويشتد الزحام، وتضاء أنور الليل. تثب قلوبنا فـى الهـواء



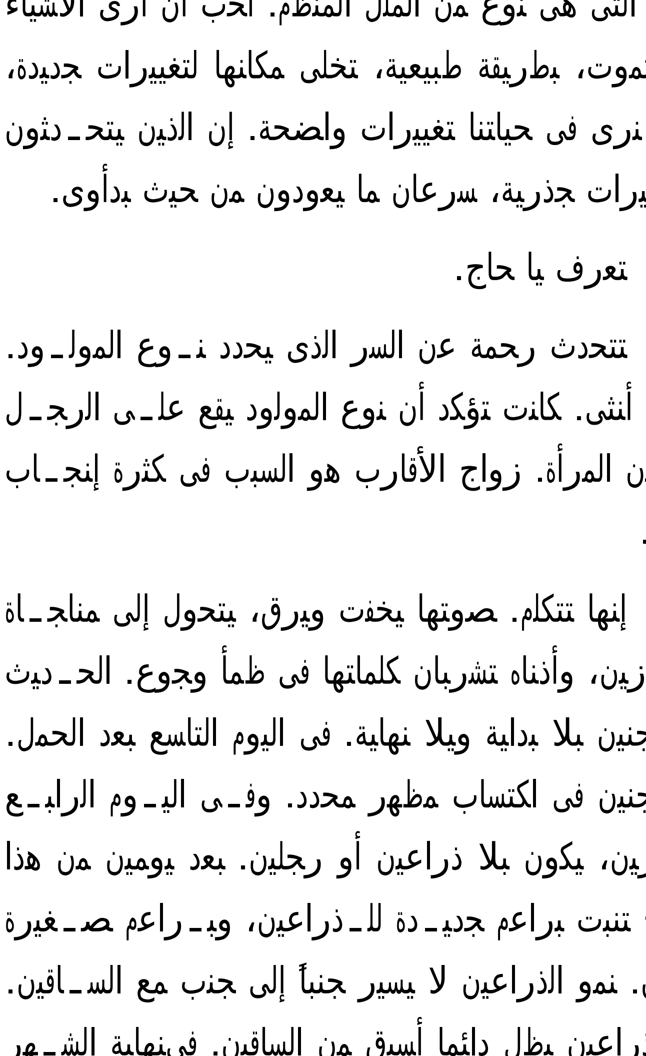
النقى، وسط ضوضاء الحياة فى المدينة وحركتها، ينقشع الأسى والمرارة عن الاذهان، تمتلئ الصدور بالاثارة الجزلة والنشوة المرحة. كنا نبدو وكأ، مشكلات الحياة قد حلت، وكأن أولادنا ينامون الآن فى المنزل. فى حجرات مزدحمة من كثرة عددهم، يحلمون بغد سعيد، بدا لى، فى لحظات، أنه لم يبق لنا، نحن العشاق القدامى، سوى أن نتجول فى الشوارع، سعداء بالانقياد لأى إحساس عابر يوحى به إلينا مهرجان الليل فى المدينة الصاخبة، الإسكندرية مأوانا وسعادتنا. الاحساس الحاد بالحركة يسعدنا وينسينا. أحب بحر الإسكندرية الذى قيل لى فى طفولتى إنه بحر بلا شاطئ آخر. الذهاب إلى أقرب مكان أستطيع أن أشاهد فيه البحر متعة يومية. عندى حنين قديم للبحر، بكل ما فيه من تألق وحيوية. مهما فسدت أشكال الحياة وغدت غير محتملة، البحر كفيل بتطهيرها وغسلها وإعادتها إلى شكلها الأول. إن منظر البحر، الزرقة الغامقة التى تلتقى عند حدود البحر، بزرقة خفيفة، فتكونان معاً عالماً غريباً، يشعرنى بروعة الحرية و الانطلاق والتحليق. الليل فى الإسكندرية ليس وقت الهجوع والنوم والراحة. الكلمات والحكايات فى شقتنا



الموحشة قوارب نبحر بها ونسافر سنوات بعيـدة. مناجـاة الليل. البوح بما فى الصدور. البـوح لا يعـرف الحـدود. تتلاشى الفروق بين ما يقال، وما يعد سرنا الخاص. فى ليل الاسكندرية قلت لها، ما لم أقله من قبل. لم أكن أعـرف مـا اريده. وأتت العودة إلى العزبة، لتضع للحكاية نهاية من نوع فريد.

- ٣ -

لا بد من البكاء فى الاسكندرية، وإن طال العـذاب، الاسكندرية أمامنا والبحر من خلفنـا ولا مفـر. لـم تكـن الاسكندرية عالمنا ولا حياتنا، انقشعت سعادتنا الطارئة عـن إحساس بخيبة الأمل. العودة إلى العزبة، أكثـر الاحتمـالات استحالة. لا بد من الاسكندرية. هأنذا أقلل مـن خروجـى، البكاء فى المنزل عزاء جديد، الأحاديث سلوتى، الرحيل على جناح الكلمات، سفر فى كل ليلة. وفى هذا الجو. ازداد حديث رحمة عن الأطفال، كنت قد تصورت أنها نسيت الأمر. كان بودى أن أقنعها بالعدول عنه. بدا ذلـك مسـتحيلاً ففضـلت السكوت. كل شئ يموت من تلقاء نفسه، كما يولد تماماً. عن

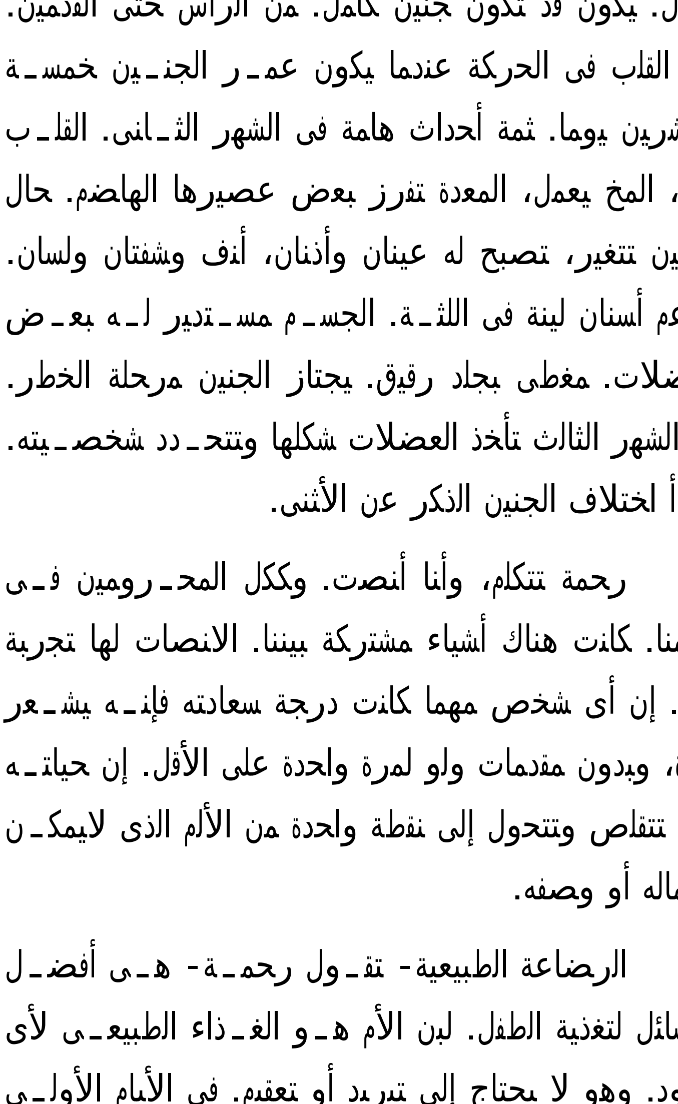


طريق السأم والملل وعدم الاكتراث، أو حتى عن طريق العادة، التى هى نوع من الملل المنظم. أحب أن أرى الأشياء وهى تموت، بطريقة طبيعية، تخلى مكانها لتغييرات جديدة، إننا لا نرى فى حياتنا تغييرات واضحة. إن الذين يتحدثون عن تغيرات جذرية، سرعان ما يعودون من حيث بدأوى.

تعرف يا حاج.

تتحدث رحمة عن السر الذى يحدد نوع المولود. ذكر أم أنثى. كانت تؤكد أن نوع المولود يقع على الرجل أكثر من المرأة. زواج الأقارب هو السبب فى كثرة إنجاب الإناث.

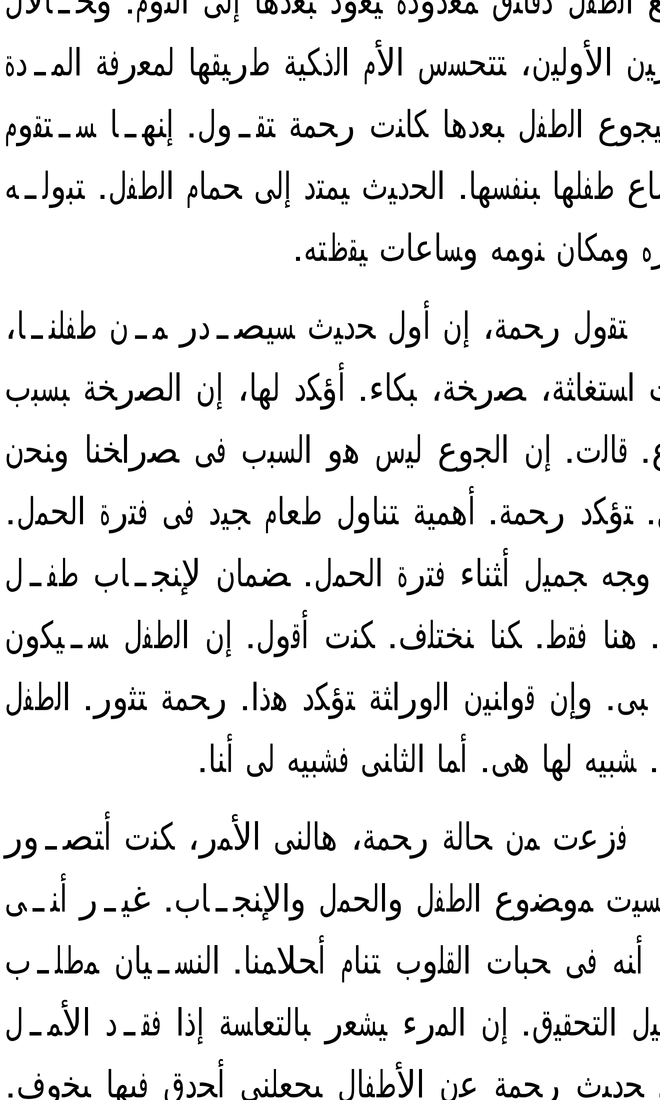
إنها تتكلم. صوتها يخفت ويرق، يتحول إلى مناجاة قلب حزين، وأذناه تشربان كلماتها فى ظمأ وجوع. الحديث عن الجنين بلا بداية ويلا نهاية. فى اليوم التاسع بعد الحمل. يبدأ الجنين فى اكتساب مظهر محدد. وفى اليوم الرابع والعشرين، يكون بلا ذراعين أو رجلين. بعد يومين من هذا التاريخ تنبت براعم جديدة للذراعين، وبراعم صغيرة للساقين. نمو الذراعين لا يسير جنباً إلى جنب مع الساقين. نمو الذراعين يظل دائما أسبق من الساقين. فىنهاية الشهر



الأول. يكون قد تكون جنين كامل. من الرأس حتى القدمين. يبدأ القلب فى الحركة عندما يكون عمر الجنين خمسة وعشرين يوما. ثمة أحداث هامة فى الشهر الثانى. القلب يدق، المخ يعمل، المعدة تفرز بعض عصيرها الهاضم. حال الجنين تتغير، تصبح له عينان وأذنان، أنف وشفتان ولسان. براعم أسنان لينة فى اللثة. الجسم مستدير له بعض العضلات. مغطى بجلد رقيق. يجتاز الجنين مرحلة الخطر. فى الشهر الثالث تأخذ العضلات شكلها وتتحدد شخصيته. ويبدأ اختلاف الجنين الذكر عن الأثنى.

رحمة تتكلم، وأنا أنصت. وككل المحرومين فى عالمنا. كانت هناك أشياء مشتركة بيننا. الانصات لها تجربة مرة. إن أى شخص مهما كانت درجة سعادته فإنه يشعر فجأة، وبدون مقدمات ولو لمرة واحدة على الأقل. إن حياته كلها تتقاص وتتحول إلى نقطة واحدة من الألم الذى لايمكن احتماله أو وصفه.

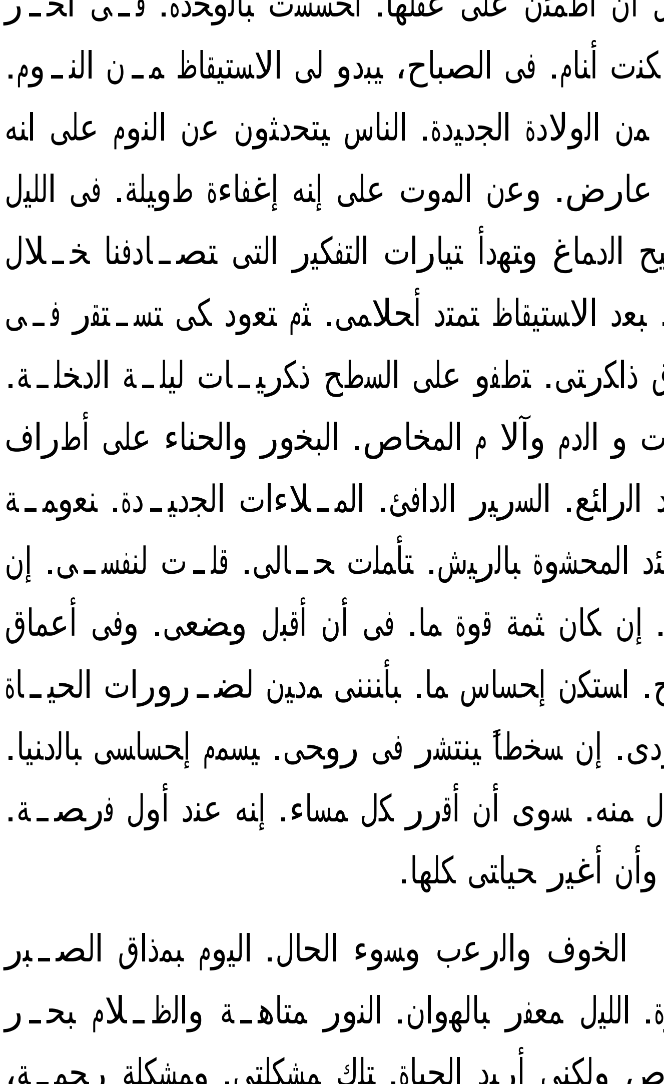
الرضاعة الطبيعية- تقول رحمة- هى أفضل الوسائل لتغذية الطفل. لبن الأم هو الغذاء الطبيعى لأى مولود. وهو لا يحتاج إلى تبريد أو تعقيم. فى الأيام الأولى



يرضع الطفل دقائق معدودة يعود بعدها إلى النوم. وخلال الشهرين الأولين، تتحسس الأم الذكية طريقها لمعرفة المدة التى يجوع الطفل بعدها كانت رحمة تقول. إنها ستقوم بإرضاع طفلها بنفسها. الحديث يمتد إلى حمام الطفل. تبوله وتبرزه ومكان نومه وساعات يقظته.

تقول رحمة، إن أول حديث سيصدر من طفلنا، صوت استغاثة، صرخة، بكاء. أؤكد لها، إن الصرخة بسبب الجوع. قالت. إن الجوع ليس هو السبب فى صراخنا ونحن أطفال. تؤكد رحمة. أهمية تناول طعام جيد فى فترة الحمل. رؤية وجه جميل أثناء فترة الحمل. ضمان لإنجاب طفل جميل. هنا فقط. كنا نختلف. كنت أقول. إن الطفل سيكون شبيهاً بى. وإن قوانين الوراثة تؤكد هذا. رحمة تثور. الطفل الأول. شبيه لها هى. أما الثانى فشبيه لى أنا.

فزعت من حالة رحمة، هالنى الأمر، كنت أتصور أنها نسيت موضوع الطفل والحمل والإنجاب. غير أنى نسيت أنه فى حبات القلوب تنام أحلامنا. النسيان مطلب مستحيل التحقيق. إن المرء يشعر بالتعاسة إذا فقد الأمل تماماً. حديث رحمة عن الأطفال يجعلنى أحدق فيها بخوف.



أحاول أن أطمئن على عقلها. أحسست بالوحدة. فـى آخـر الليل كنت أنام. فى الصباح، يبدو لى الاستيقاظ مـن النـوم. كنوع من الولادة الجديدة. الناس يتحدثون عن النوم على انه موت عارض. وعن الموت على إنه إغفاءة طويلة. فى الليل يستريح الدماغ وتهدأ تيارات التفكير التى تصـادفنا خـلال اليوم. بعد الاستيقاظ تمتد أحلامى. ثم تعود كى تسـتقر فـى أعماق ذاكرتى. تطفو على السطح ذكريـات ليلـة الدخلـة. الطشت و الدم وآلا م المخاض. البخور والحناء على أطراف الجسد الرائع. السرير الدافئ. المـلاءات الجديـدة. نعومـة الوسائد المحشوة بالريش. تأملت حـالى. قلـت لنفسـى. إن قوتى. إن كان ثمة قوة ما. فى أن أقبل وضعى. وفى أعماق الروح. استكن إحساس ما. بأننى مدين لضـرورات الحيـاة بوجودى. إن سخطاً ينتشر فى روحى. يسمم إحساسى بالدنيا. لا يقال منه. سوى أن أقرر كل مساء. إنه عند أول فرصـة. لا بد وأن أغير حياتى كلها.

الخوف والرعب وسوء الحال. اليوم بمذاق الصـبر مرارة. الليل معفر بالهوان. النور متاهـة والظـلام بحـر الخلاص ولكنى أريد الحياة. تلك مشكلتى. ومشكلة رحمـة،

التى تبدو، عندما تتحدث عن طفلنا، كالنبى الكذاب، نبى جديد لا يقول سوى الكذب. غير أن أصدق كل حرف جديد يقـول هذا النبى.

تعبت. تعبت حتى من سرد قصـتى. مـن مجـرد الاستمرار فى سردها. هكذا تبدأ القصـص. وهكـذا أيضـاً تنتهى. لن أقول سوى كلمات قليلـة، ثمـة رجـل مكسـور الجناح، خروج من ليل لا نهائى. وسيدخل عما قريب فى ليل نهائى آخر. وكان مروره العابر لا يتميز إلا بما تتميـز بـه الأعمال السخيفة العابرة.

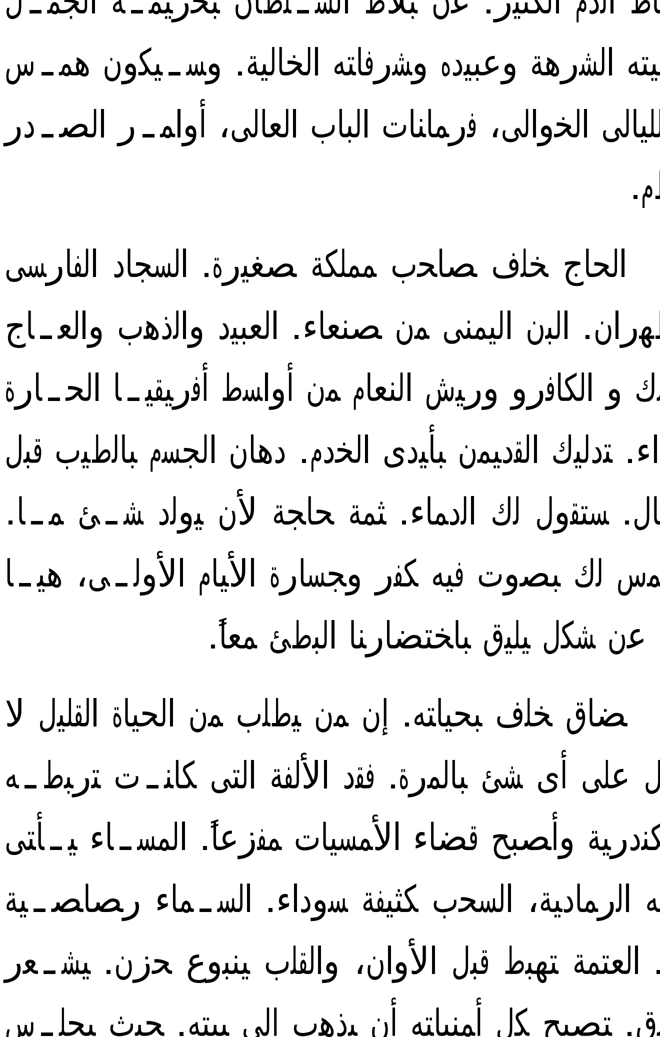
ثمة رجل يقف فى وجه العدم. اسمه خلف.

* * *

يا رحمة.

إلى بسيف أيام الشباب

فأنا وحدى- قال لها- القائل، وأنا وحدى القتيل. ولن يؤنس وحشتك من بعدى. سوى ما يحكيه لكـل فـى ليـالى الشتاء. الطويلة. برك الدماء المتخلفة عن المعركة. سـتقول



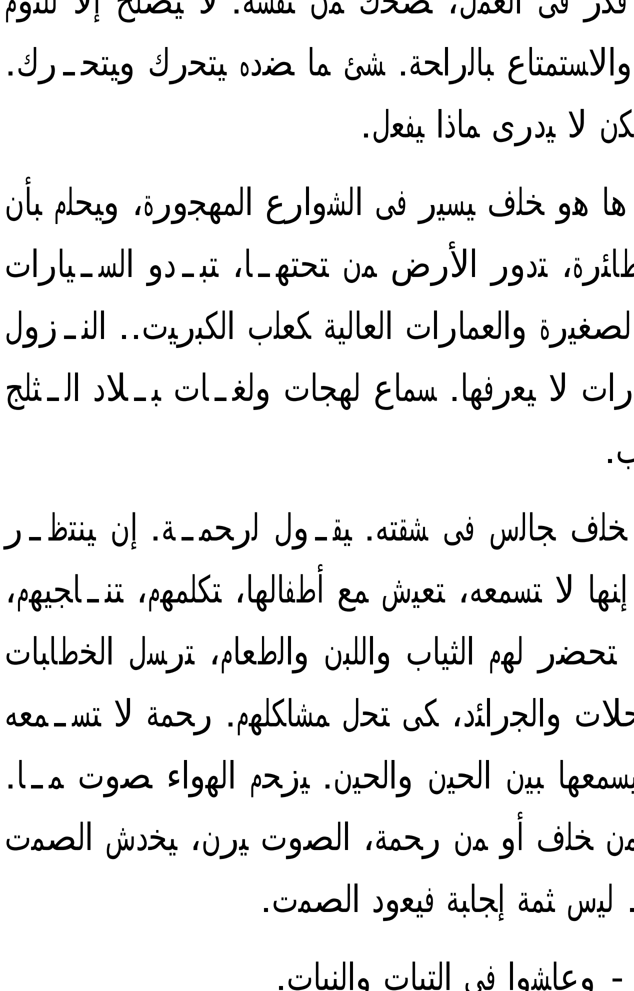
لك نقاط الدم الكثير. عن بلاط السلطان بحريمه الجمل وحاشيته الشرهة وعبيده وشرفاته الخالية. وسيكون همس عن الليالى الخوالى، فرمانات الباب العالى، أوامر الصدر الأعظم.

الحاج خلف صاحب مملكة صغيرة. السجاد الفارسى من طهران. البن اليمنى من صنعاء. العبيد والذهب والعاج والمسك و الكافرو وريش النعام من أواسط أفريقيا الحارة السوداء. تدليك القديمن بأيدى الخدم. دهان الجسم بالطيب قبل الوصال. ستقول لك الدماء. ثمة حاجة لأن يولد شئ ما. وسأهمس لك بصوت فيه كفر وجسارة الأيام الأولى، هيا نبحث عن شكل يليق باختضارنا البطئ معاً.

ضاق خلف بحياته. إن من يطلب من الحياة القليل لا يحصل على أى شئ بالمرة. فقد الألفة التى كانت تربطه بالاسكندرية وأصبح قضاء الأمسيات مفزعاً. المساء يأتى بغيومه الرمادية، السحب كثيفة سوداء. السماء رصاصية اللون. العتمة تهبط قبل الأوان، والقلب ينبوع حزن. يشعر بالضيق. تصبح كل أمنياته أن يذهب إلى بيته. حيث يجلس فى إحدى الحجرات مع رحمة، تتحدث عن الأطفال، يتحدث

وتتحدث، حتى يأكله الذبول والوهن. السعادة شـئ مفـزع. فالذين يغرقون فى البحار، أو يحفرون الأرض بأظافرهم أو يبحثون عن الماء فى الصحراء. ليسوا تعسـاء. التعاسـة- وكفانا فلسفة- أن تفتح عينيك فى الصباح، تستيقظ من نومك. لا يكون هناك أمل ما.يرتبط بميلاد اليوم الجديـد، فـتغمض عينيك مرة أخرى. تستدير إلى الحائط، تحاول أن تنـام، ولا تستيقظ إلا لأن كثرة النوم آلمت جسمك.

أمام الأعباء والمرض. السفر يبـدو حلمـاً. الـدنيا واسعة، بهجة اكتشاف العالم، فك الطلاسم والأسرار. الـدنيا تغيرت، نضبت موارده. نزعت ملكية بعض الأرض. أخـذ إخوته كل ما يخصهم من الميراث، تناثرت الأرض الواسعة بالبيعة، الأسعار فى ارتفاع جنونى. فى أيامه الأولى كانـت موهبته تبدو فى القدرة المذهلة على جمع المال. الحديث عن الوسائل لا أهمية له. الموهبة الأخرى تبدو الآن، فى قدرتـه على انفاق أى مبالغ بدا خلاف يخفى كل أموره على رحمـة. كان كملك فقد عرشه وحاشيته وحتى مبررات وجوده.



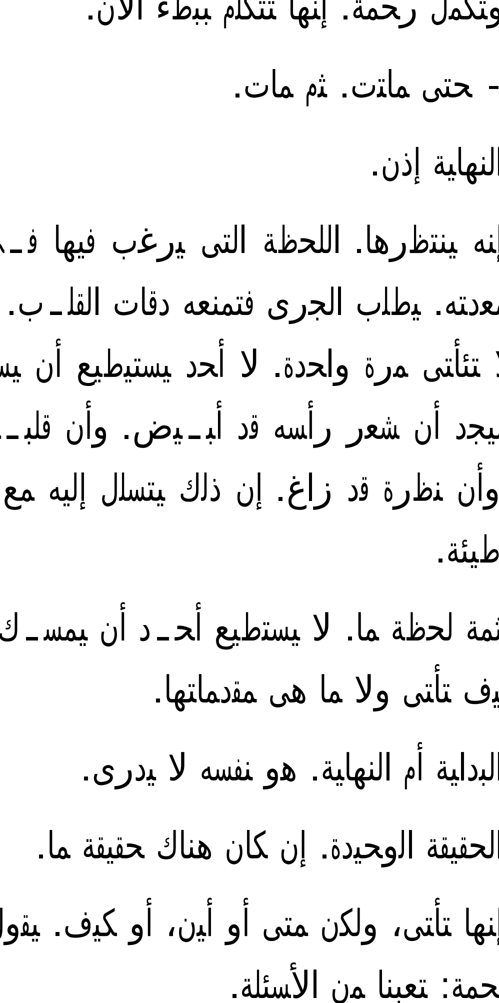
فكر فى العمل، ضحك من نفسه. لا يصلح إلا للنوم والأكل والاستمتاع بالراحة. شئ ما ضده يتحرك ويتحـرك. وهو ساكن لا يدرى ماذا يفعل.

ها هو خلف يسير فى الشوارع المهجورة، ويحلم بأن يركب طائرة، تدور الأرض من تحتهـا، تبـدو السـيارات كالنقط الصغيرة والعمارات العالية كعلب الكبريت.. النـزول فى مطارات لا يعرفها. سماع لهجات ولغـات بـلاد الـثلج والضباب.

خلف جالس فى شقته. يقـول لرحمـة. إن ينتظـر النهاية، إنها لا تسمعه، تعيش مع أطفالها، تكلمهم، تنـاجيهم، تسكنهم، تحضر لهم الثياب واللبن والطعام، ترسل الخطابات إلى المحلات والجرائد، كى تحل مشاكلهم. رحمة لا تسـمعه وهو لايسمعها بين الحين والحين. يزحم الهواء صوت مـا. صادر من خلف أو من رحمة، الصوت يرن، يخدش الصمت والهواء. ليس ثمة إجابة فيعود الصمت.

- وعاشوا فى التبات والنبات.

وخلفوا صبيان وبنات



وتكمل رحمة. إنها تتكلم ببطء الآن.

- حتى ماتت. ثم مات.

النهاية إذن.

إنه ينتظرها. اللحظة التى يرغب فيها فـى الأكـل فتخونه معدته. يطلب الجرى فتمنعه دقات القلـب. علـى أن النهاية لا تتأتى مرة واحدة. لا أحد يستيطيع أن يستيقظ ذات صباح، ليجد أن شعر رأسه قد أبـيض. وأن قلبـه أصـبح ضعيفاً، وأن نظرة قد زاغ. إن ذلك يتسلل إليه مع لحظـات العمر البطيئة.

ثمة لحظة ما. لا يستطيع أحـد أن يمسـك بهـا ولا يعرف كيف تأتى ولا ما هى مقدماتها.

البداية أم النهاية. هو نفسه لا يدرى.

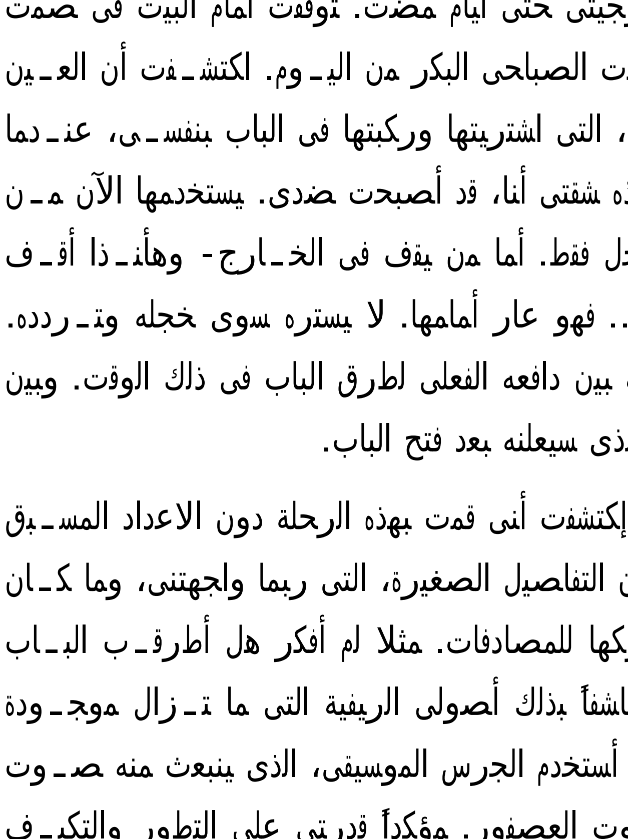
الحقيقة الوحيدة. إن كان هناك حقيقة ما.

إنها تأتى، ولكن متى أو أين، أو كيف. يقول خلـف، وتقول رحمة: تعبنا من الأسئلة.

عنتر وعبلة

عنتر يزور عبلة   الثامنة صـباحاً

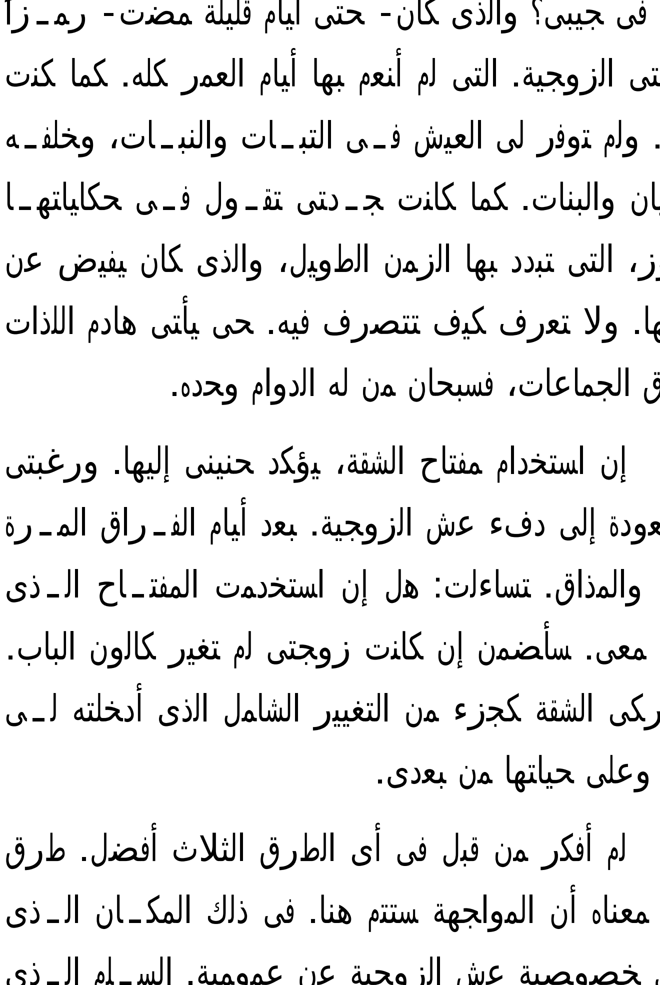
والوجه يصافح الوجة.



الرغبة فى البكاء

فى الثامنة صباحاً، كنت أقترب من الشقة التى كانت عش زوجيتى حتى أيام مضت. توقفت أمام البيت فى صمت ذلك الوقت الصباحى البكر من اليوم. اكتشفت أن العين السحرية، التى اشتريتها وركبتها فى الباب بنفسى، عندما كانت هذه شقتى أنا، قد أصبحت ضدى. يستخدمها الآن من فى الداخل فقط. أما من يقف فى الخارج- وهأنذا أقف بالخارج.. فهو عار أمامها. لا يستره سوى خجله وتردده. والمسافة بين دافعه الفعلى لطرق الباب فى ذلك الوقت. وبين السبب الذى سيعلنه بعد فتح الباب.

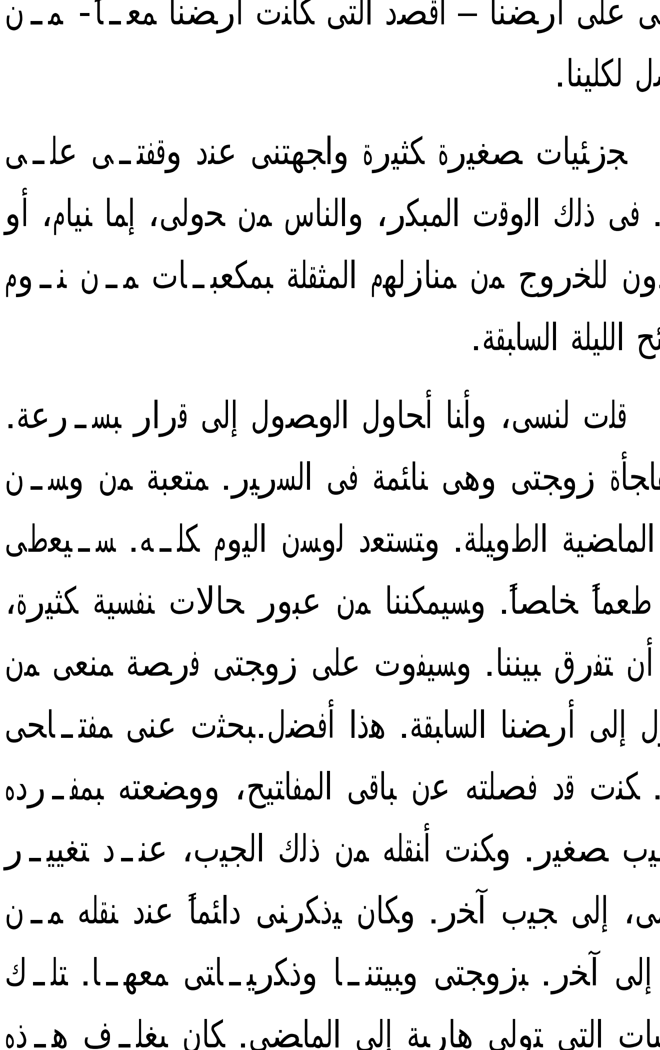
إكتشفت أنى قمت بهذه الرحلة دون الاعداد المسبق لكثير من التفاصيل الصغيرة، التى ربما واجهتنى، وما كان يجب تركها للمصادفات. مثلا لم أفكر هل أطرق الباب بيدى، كاشفاً بذلك أصولى الريفية التى ما تزال موجودة فعلاً؟ أم أستخدم الجرس الموسيقى، الذى ينبعث منه صوت مثل صوت العصفور. مؤكداً قدرتى على التطور والتكيف ومسايرة الظروف الجديدة؟ أم أستخدم مفتاح الشقة الذى



أحمله فى جيبى؟ والذى كان- حتى أيام قليلة مضت- رمـزاً لسعادتى الزوجية. التى لم أنعم بها أيام العمر كله. كما كنت أتوقع. ولم توفر لى العيش فـى التبـات والنبـات، وخلفـه الصبيان والبنات. كما كانت جـدتى تقـول فـى حكاياتهـا العجوز، التى تبدد بها الزمن الطويل، والذى كان يفيض عن حاجتها. ولا تعرف كيف تتصرف فيه. حى يأتى هادم اللذات ومفرق الجماعات، فسبحان من له الدوام وحده.

إن استخدام مفتاح الشقة، يؤكد حنينى إليها. ورغبتى فى العودة إلى دفء عش الزوجية. بعد أيام الفـراق المـرة الطعم والمذاق. تساءلت: هل إن استخدمت المفتـاح الـذى أحمله معى. سأضمن إن كانت زوجتى لم تغير كالون الباب. بعد تركى الشقة كجزء من التغيير الشامل الذى أدخلته لـى البيت وعلى حياتها من بعدى.

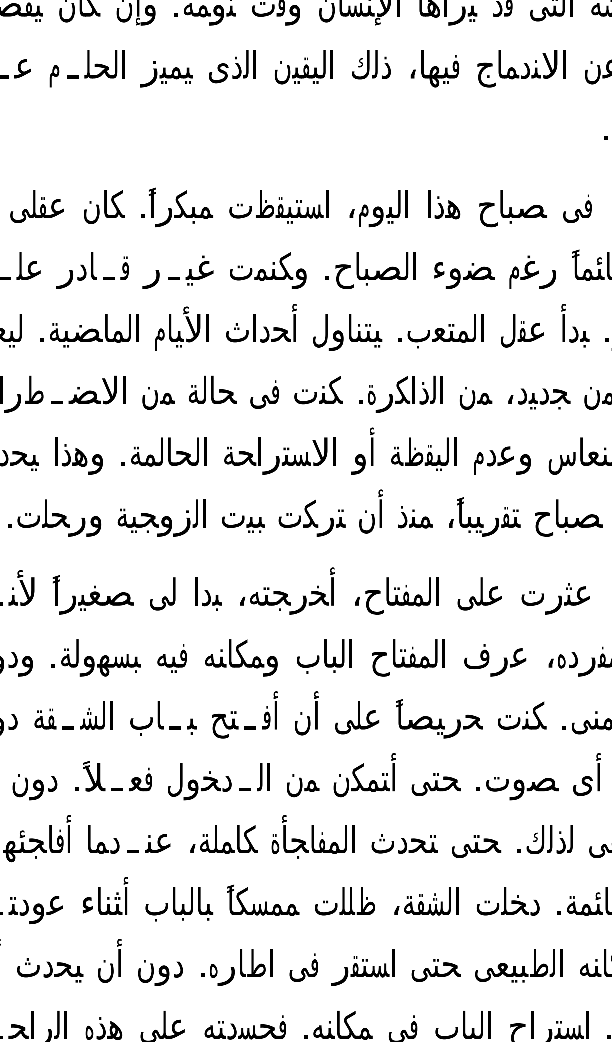
لم أفكر من قبل فى أى الطرق الثلاث أفضل. طرق الباب معناه أن المواجهة ستتم هنا. فى ذلك المكـان الـذى يفصل خصوصية عش الزوجية عن عمومية. السـلم الـذى يفصل بيتى السابق عن الآخرين بكل ما يمثلونه حيال ذهنى، وإن جرت المواجهة هنا، ماذا يضمن لى ألا تمنعنى زوجتى



من دخول شقتى السابقة؟ وحدوث المواجهة بينى وبين زوجتى على أرضنا – أقصد التى كانت أرضنا معاً- من الأفضل لكلينا.

جزئيات صغيرة كثيرة واجهتنى عند وقفتى على الباب. فى ذلك الوقت المبكر، والناس من حولى، إما نيام، أو يستعدون للخروج من منازلهم المثقلة بمكعبات من نوم وروائح الليلة السابقة.

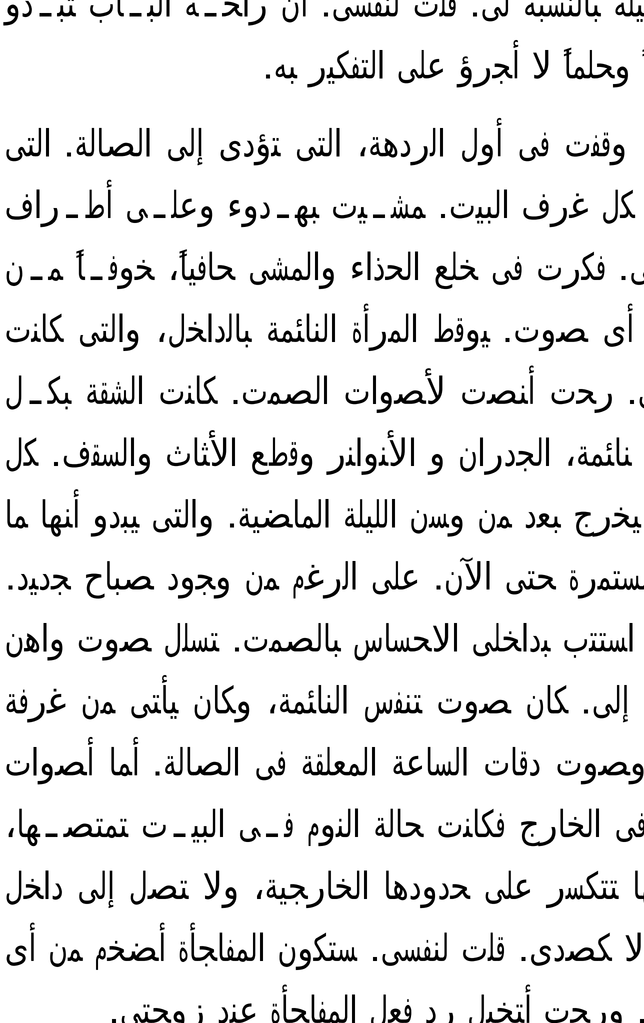
قلت لنسى، وأنا أحاول الوصول إلى قرار بسرعة. أن مفاجأة زوجتى وهى نائمة فى السرير. متعبة من وسن الليلة الماضية الطويلة. وتستعد لوسن اليوم كله. سيعطى اللقاء طعماً خاصاً. وسيمكننا من عبور حالات نفسية كثيرة، يمنها أن تفرق بيننا. وسيفوت على زوجتى فرصة منعى من الدخول إلى أرضنا السابقة. هذا أفضل.بحثت عنى مفتاحى القديم. كنت قد فصلته عن باقى المفاتيح، ووضعته بمفرده فى جيب صغير. وكنت أنقله من ذلك الجيب، عند تغيير ملابسى، إلى جيب آخر. وكان يذكرنى دائماً عند نقله من جيب إلى آخر. بزوجتى وبيتنا وذكرياتى معها. تلك الذكريات التى تولى هاربة إلى الماضى. كان يغلف هذه



الذكريات قدر من الضبات فيجعلها تبدو مثل الأحلام المشوشة التى قد يراها الإنسان وقت نومه. وإن كان يفصله دائماً عن الاندماج فيها، ذلك اليقين الذى يميز الحلم عن الحقيقة.

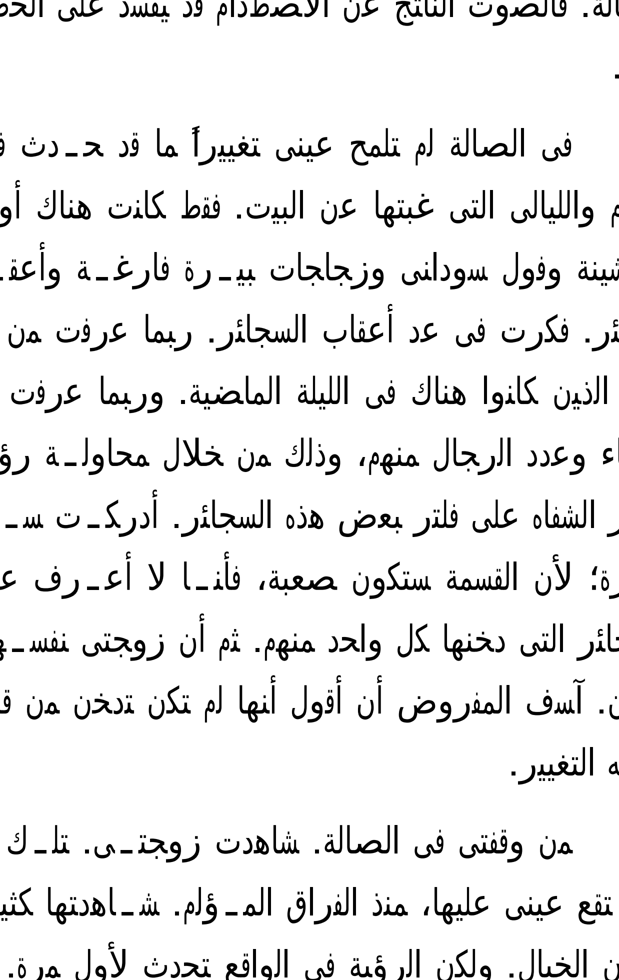
فى صباح هذا اليوم، استيقظت مبكراً. كان عقلى ما يزال نائماً رغم ضوء الصباح. وكنمت غير قادر على التفكير. بدأ عقل المتعب. يتناول أحداث الأيام الماضية. ليعيد خلقها من جديد، من الذاكرة. كنت فى حالة من الاضطراب ومن النعاس وعدم اليقظة أو الاستراحة الحالمة. وهذا يحدث لى كل صباح تقريباً، منذ أن تركت بيت الزوجية ورحلت.

عثرت على المفتاح، أخرجته، بدا لى صغيراً لأنه كان بمفرده، عرف المفتاح الباب ومكانه فيه بسهولة. ودون تدخل منى. كنت حريصاً على أن أفتح باب الشقة دون إحداث أى صوت. حتى أتمكن من الدخول فعلاً. دون أن تنتبه هى لذلك. حتى تحدث المفاجأة كاملة، عندما أفاجئها وهى نائمة. دخلت الشقة، ظللت ممسكاً بالباب أثناء عودته إلى مكانه الطبيعى حتى استقر فى اطاره. دون أن يحدث أى صوت. استراح الباب فى مكانه. فحسدته على هذه الراحة



المستحيلة بالنسبة لى. قلت لنفسى. أن راحة الباب تبدو طموحاً وحلماً لا أجرؤ على التفكير به.

وقفت فى أول الردهة، التى تؤدى إلى الصالة. التى تتوسط كل غرف البيت. مشيت بهدوء وعلى أطراف أصابعى. فكرت فى خلع الحذاء والمشى حافياً، خوفاً من إحداث أى صوت. يوقظ المرأة النائمة بالداخل، والتى كانت زوجتى. رحت أنصت لأصوات الصمت. كانت الشقة بكل ما فيها نائمة، الجدران و الأنوانر وقطع الأثاث والسقف. كل هذا لم يخرج بعد من وسن الليلة الماضية. والتى يبدو أنها ما تزال مستمرة حتى الآن. على الرغم من وجود صباح جديد. بعد أن استتب بداخلى الاحساس بالصمت. تسلل صوت واهن ورتيب إلى. كان صوت تنفس النائمة، وكان يأتى من غرفة النوم، وصوت دقات الساعة المعلقة فى الصالة. أما أصوات الحياة فى الخارج فكانت حالة النوم فى البيت تمتصها، وتجعلها تتكسر على حدودها الخارجية، ولا تصل إلى داخل الشقة إلا كصدى. قلت لنفسى. ستكون المفاجأة أضخم من أى تصور. ورحت أتخيل رد فعل المفاجأة عند زوجتى.



توقفت فى الصالة، كنت أمسح مكـان قـدمى قبـل وضعها على الأرض خوفا من الاصطدام بـأى شـئ فـى الصالة. فالصوت الناتج عن الاصطدام قد يفسد على الخطـة كلها.

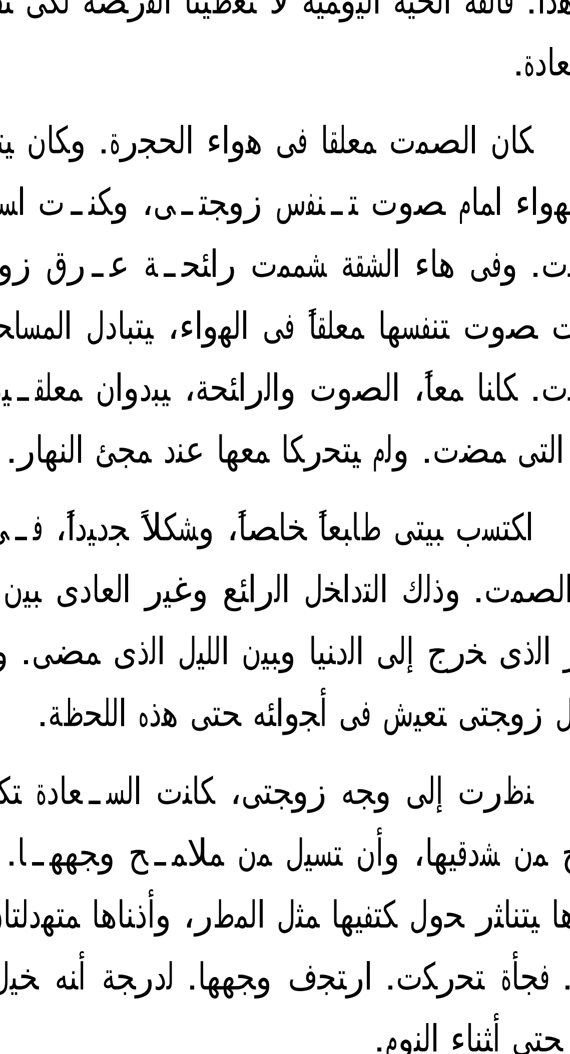
فى الصالة لم تلمح عينى تغييراً ما قد حـدث فـى الأيام والليالى التى غبتها عن البيت. فقط كانت هناك أوراق كوتشينة وفول سودانى وزجاجات بيـرة فارغـة وأعقـاب سجائر. فكرت فى عد أعقاب السجائر. ربما عرفت من ذلك عدد الذين كانوا هناك فى الليلة الماضية. وربما عرفت عدد النساء وعدد الرجال منهم، وذلك من خلال محاولـة رؤيـة أحمر الشفاه على فلتر بعض هذه السجائر. أدركـت سـخف الفكرة؛ لأن القسمة ستكون صعبة، فأنـا لا أعـرف عـدد السجائر التى دخنها كل واحد منهم. ثم أن زوجتى نفسـها لا تدخن. آسف المفروض أن أقول أنها لم تكن تدخن من قبـل ولكنه التغيير.

من وقفتى فى الصالة. شاهدت زوجتـى. تلـك أول مرة تقع عينى عليها، منذ الفراق المـؤلم. شـاهدتها كثيـراً بأعين الخيال. ولكن الرؤية فى الواقع تحدث لأول مرة. كان

باب غرفة النوم الذى يفتح على الصالة مباشرة مفتوحاً. لديها احساس نادر بالأمان.

كانت زوجتى فى سابع نومه. أدركت ذلك من صوت تنفسها الهادئ. أثار فضولى أن بعض الآهات والتأوهات كانت تغير من ايقاعه من وقت لآخر. ثم أنها كانت تتحرك بعد كل آهه. وكأنها تريد الاستمرار بصورة أفضل فى الحيز الصغير الذى تشغله من السرير. كان الحيز المخصص لى.يبدو وكأنه لم يمس. حتى فى حركة النوم الطبيعية لم تصل إلى مساحتى من السرير. لقد تحركت كثيراً. ولكن حركتها كانت فى دائرتها هى من السرير. أما منطقتى من فراش الزوجية، فكانت كما هى. خيل إلى وأنا أنظر إليها من مكانى فى الصالة، أنها لم تمس منذ أن تركت البيت وحتى الآن.

إحترت فى فهم هذا الوضع. هل هو انتظار لعودتى من جديد؟ أم انه رفض لى " وصل إلى رفاض حتى المكان الذى كنت أنام فيه. تحركت فى نومها وتنهدت. استدار جسمها وهى نائمة، فأصبحت فى اتجاهى. فترة طويلة مرت وأنا أشاهد زوجتى فى نومها. إنها المرة الأولى التى أفعل

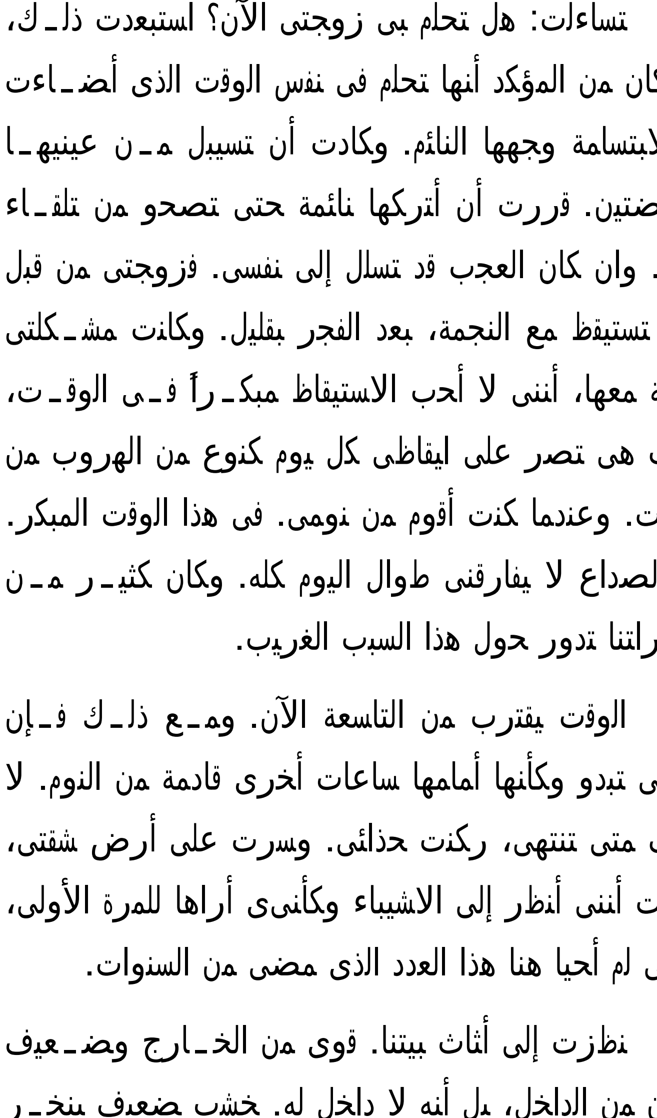


فيها هذا. فألفة الحية اليومية لا تعطينا الفرصة لكى نفعل هذا فى العادة.

كان الصمت معلقا فى هواء الحجرة. وكان يتذبـذب فى الهواء امام صوت تـنفس زوجتـى، وكنـت اسـتعذب الصمت. وفى هاء الشقة شممت رائحـة عـرق زوجتـى، ورأيت صوت تنفسها معلقاً فى الهواء، يتبادل المساحة مـع الصمت. كانا معاً، الصوت والرائحة، يبدوان معلقـين مـن الليلة التى مضت. ولم يتحركا معها عند مجئ النهار.

اكتسب بيتى طابعاً خاصاً، وشكلاً جديداً، فـى ظـل ذلك الصمت. وذلك التداخل الرائع وغير العادى بين أضواء النهار الذى خرج إلى الدنيا وبين الليل الذى مضى. ومع هذا لاتزال زوجتى تعيش فى أجوائه حتى هذه اللحظة.

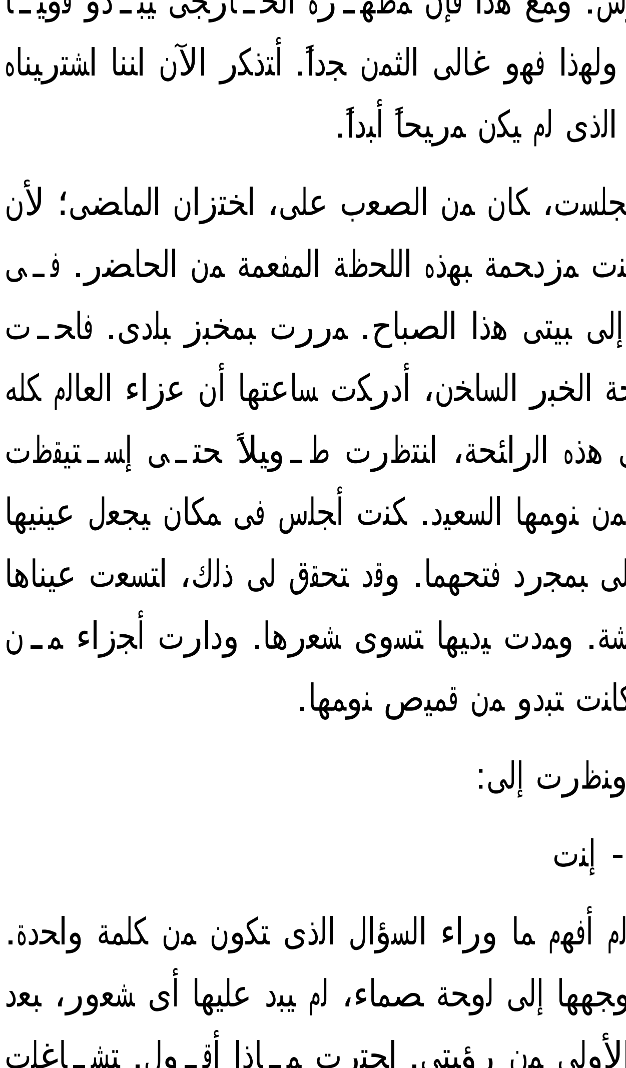
نظرت إلى وجه زوجتى، كانت السـعادة تكـاد أن تخرج من شدقيها، وأن تسيل من ملامـح وجههـا. وكـان شعرها يتناثر حول كتفيها مثل المطر، وأذناها متهدلتان إلـى أسفل. فجأة تحركت. ارتجف وجهها. لدرجة أنه خيل أنهـا تبكى حتى أثناء النوم.



تساءلت: هل تحلم بى زوجتى الآن؟ استبعدت ذلك، وان كان من المؤكد أنها تحلم فى نفس الوقت الذى أضاءت فيه الابتسامة وجهها النائم. وكادت أن تسيبل من عينيها المغمضتين. قررت أن أتركها نائمة حتى تصحو من تلقاء نفسها. وان كان العجب قد تسلل إلى نفسى. فزوجتى من قبل كانت تستيقظ مع النجمة، بعد الفجر بقليل. وكانت مشكلتى الدائمة معها، أننى لا أحب الاستيقاظ مبكراً فى الوقت، وكانت هى تصر على ايقاظى كل يوم كنوع من الهروب من الصمت. وعندما كنت أقوم من نومى. فى هذا الوقت المبكر. كان الصداع لا يفارقنى طوال اليوم كله. وكان كثير من مشاجراتنا تدور حول هذا السبب الغريب.

الوقت يقترب من التاسعة الآن. ومع ذلك فإن زوجتى تبدو وكأنها أمامها ساعات أخرى قادمة من النوم. لا أعرف متى تنتهى، ركنت حذائى. وسرت على أرض شقتى، اكتشفت أننى أنظر إلى الاشيباء وكأنىى أراها للمرة الأولى، وكأننى لم أحيا هنا هذا العدد الذى مضى من السنوات.

نظرت إلى أثاث بيتنا. قوى من الخارج وضعيف وواهن من الداخل، بل أنه لا داخل له. خشب ضعيف ينخر



فيه السوس. ومع هذا فإن مظهـره الخـارجى يبـدو قويـاً وجميلاً. ولهذا فهو غالى الثمن جداً. أتذكر الآن اننا اشتريناه بالتقسيط الذى لم يكن مريحاً أبداً.

جلست، كان من الصعب على، اختزان الماضى؛ لأن نفسى كانت مزدحمة بهذه اللحظة المفعمة من الحاضر. فـى الطريق إلى بيتى هذا الصباح. مررت بمخبز بلادى. فاحـت منه رائحة الخبز الساخن، أدركت ساعتها أن عزاء العالم كله يكمن فى هذه الرائحة، انتظرت طـويلاً حتـى إسـتيقظت زوجتى من نومها السعيد. كنت أجلس فى مكان يجعل عينيها تقعان على بمجرد فتحهما. وقد تحقق لى ذلك، اتسعت عيناها من الدهشة. ومدت يديها تسوى شعرها. ودارت أجزاء مـن جسمها كانت تبدو من قميص نومها.

ونظرت إلى:

- إنت

لم أفهم ما وراء السؤال الذى تكون من كلمة واحدة. وتحول وجهها إلى لوحة صماء، لم يبد عليها أى شعور، بعد الدهشة الأولى من رؤيتى. احترت مـاذا أقـول. تشـاغلت

بالنظر إليها فى صمت. كان ما لدى وأرغب فى قوله كثيراً. تزاحمت الكلمات على شفتى لدرجة اننـى لـم اعـرف اى الكلمات اقول، وأى الكلمات أبقيها فى داخلى.

تركت غرفة نومها. وضعت على قميص النوم روباً تستر به ما يبدو من جسمها. قلت لنفسى، أنها تتصرف معى وكأننى رجل غريب. لم تكن تفعل هذا قبل تركـى الشـقة. خرجت إلى الصالة. وبدلا من أن تتجه إلى الحمام، لتغسـل أسنانها و تغنى وهى فى الحمـام، اتجهـت إلـى الصـالة، وجلست قبالتى.

قلت لنفسى، عن زوجتى الجميلة السابقة، تنازلت عن طقوسها الصباحية، التى طالما قالت لى أن أى قـوة علـى ظهر الأرض لا تجبرها على تغيير هذه الطقوس. يبدو أنهـا قررت الانتهاء منى أولاً، حتى تتفرغ بعد ذلك- وبمفردها- لطقوس يومها. كانت فى انتظار أن أتكلم. وكنـت أحـاول جاهداً العثور على الكلمات، ولكنها تخلت عنى وتاهت منى. ففضلت الصمت، وكانت ملامحها قد تحولت إلـى علامـة استفهام كبرى تطلب الإجابة.

قلت لنفسى. فلتتكلم هى أولاً.

اقتربت منى بوجهها

تساءلت:

- تحت أمرك

تنحنحت وقلت:

- المسألة أن الأمر

توقفت الكلمات، تعطلت لغة الكلام لدى. فصمت من جديد سألتنى:

- أى أمر؟

ساعدتنى، قلت لها فوراً:

- أمر حكايتنا.

قالت:

- تقصد التى كانت حكايتنا

تساءلت بدورى:

- من قال أنها كانت؟

أشارت لى بيدها:

- أنت

- متى؟

- عندما تركت البيت

احترقت فى فهم موقفها، تساءلت، ولكن بينى وبـين نفسى هذه المرة: هل ما زالت تحبنى أم أن كـل شـئ قـد انتهى؟ قلت لنفسى، أن الحديث فى حد ذاتـه يعتبـر أمـراً إيجابياً. ولو استمر الحوار بيننا، قد نصل إلى نتيجة ما.

ما أحزننى أن وجه زوجتى تحول إلى لوحـة مـن الاردواز الأصم. الذى بدا لى من الصعب فك رموزه. كـان وجهها خالياً من العواطف. رحت أتلمس طريقى إليها. وكنت اتصور أننى يمكننى العثور على أول الطريق.

قلت لها:

- حضرت لكى أتكلم

ردت على:

- ليست لدى رغبة فى الاستماع

توسلت إليها:

- أن مجرد الكلام يريحنى.

قالت بوضوح:

- ومجرد الاستماع يتعبنى

تأكد لى أننى فشلت دائماً فى الوصول حتـى إلـى الحلول الوسط. والابتسامة الوحيدة التى عرفت طريقها إلـى وجه زوجتى، كانت بهدف السخرية منى ومما أقول.

نقلت الحوار إلى منطقة أخرى عندما سألتنى:

- لم أتيت؟

قلت. وأنا أفتش بداخلى عن شعورى الحقيقى. هـل هو الصدق أم الجمود القدرى:

- لا أعرف.

مشكلتى هى اننى احتاج لفترة من الوقت حتى اتمكن من العثور على الكلمات المناسبة. كان المفروض أن أقـول أن هذا المكان هو بيتى، و اننى لا أحتاج لسبب لكى احضر إليه فى أى وقت. وانتى أرض السؤال من حيث المبدأ بـدلاً من الاجابة عليه.

قالت، بعد أن أطلت من وجهها ضـحكة سـاخرة. ممزوجة بحالة قريبة من الشماتة:

- وطبعا لا تعرف لم تركت البيت.

قلت سريعاً هذه المرة:

- أنت تقرأين أفكارى بدقة هذا الصباح.

قالت وهى تقوم:

- أين هى الأفكار حتى أقرأها.؟

وعلى الرغم من أننا كنا فى الصباح البـاكر، إلا إن الكلمات بدت لى غسقية، فيها رائحة انتهاء اليـوم، ونـزول الليل علينا جميعاً.

ما أحزننى أن حضورى لم يكن له أى رد فعل لديها. وان الكلمات التى قيلت حتى الآن لم تفلح سوى فى أبعادنـا عن بعضنا البعض، بدلا من أن تقربنا.

قلت لها:

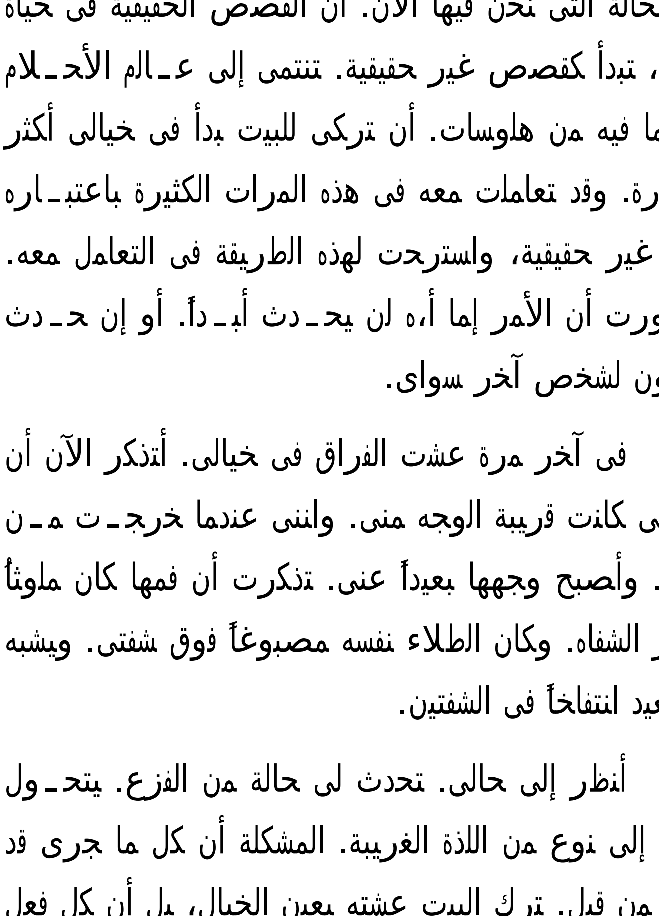
- تصورت أن حضورى سيكون بمثابة بدء صـفحة جديدة.

قامت من مكانها. تصورت أنها ستتجه إلى المطبخ. لكى تعد لى شاى الصباح، ولها قهوتها. وانها ستدعونى بعد قليل إلى جلسة الصباح، واننا سنتذوق كلمات كل صباح. مع رشفات الشاى والقهوة، وكأن ما جرى منذ تركـى المنـزل وحتى الآن مجرد فصله صغيرة. واننى كنت أقيم فـى هـذا البيت حتى لية الأمس. وأننا لن نحتاج لأى كلمات لكى نبـدأ من جديد.

من المحزن أن كل هذا لم يحدث. كانت وقفتها إيذاناً بانتهاء الزيارة، وقد أوشكت أن تطلب منى مغادرة المنـزل. وكان على محاولة انقاذ الموقف، قبل أن تتدهور الأمور للحد الذى لا يمكن اصلاحه.

كان على أن أنصرف وبسرعة.

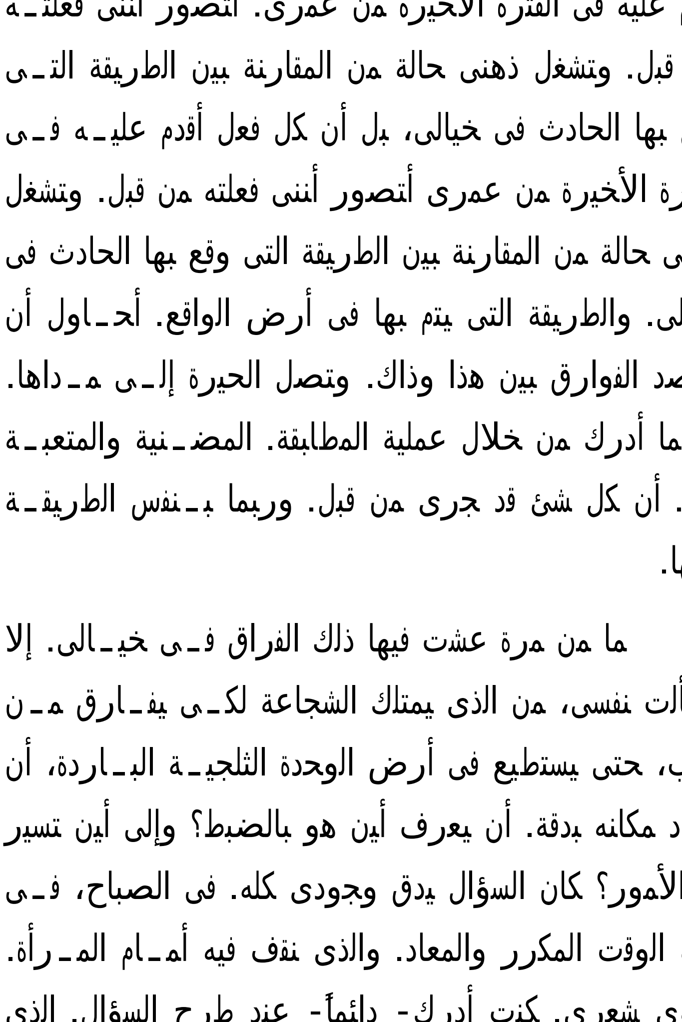
ثلاث دمعات



لا أعرف أين تكمن بذرة الخلاف، تلك التى أوصلتنا إلى الحالة التى نحن فيها الآن. أن القصص الحقيقية فى حياة الناس، تبدأ كقصص غير حقيقية. تنتمى إلى عـالم الأحـلام بكل ما فيه من هلوسات. أن تركى للبيت بدأ فى خيالى أكثر من مرة. وقد تعاملت معه فى هذه المرات الكثيرة باعتبـاره قصة غير حقيقية، واسترحت لهذه الطريقة فى التعامل معه. وتصورت أن الأمر إما أ،ه لن يحـدث أبـداً. أو إن حـدث فسيكون لشخص آخر سواى.

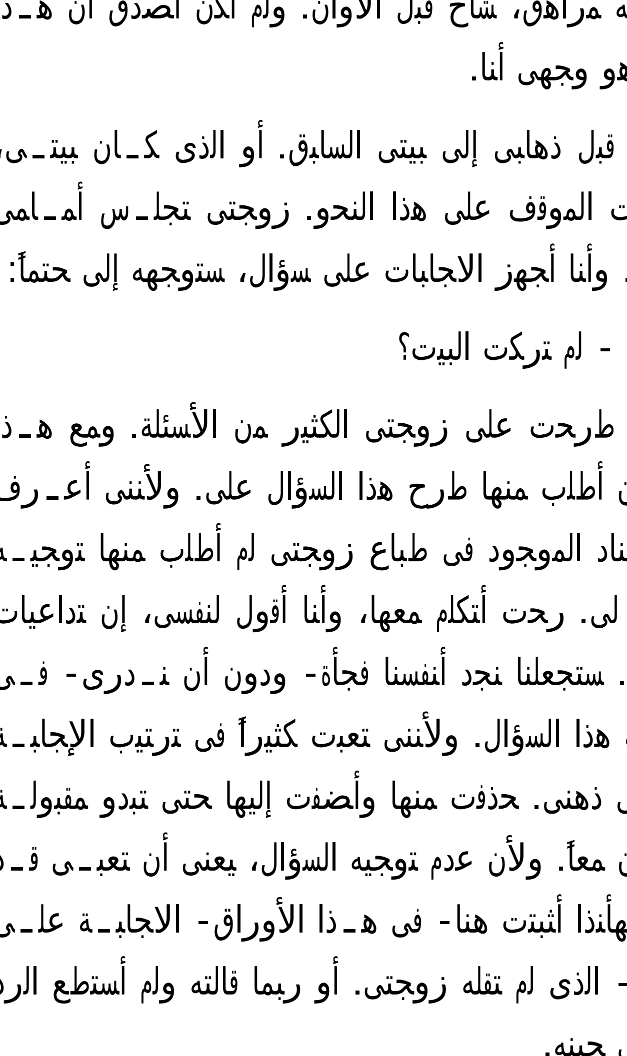
فى آخر مرة عشت الفراق فى خيالى. أتذكر الآن أن زوجتى كانت قريبة الوجه منى. واننى عندما خرجـت مـن البيت. وأصبح وجهها بعيداً عنى. تذكرت أن فمها كان ملوثاً بأحمر الشفاه. وكان الطلاء نفسه مصبوغاً فوق شفتى. ويشبه من بعيد انتفاخاً فى الشفتين.

أنظر إلى حالى. تحدث لى حالة من الفزع. يتحـول الفزع إلى نوع من اللاذة الغريبة. المشكلة أن كل ما جرى قد حدث من قبل. ترك البيت عشته بعين الخيال، بل أن كل فعل



أقدم عليه فى الفترة الأخيرة من عمرى. أتصور أننى فعلتـه من قبل. وتشغل ذهنى حالة من المقارنة بين الطريقة التـى وقع بها الحادث فى خيالى، بل أن كل فعل أقدم عليـه فـى الفترة الأخيرة من عمرى أتصور أننى فعلته من قبل. وتشغل ذهنى حالة من المقارنة بين الطريقة التى وقع بها الحادث فى خيالى. والطريقة التى يتم بها فى أرض الواقع. أحـاول أن أرصد الفوارق بين هذا وذاك. وتصل الحيرة إلـى مـداها. عندما أدرك من خلال عملية المطابقة. المضـنية والمتعبـة معاً. أن كل شئ قد جرى من قبل. وربما بـنفس الطريقـة ذاتها.

ما من مرة عشت فيها ذلك الفراق فـى خيـالى. إلا وسألت نفسى، من الذى يمتلك الشجاعة لكـى يفـارق مـن يحب، حتى يستطيع فى أرض الوحدة الثلجيـة البـاردة، أن يحدد مكانه بدقة. أن يعرف أين هو بالضبط؟ وإلى أين تسير به الأمور؟ كان السؤال يدق وجودى كله. فى الصباح، فـى ذلك الوقت المكرر والمعاد. والذى نقف فيه أمـام المـرآة. أسوى شعرى. كنت أدرك - دائماً - عند طرح السؤال. الذى لا أجد له إجابة، أن الوجه الذى يطالعنى من خلال المـرآة،

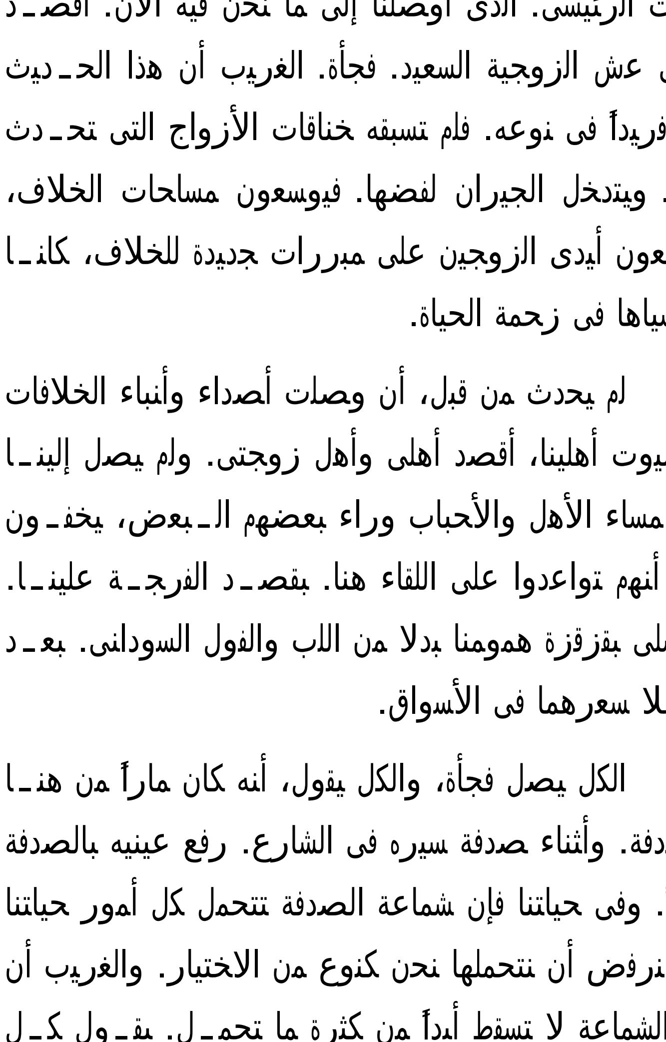


هو وجه مراهق، شاخ قبل الأوان. ولم أكن أصدق أن هـذا الوجه هو وجهى أنا.

قبل ذهابى إلى بيتى السابق. أو الذى كـان بيتـى، تصورت الموقف على هذا النحو. زوجتى تجلـس أمـامى صامتة. وأنا أجهز الاجابات على سؤال، ستوجهه إلى حتماً:

- لم تركت البيت؟

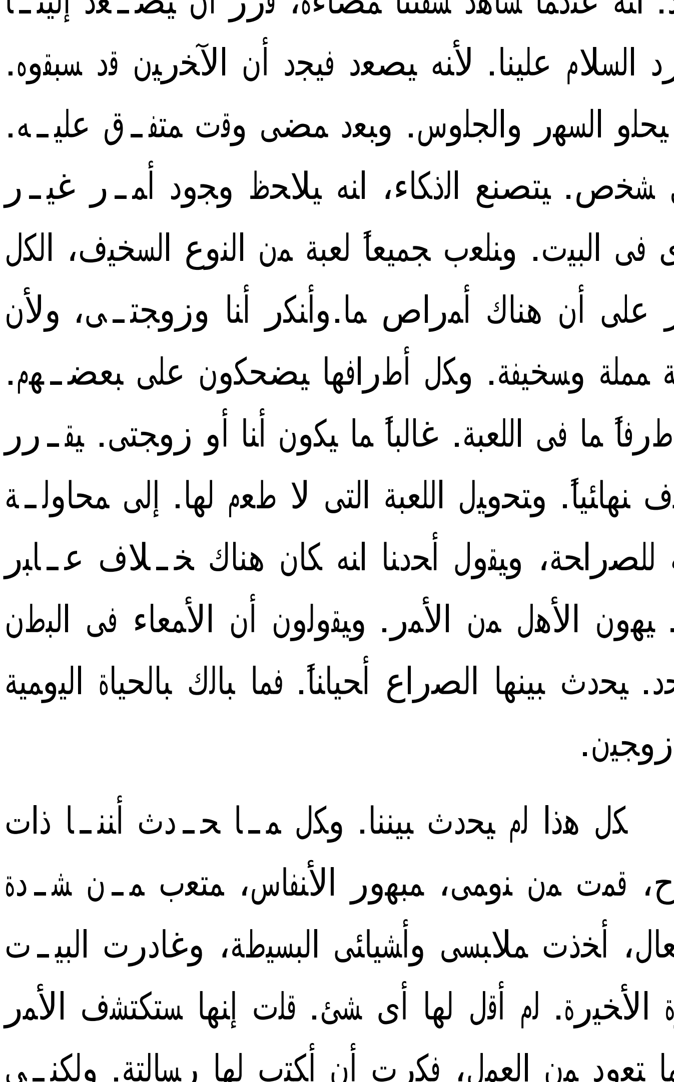
طرحت على زوجتى الكثير من الأسئلة. ومع هـذا كدت أن أطلب منها طرح هذا السؤال على. ولأننى أعـرف قدر العناد الموجود فى طباع زوجتى لم أطلب منها توجيـه السؤال لى. رحت أتكلم معها، وأنا أقول لنفسى، إن تداعيات الحديث. ستجعلنا نجد أنفسنا فجأة- ودون أن نـدرى- فـى مواجهة هذا السؤال. ولأننى تعبت كثيراً فى ترتيب الإجابـة عليه فى ذهنى. حذفت منها وأضفت إليها حتى تبدو مقبولـة للطرفين معاً. ولأن عدم توجيه السؤال، يعنى أن تعبـى قـد ضاع فهأنذا أثبتت هنا- فى هـذا الأوراق- الاجابـة علـى السؤال- الذى لم تقله زوجتى. أو ربما قالته ولم أستطع الرد عليه فى حينه.



من أجل الاجابة على السؤال، لا مفر من العودة إلى الحدث الرئيسى. الذى أوصلنا إلى ما نحن فيه الآن. أقصد تركى عش الزوجية السعيد. فجأة. الغريب أن هذا الحديث كان فريداً فى نوعه. فلم تسبقه خناقات الأزواج التى تحدث عادة. ويتدخل الجيران لفضها. فيوسعون مساحات الخلاف، ويضعون أيدى الزوجين على مبررات جديدة للخلاف، كانا قد نسياها فى زحمة الحياة.

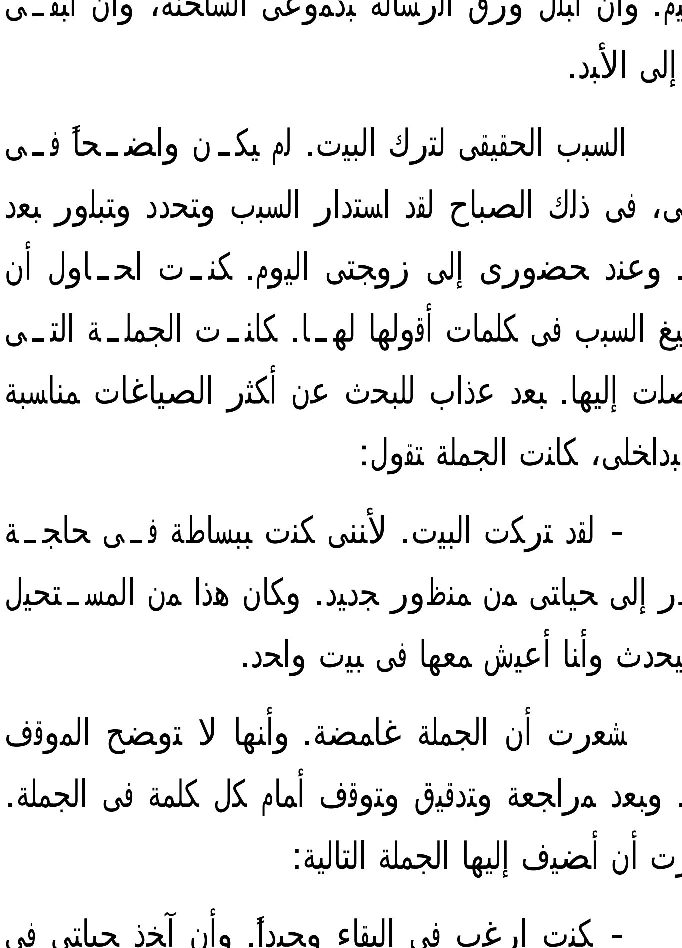
لم يحدث من قبل، أن وصلت أصداء وأنباء الخلافات إلى بيوت أهلينا، أقصد أهلى وأهل زوجتى. ولم يصل إلينا ذات مساء الأهل والأحباب وراء بعضهم البعض، يخفون عنا، أنهم تواعدوا على اللقاء هنا. بقصد الفرجة علينا. والتسلى بقزقزة همومنا بدلا من اللب والفول السودانى. بعد أن غلا سعرهما فى الأسواق.

الكل يصل فجأة، والكل يقول، أنه كان ماراً من هنا بالصدفة. وأثناء صدفة سيره فى الشارع. رفع عينيه بالصدفة أيضاً. وفى حياتنا فإن شماعة الصدفة تتحمل كل أمور حياتنا التى نرفض أن نتحملها نحن كنوع من الاختيار. والغريب أن هذه الشماعة لا تسقط أبداً من كثرة ما تحمل. يقول كل



واحد. انه عندما شاهد شقتنا مضاءة، قرر أن يصعد إلينا لمجرد السلام علينا. لأنه يصعد فيجد أن الآخرين قد سبقوه. لهذا يحلو السهر والجلوس. وبعد مضى وقت متفق عليه. يقول شخص. يتصنع الذكاء، انه يلاحظ وجود أمر غير عادى فى البيت. ونلعب جميعاً لعبة من النوع السخيف، الكل يصر على أن هناك أمراض ما.وأنكر أنا وزوجتى، ولأن اللعبة مملة وسخيفة. وكل أطرافها يضحكون على بعضهم. فإن طرفاً ما فى اللعبة. غالباً ما يكون أنا أو زوجتى. يقرر التوقف نهائياً. وتحويل اللعبة التى لا طعم لها. إلى محاولة للعبة للصراحة، ويقول أحدنا انه كان هناك خلاف عابر بيننا. يهون الأهل من الأمر. ويقولون أن الأمعاء فى البطن الواحد. يحدث بينها الصراع أحياناً. فما بالك بالحياة اليومية بين زوجين.

كل هذا لم يحدث بيننا. وكل ما حدث أننا ذات صباح، قمت من نومى، مبهور الأنفاس، متعب من شدة الإنفعال، أخذت ملابسى وأشيائى البسيطة، وغادرت البيت للمرة الأخيرة. لم أقل لها أى شئ. قلت إنها ستكتشف الأمر عندما تعود من العمل، فكرت أن أكتب لها رسالتة. ولكنى



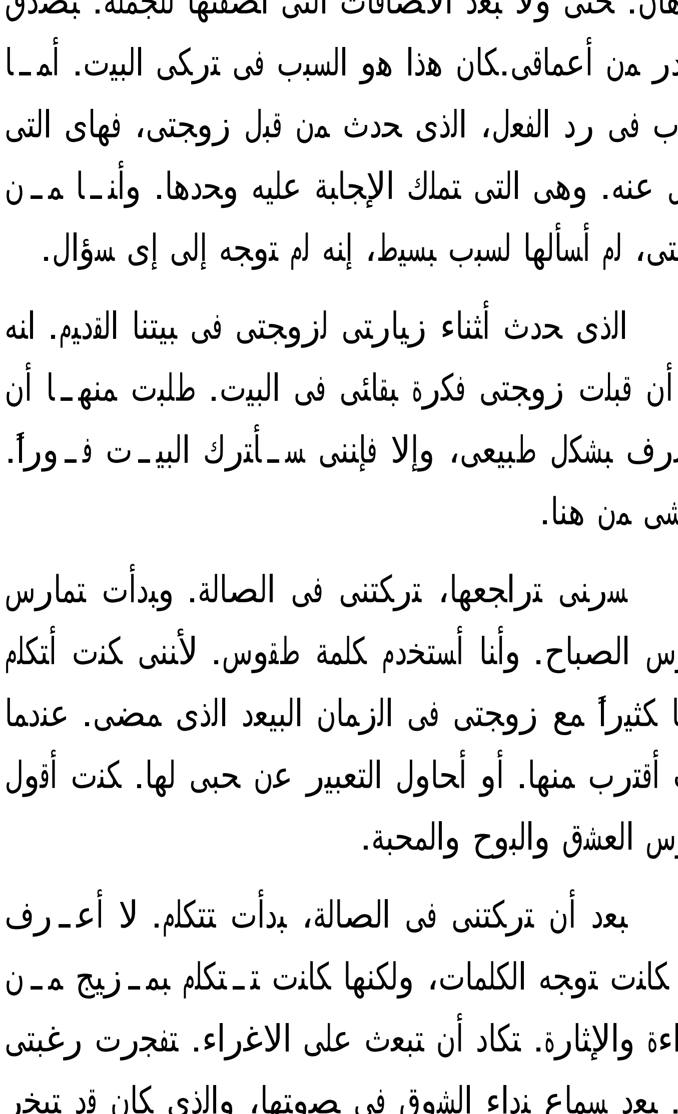
خشيت، إن جلست وقررت الكتابة أن يستولى على الضـعف القديم. وأن أبلل ورق الرسالة بدموعى الساخنة، وأن أبقـى هنا إلى الأبد.

السبب الحقيقى لترك البيت. لم يكـن واضـحاً فـى ذهنى، فى ذلك الصباح لقد استدار السبب وتحدد وتبلور بعد هذا. وعند حضورى إلى زوجتى اليوم. كنـت احـاول أن أصيغ السبب فى كلمات أقولها لهـا. كانـت الجملـة التـى توصلت إليها. بعد عذاب للبحث عن أكثر الصياغات مناسبة لما بداخلى، كانت الجملة تقول:

- لقد تركت البيت. لأننى كنت ببساطة فـى حاجـة للنظر إلى حياتى من منظور جديد. وكان هذا من المسـتحيل أن يحدث وأنا أعيش معها فى بيت واحد.

شعرت أن الجملة غامضة. وأنها لا توضح الموقف كله. وبعد مراجعة وتدقيق وتوقف أمام كل كلمة فى الجملة. قررت أن أضيف إليها الجملة التالية:

- كنت ارغب فى البقاء وحيداً. وأن آخذ حياتى فى يدى من جديد، ربما لم تتحول الجملة إلى معنى مفهوم فـى



الأذهان. حتى ولا بعد الاضافات التى اضفتها للجملة. بصدق صادر من أعماقى.كان هذا هو السبب فى تركى البيت. أمـا السبب فى رد الفعل، الذى حدث من قبل زوجتى، فهاى التى تسأل عنه. وهى التى تملك الإجابة عليه وحدها. وأنـا مـن ناحيتى، لم أسألها لسبب بسيط، إنه لم توجه إلى إى سؤال.

الذى حدث أثناء زيارتى لزوجتى فى بيتنا القديم. انه بعد أن قبلت زوجتى فكرة بقائى فى البيت. طلبت منهـا أن تتصرف بشكل طبيعى، وإلا فإننى سـأترك البيـت فـوراً. وأمشى من هنا.

سرنى تراجعها، تركتنى فى الصالة. وبدأت تمارس طقوس الصباح. وأنا أستخدم كلمة طقوس. لأننى كنت أتكلم عنها كثيراً مع زوجتى فى الزمان البيعد الذى مضى. عندما كنت أقترب منها. أو أحاول التعبير عن حبى لها. كنت أقول طقوس العشق والبوح والمحبة.

بعد أن تركتنى فى الصالة، بدأت تتكلم. لا أعـرف لمن كانت توجه الكلمات، ولكنها كانت تـتكلم بمـزيج مـن البراءة والإثارة. تكاد أن تبعث على الاغراء. تفجرت رغبتى فيها. بعد سماع نداء الشوق فى صوتها، والذى كان قد تبخر

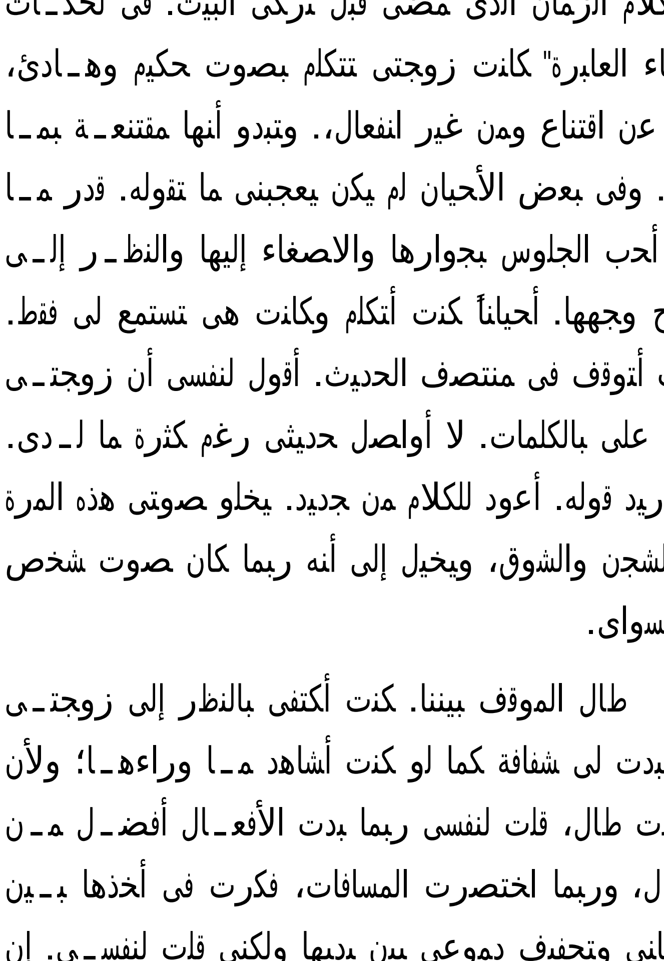
خلال سنوات اقامتنا معاً. ولكننى وبعد مرور وقت قصـير. اكتشفت أن رغبتى تبخرت فى الهـواء وتلاشـت كفقاعـة الصابون.

تحركت زوجتى كثيراً فى الشقة. بدت أمام عينـى، فى صمت ذلك الصباح كمهرة خيالية، تطير فـى الأحـلام، وتدوس بعنف فى حبة القلب. وفى الحجرات، تكلمـت مـن جديد. كانت تتكلم هذه المرة أيضاً بمفردها. قلت لنفسى، تلك أول نتائج أ، تحيا هنا من غير رجل. أننى المسئول الول عن هذا الوضع الغريب. عن أن تكلـم زوجتـى نفسـها بهـذه الصورة، تحول سيرها فى الشقة إلى محاولة للجرى، بـدت أمام عينى هذه المرة، كحورية بيضاء ممشوقة القوام، طويلة القد. تهرب فى جريها المفاجئ، من وحش خرافى، ضـخم ومشوه. فكرت فى الجرى وراءها. قلت ربما كـان جرينـا وراء بعضنا فى الشقة. مفتاح التواصل من جديـد. بعـد أن عجزت الكلمات عن أن تحدث ذلك. نظرت إليها. بدت لـى رشيقة وسريعة ولن أستطيع اللحاق بها أبداً. من جديد بدأت تتكلم. وان كانت نبرات صوتها هذه المرة، تخلـو مـن أى اضطراب. قلت لنفسى: أن الوقـت المتـاح أمـامى، لكـى

أستعيدها قليل جداً. واما أن أتحرك الآن. أو يفوت الوقت. من الآن وإلى الأبد هذه المرة.

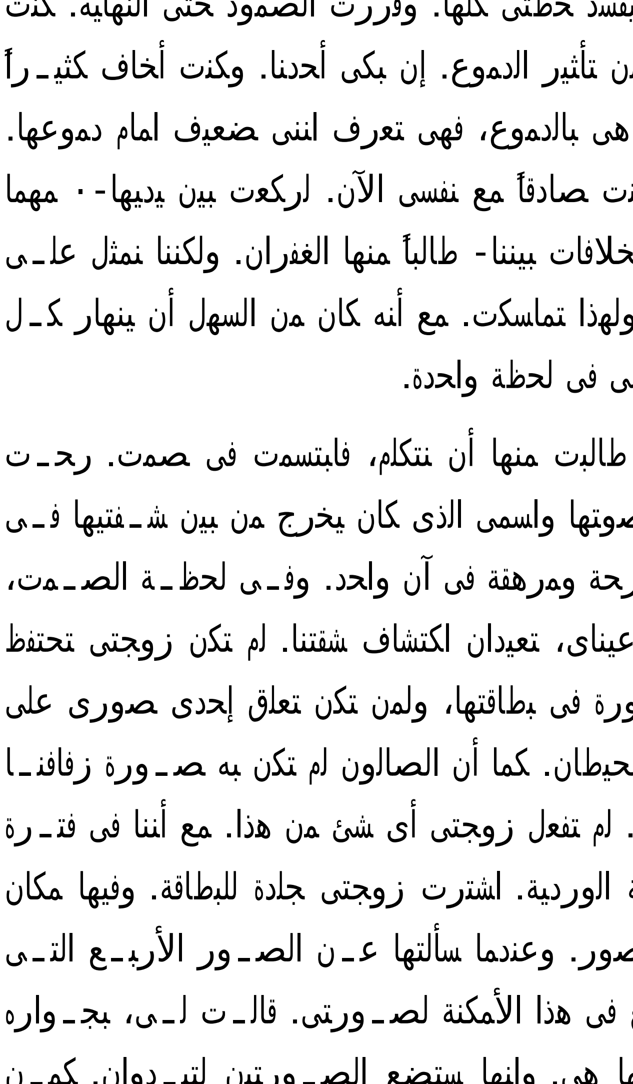
أنظر إلى زوجتى. لا أدرى للمرة الكم. اختلطت الحقيقة بالوهم، بصورة يبدو معها من المستحيل فصل هذا عن ذاك. تبدو زوجتى مثل عذراء من الشمع. عيناها واسعتان حلوتان طفوليتان. وفمها على شكل قلب. ويتحرك صدرها الطرى برخاوة، يضغط على الملابس اللينة الطيفية. وساقاها مثل عود السرو. تمشى أمامى، تحرك فخديها بطريقة تعكس حالة التوتر الداخلى التى تعيشها.

كنت أعانى، وأنا أنظر إلى زوجتى، حالة من الحنين إلى التلاشى فى الآخرين. إن الصعنوبة التى تواجهنى الآن. هى صعوبة شاعرية بالدرجة الأولى. كان وجه زوجتى، مثل لوحة مرسومة، تبقى فى العادة كما هى، وعلى حالها. مهما دار الإنسان حولها، ولوف من كل جانب. ومهما غير من زاوية نظرة إليها. كان يطل من وجه زوجتى شئ عسير على التفسير، نظرة ما خالية من أى تعبير. نظرة جامدة وعاطلة وفاترة. نظرة مرسومة فى لوحة معلقة فى متحف.



ولكنى أقول، وبعد هذه التجربة المريرة، إن صـمتنا هذا، يؤكد هزيمتى، أتوقف أمام زوجتى وأتساءل فى حيرة، أين كلام الزمان الذى مضى قبل تركى البيت. فى لحظـات الصفاء العابرة" كانت زوجتى تتكلم بصوت حكيم وهـادئ، تتكلم عن اقتناع ومن غير انفعال،. وتبدو أنها مقتنعـة بمـا تقوله. وفى بعض الأحيان لم يكن يعجبنى ما تقوله. قدر مـا كنت أحب الجلوس بجوارها والاصغاء إليها والنظـر إلـى ملامح وجهها. أحياناً كنت أتكلم وكانت هى تستمع لى فقط. وكنت أتوقف فى منتصف الحديث. أقول لنفسى أن زوجتـى تضن على بالكلمات. لا أواصل حديثى رغم كثرة ما لـدى. وما أريد قوله. أعود للكلام من جديد. يخلو صوتى هذه المرة من الشجن والشوق، ويخيل إلى أنه ربما كان صوت شخص آخر سواى.

طال الموقف بيننا. كنت أكتفى بالنظر إلى زوجتـى التى بدت لى شفافة كما لو كنت أشاهد مـا وراءهـا؛ ولأن الصمت طال، قلت لنفسى ربما بدت الأفعـال أفضـل مـن الأقوال، وربما اختصرت المسافات، فكرت فى أخذها بـين أحضانى وتجفيف دموعى بين يديها ولكنى قلت لنفسـى. إن



هذا قد يفسد خطتى كلها. وقررت الصمود حتى النهاية. كنت أخاف من تأثير الدموع. إن بكى أحدنا. وكنت أخاف كثيراً أن تبدأ هى بالدموع، فهى تعرف اننى ضعيف امام دموعها. آه لو كنت صادقاً مع نفسى الآن. لركعت بين يديها-٠ مهما كانت الخلافات بيننا- طالباً منها الغفران. ولكننا نمثل على بعضنا ولهذا تماسكت. مع أنه كان من السهل أن ينهار كل ما بداخلى فى لحظة واحدة.

طالبت منها أن نتكلم، فابتسمت فى صمت. رحت أتذكر صوتها واسمى الذى كان يخرج من بين شفتيها فى لهجة مرحة ومرهقة فى آن واحد. وفى لحظة الصمت، راحت عيناى، تعيدان اكتشاف شقتنا. لم تكن زوجتى تحتفظ لى بصورة فى بطاقتها، ولمن تكن تعلق إحدى صورى على إحدى الحيطان. كما أن الصالون لم تكن به صورة زفافنا التقليدية. لم تفعل زوجتى أى شئ من هذا. مع أننا فى فترة الخطوبة الوردية. اشترت زوجتى جلدة للبطاقة. وفيها مكان لأربع صور. وعندما سألتها عن الصور الأربع التى ستوضع فى هذا الأمكنة لصورتى. قالت لى، بجواره لصورتها هى. وانها ستضع الصورتين لتبدوان. كمن

تنظران لبعضهما كل الوقت، وفى الناحية الأخـرى. مكـان لصورة إبننا البكر، ذلك الإبن الذى لم يجئ أبـداً. والمكـان الرابع والأخير. كان مخصصاً لصورة إبنتنا الوحيدة. وهـى أيضاً لم تأت إلى هذا العالم حتى الآن. وكما تتشابك نظراتى مع زوجتى. فإن ابنى البكر وابنتى الوحيدة. لن يعرفا المـل أبداً من تبادل النظرات.

سألتنى زوجتى يومها

- ألن تكون اسرة سعيدة؟

وقلت من كل قلبى وقتها:

- إن السعادة نفسها اخترعت لتصبح إحدى صـفات الأسرة التى سنكونها.

إن افلاس الحاضر، يدفعنى إلى الجرى فـى دروب الماضى، التى تبدو الآن معتمة من ضـعف قـدرتى علـى التذكر. إننى أسأل نفسى فى جلستى هذه. هل كانت زوجتـى هى فتاة أحلامى؟ وعندما أعود إلى سنوات الشباب، وأحاول أن أفتش فى ضباب الذكريات. لا أذكر أنه كانت لـى فتـاة

أحلام. وحتى أن كانت هذه الفتاة قد وجدت فى وقـت مـا. فأعتقد أن ملامحها قد طمست وتاهت.

اقتربت أكثر من زوجتى. طلبـت منهـا الحـديث. ولاذت هى بالصمت.

- أريد سماع صوتك.

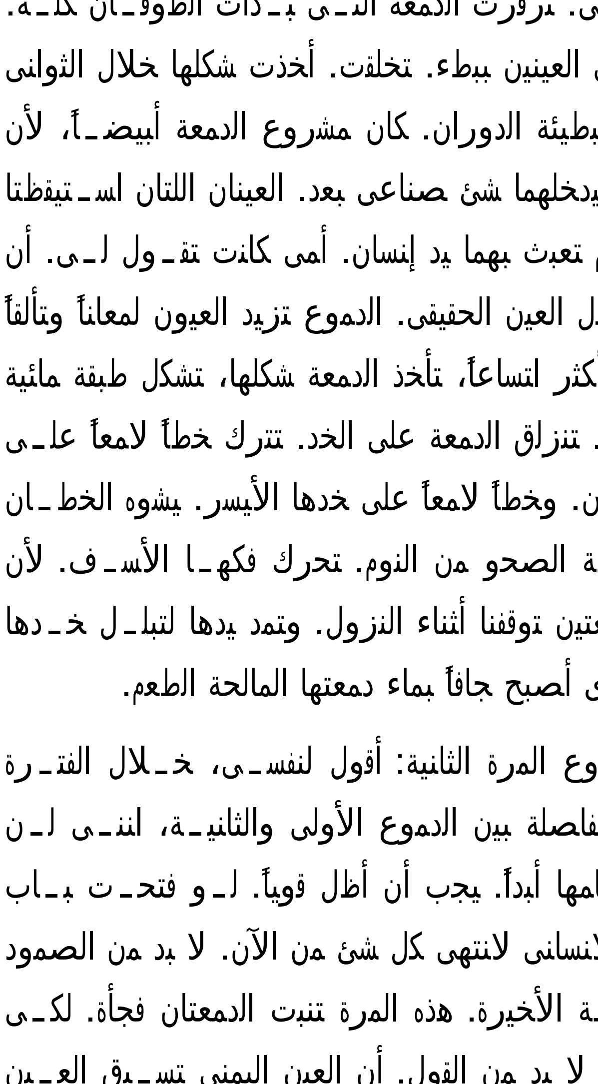
نظرت إلى. بدا وجهها كأنه يوشـك أن يبـدأ أيـام البكاء، ولكنها لمن تتكلم.

- أيام مضت ولم يلامس صوتك أذناى.

نظرت إلى، كانت ملامـح وجههـا تطلـب منـى السكوت. وكان هناك؛ رجاء صامت فى وجهها. يقول لـى، ويتوسل إلى، يطلب منى عدم المضى فـى هـذا الطريـق الخطر.

- كانت كلماتك زاد العمر.

أخيراً، أخيراً. بكت زوجتى. كل ما سـمعته منهـا. صوت البكاء. وما شاهدته أن دموعها أصبحت مثل المطر. وأصبح وجهها مغسولاً بالدموع. ولأن الدموع جـاءت بعـد فترة من الجفاف. لا بد من وصف دقيق لما جـرى. دمـوع

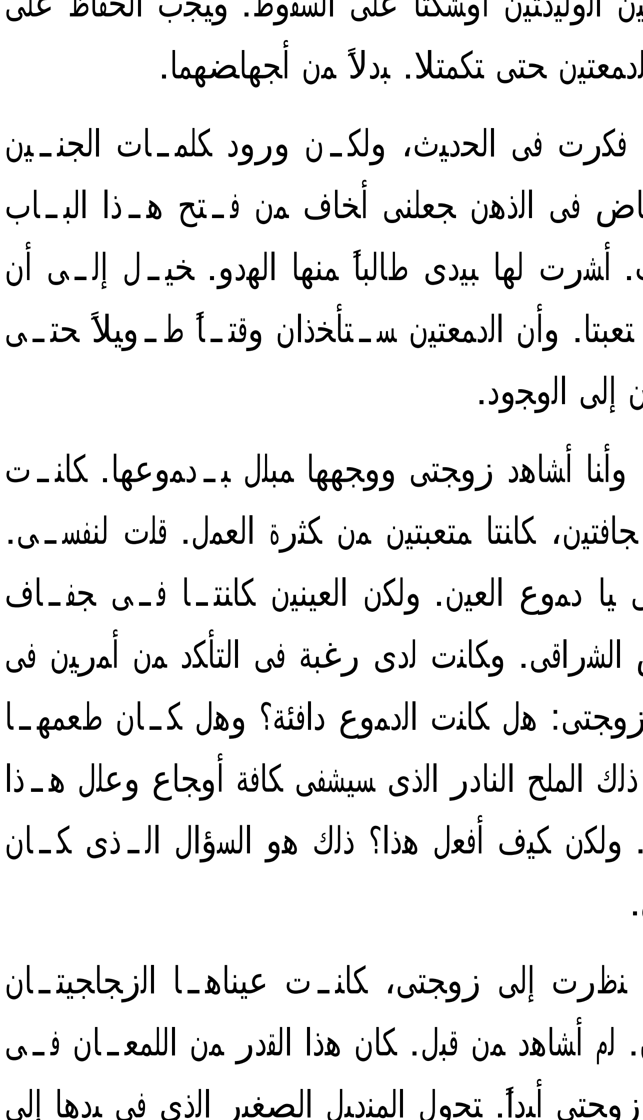


المرة الأولى. ترقرت الدمعة التـى بـدأت الطوفـان كلـه. تجمعت فى العينين ببطء. تخلقت. أخذت شكلها خلال الثوانى الصامتة البطيئة الدوران. كان مشروع الدمعة أبيضـاً، لأن العينين لم يدخلهما شئ صناعى بعد. العينان اللتان اسـتيقظتا منذ قليل لم تعبث بهما يد إنسان. أمى كانت تقـول لـى. أن الدموع كحل العين الحقيقى. الدموع تزيد العيون لمعاناً وتألقاً وتجلعهما أكثر اتساعاً، تأخذ الدمعة شكلها، تشكل طبقة مائية فوق العين. تنزلق الدمعة على الخد. تترك خطاً لامعاً علـى خدها الأيمن. وخطاً لامعاً على خدها الأيسر. يشوه الخطـان جمال لحظة الصحو من النوم. تحرك فكهـا الأسـف. لأن إحدى اللمعتين توقفنا أثناء النزول. وتمد يدها لتبلـل خـدها الأيسر الذى أصبح جافاً بماء دمعتها المالحة الطعم.

دموع المرة الثانية: أقول لنفسـى، خـلال الفتـرة القصيرة الفاصلة بين الدموع الأولى والثانيـة، اننـى لـن أضعف أمامها أبداً. يجب أن أظل قوياً. لـو فتحـت بـاب الضعف الانسانى لانتهى كل شئ من الآن. لا بد من الصمود حتى اللحظة الأخيرة. هذه المرة تنبت الدمعتان فجأة. لكـى أكون دقيقاً لا بد من القول. أن العين اليمنى تسـبق العـين

اليسرى فى تكون دمعتها، سأسأل أحد الأطباء فيما بعد. عن هذه الحكاية. هل تختلف العينان فى القـدرة علـى إنبـات الدموع؟ سباق الجرى بين الدمعتين يبدو واضـحاً، جـرت الدمعتان على الخدين. ولأنها دخلت إلى حالة البكاء لم تنتبه إلى سير الدمعتين ولم تتذوق طعمهما. أمى كانت تقـول أن ملح الدموع، له طعم لا يوجد فى أى ملح آخـر مـن كافـة أملاح العالم. وإنه الدموع الذى يمكن أن يعالج كافة أمراض هذا العالم. وان اكتشافه واستخدامه فى العلاج سيعنى بدايـة عصر جديد فى تاريخ الأوجاع والعلل. فكرت فـى سـؤال زوجتى عن هذا الأمر.. ولكنى يأسا من ردها لم أسألها. مع أن الحديث حول موضوع ملح الدموع ربما أعادنا إلى الألفة القديمة.

دموع المرة الثالثة: أخذت الدمعتان فى هـذه المـرة وقتاً أطول، لا بد وان العين بدأت تضـن بالـدموع. أو أن الجفاف عرف طريقه حتى لبحر الدموع بداخل زوجتى. لـم تجد الدمعتان الجرأة على النزول، ومع الحركة الرأس كانت ملامح الدمعتين تتحدان أكثر. وكنت أخشى علـى مشـروع الدمعتين أن تسقطا من العينين. وكدت أن أطلب منها الهدوء



فالدمعتين الوليدتين أوشكتا على السقوط. ويجب الحفاظ على جنين الدمعتين حتى تكمتلا. بدلاً من أجهاضهما.

فكرت فى الحديث، ولكن ورود كلمات الجنين والاجهاض فى الذهن جعلنى أخاف من فتح هذا الباب الصعب. أشرت لها بيدى طالباً منها الهدو. خيل إلى أن العينين تعبتا. وأن الدمعتين ستأخذان وقتاً طويلاً حتى تخرجان إلى الوجود.

وأنا أشاهد زوجتى ووجهها مبلل بدموعها. كانت عيناى جافتين، كانتا متعبتين من كثرة العمل. قلت لنفسى. أسعفينى يا دموع العين. ولكن العينين كانتا فى جفاف الأرض الشراقى. وكانت لدى رغبة فى التأكد من أمرين فى دموع زوجتى: هل كانت الدموع دافئة؟ وهل كان طعمها مالحاً؟ ذلك الملح النادر الذى سيشفى كافة أوجاع وعلل هذا الزمان. ولكن كيف أفعل هذا؟ ذلك هو السؤال الذى كان يشغلنى.

نظرت إلى زوجتى، كانت عيناها الزجاجيتان تلتمعان. لم أشاهد من قبل. كان هذا القدر من اللمعان فى عينى زوجتى أبداً. تحول المنديل الصغير الذى فى يدها إلى

كرة مبللة. قلت لنفسـى، أن الـدموع توشـك أن تـدفعنى للاستسلام. ولم أكن رافضاً لفكرة الاستسلام. ولكن كيف يتم ذلك؟ وهل تقبله زوجتى؟ وكيف يكون رد فعلها؟

فجأة، وقفت زوجتى. كان وجهها ما يزال مبللاً:

- قبل أن نناقش حكاية العودة

كنت أشرب كلماتها:

- لا بد من الحديث مرة أخرى

قلت لها:

- تحت أمرك

قالت وهى تحاول وقف الدموع:

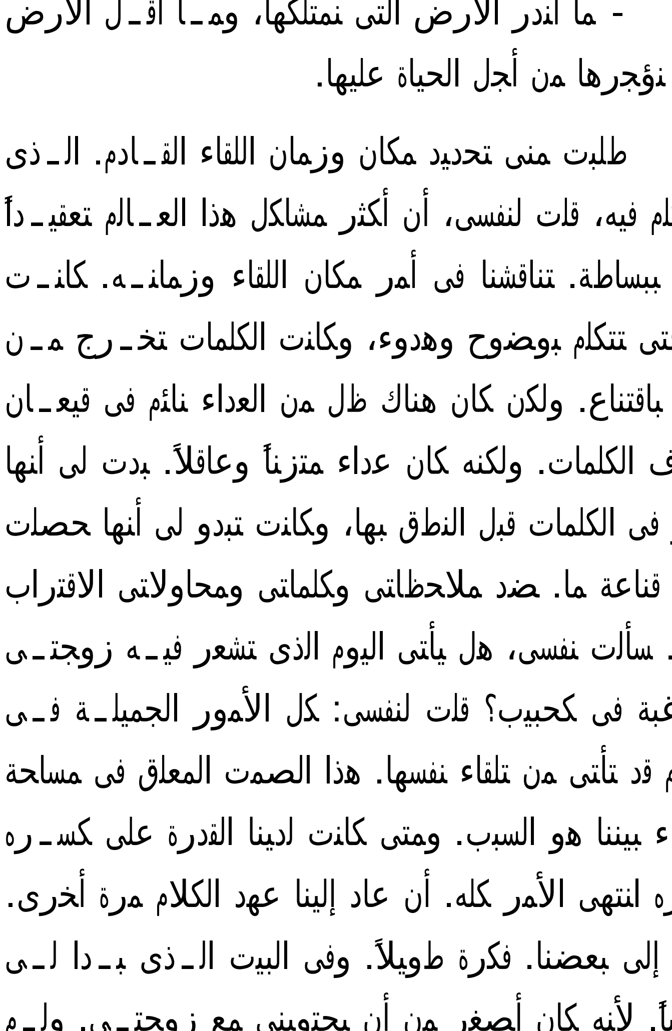
- لن يكون الكلام على أرضى ولا على أرضك

قلت محاولاً أن أبدو ضاحكاً:

- ما أكثر اتساع الأرض المحايدة.

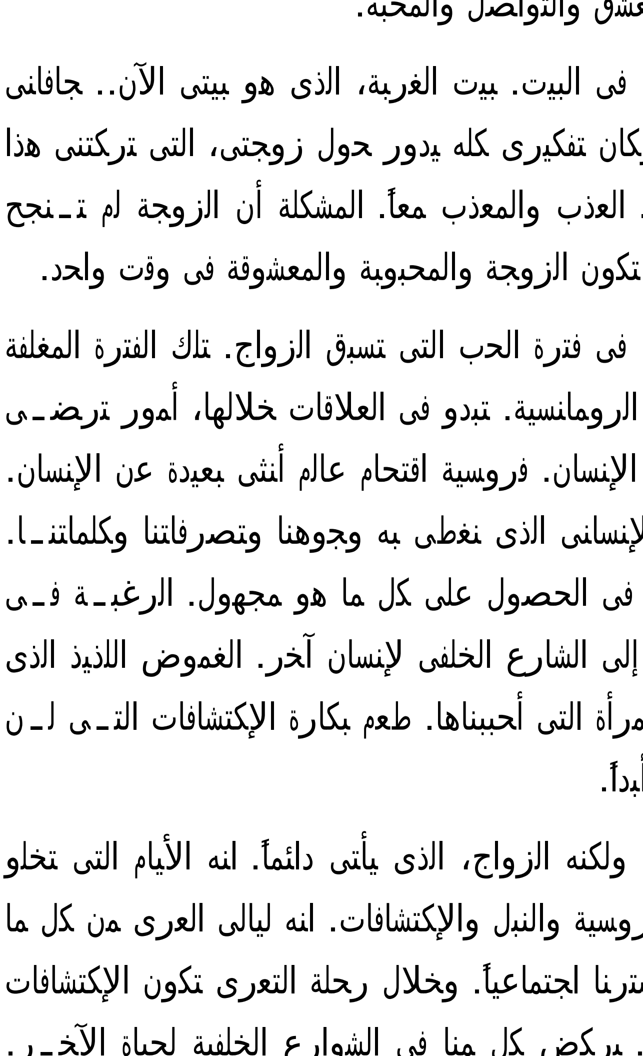
نظرت إلى مستفهمه.

أوضحت:



- ما أندر الأرض التى نمتلكها، وما أقل الأرض التى نؤجرها من أجل الحياة عليها.

طلبت منى تحديد مكان وزمان اللقاء القادم. الذى سنتكلم فيه، قلت لنفسى، أن أكثر مشاكل هذا العالم تعقيداً تحل ببساطة. تناقشنا فى أمر مكان اللقاء وزمانه. كانت زوجتى تتكلم بوضوح وهدوء، وكانت الكلمات تخرج من فمها باقتناع. ولكن كان هناك ظل من العداء نائم فى قيعان أحرف الكلمات. ولكنه كان عداء متزناً وعاقلاً. بدت لى أنها تفكر فى الكلمات قبل النطق بها، وكانت تبدو لى أنها حصلت على قناعة ما. ضد ملاحظاتى وكلماتى ومحاولاتى الاقتراب منها. سألت نفسى، هل يأتى اليوم الذى تشعر فيه زوجتى بالرغبة فى كحبيب؟ قلت لنفسى: كل الأمور الجميلة فى العالم قد تأتى من تلقاء نفسها. هذا الصمت المعلق فى مساحة الهواء بيننا هو السبب. ومتى كانت لدينا القدرة على كسره وقهره انتهى الأمر كله. أن عاد إلينا عهد الكلام مرة أخرى. عدنا إلى بعضنا. فكرة طويلاً. وفى البيت الذى بدا لى غريباً. لأنه كان أصغر من أن يحتوينى مع زوجتى. ولم



يمنحنا الفرصة لأن نمارس إنسانيتنا فيه وعجز عن أن يكون داراً للعشق والتواصل والمحبة.

في البيت. بيت الغربة، الذى هو بيتى الآن.. جافانى النوم وكان تفكيرى كله يدور حول زوجتى، التى تركتنى هذا المساء. العذب والمعذب معاً. المشكلة أن الزوجة لم تـنجح فى أن تكون الزوجة والمحبوبة والمعشوقة فى وقت واحد.

فى فترة الحب التى تسبق الزواج. تلك الفترة المغلفة بظلال الرومانسية. تبدو فى العلاقات خلالها، أمور ترضـى غرور الإنسان. فروسية اقتحام عالم أنثى بعيدة عن الإنسان. النبل الإنسانى الذى نغطى به وجوهنا وتصرفاتنا وكلماتنـا. الرغبة فى الحصول على كل ما هو مجهول. الرغبـة فـى التسلل إلى الشارع الخلفى لإنسان آخر. الغموض اللذيذ الذى بتلك المرأة التى أحببناها. طعم بكارة الإكتشافات التـى لـن تنتهى أبداً.

ولكنه الزواج، الذى يأتى دائماً. انه الأيام التى تخلو من الفروسية والنبل والإكتشافات. انه ليالى العرى من كل ما كان يسترنا اجتماعياً. وخلال رحلة التعرى تكون الإكتشافات عكسية. يركض كل منا فى الشوارع الخلفية لحياة الآخـر.

التى كانت سره الخاص. المأساة أن اكتشافات هذه الشـوارع لاتقرب الناس من بعضهم. بل تقيم بين الرجل والمرأة سبعة صحارى وسبعة بحور وسبع سنوات عجاف. وتعادو الإنسان تلك الرغبة التى لا تعرف الارتواء أبداً فى أن يعرف ويقتحم ويمارس فروسية، رجولته وينظر إلى تلك التى كانت حبيبته والآن أصبحت زوجته. يقول لنفسه:

- الزوجة هى الزوجة..

يكمل بعد قليل:

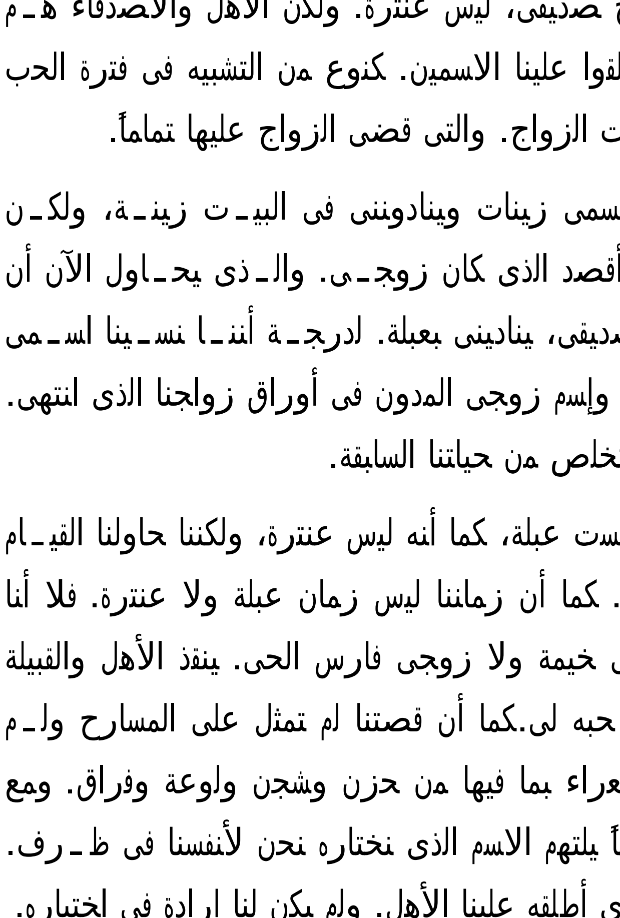
- لن تصبح المعشوقة أبداً

ويبدأ فى رحلة الابتعاد عنها. وعندما يتذكرها فـى بعض الأحيان يقول لنفسه:

- بوسع زوجتى أن تجد طريقة لتعيدنى إلى مكانى من حياتها. على الزوجـات- مهمـا حـدث- أن يحـتفظن بأزواجهن. وستدرك زوجتى هذا إن عاجلاً أم آجلاً.

عبلة ترد الزيارة لعنترة الثامنـة
من ساء نفس اليوم القلـب يصـافح
لقلب.

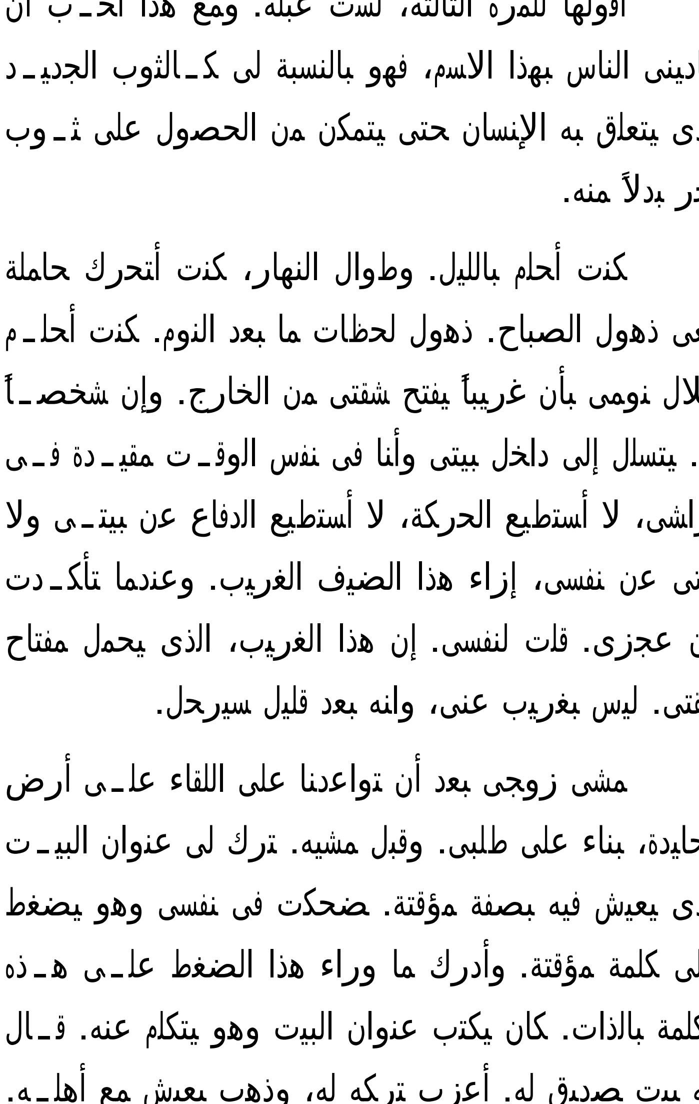
القلب ينبوع أحزان



لست عبلة، كما أن زوجى السابق، الذى يحاول الآن أن يصبح صديقى، ليس عنترة. ولكن الأهل والأصدقاء هـم الذين أطلقوا علينا الاسمين. كنوع من التشبيه فى فترة الحب التى سبقت الزواج. والتى قضى الزواج عليها تماماً.

اسمى زينات وينادوننى فى البيـت زينـة، ولكـن زوجى، أقصد الذى كان زوجـى. والـذى يحـاول الآن أن يصبح صديقى، ينادينى بعبلة. لدرجـة أننـا نسـينا اسـمى الأصلى، وإسم زوجى المدون فى أوراق زواجنا الذى انتهى. وكأننا نتخلص من حياتنا السابقة.

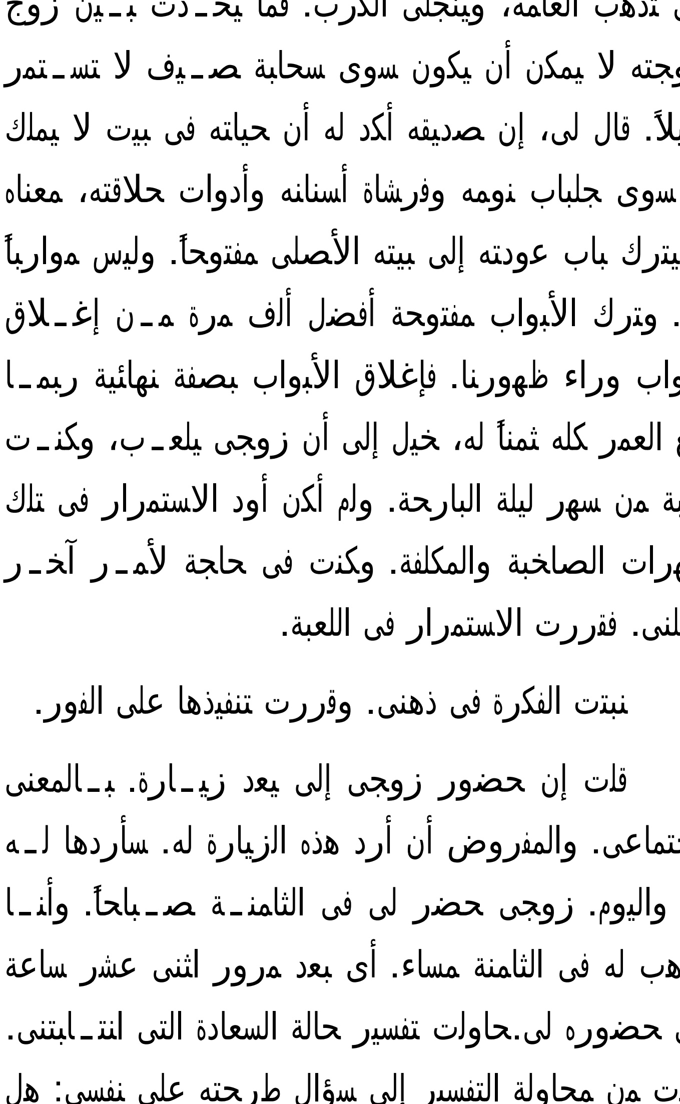
لست عبلة، كما أنه ليس عنترة، ولكننا حاولنا القيـام بالدورين. كما أن زماننا ليس زمان عبلة ولا عنترة. فلا أنا أعيش فى خيمة ولا زوجى فارس الحى. ينقذ الأهل والقبيلة من أجل حبه لى.كما أن قصتنا لم تمثل على المسارح ولـم يتغن الشعراء بما فيها من حزن وشجن ولوعة وفراق. ومع هذا أحياناً يلتهم الاسم الذى نختاره نحن لأنفسنا فى ظـرف. الاسم الذى أطلقه علينا الأهل. ولم يكن لنا إرادة فى اختياره.



أقولها للمرة الثالثة، لست عبلة. ومع هذا أحب أن ينادينى الناس بهذا الاسم، فهو بالنسبة لى كالثوب الجديد الذى يتعلق به الإنسان حتى يتمكن من الحصول على ثوب آخر بدلاً منه.

كنت أحلم بالليل. وطوال النهار، كنت أتحرك حاملة معى ذهول الصباح. ذهول لحظات ما بعد النوم. كنت أحلم خلال نومى بأن غريباً يفتح شقتى من الخارج. وإن شخصاً ما. يتسلل إلى داخل بيتى وأنا فى نفس الوقت مقيدة فى فراشى، لا أستطيع الحركة، لا أستطيع الدفاع عن بيتى ولا حتى عن نفسى، إزاء هذا الضيف الغريب. وعندما تأكدت من عجزى. قلت لنفسى. إن هذا الغريب، الذى يحمل مفتاح شقتى. ليس بغريب عنى، وانه بعد قليل سيرحل.

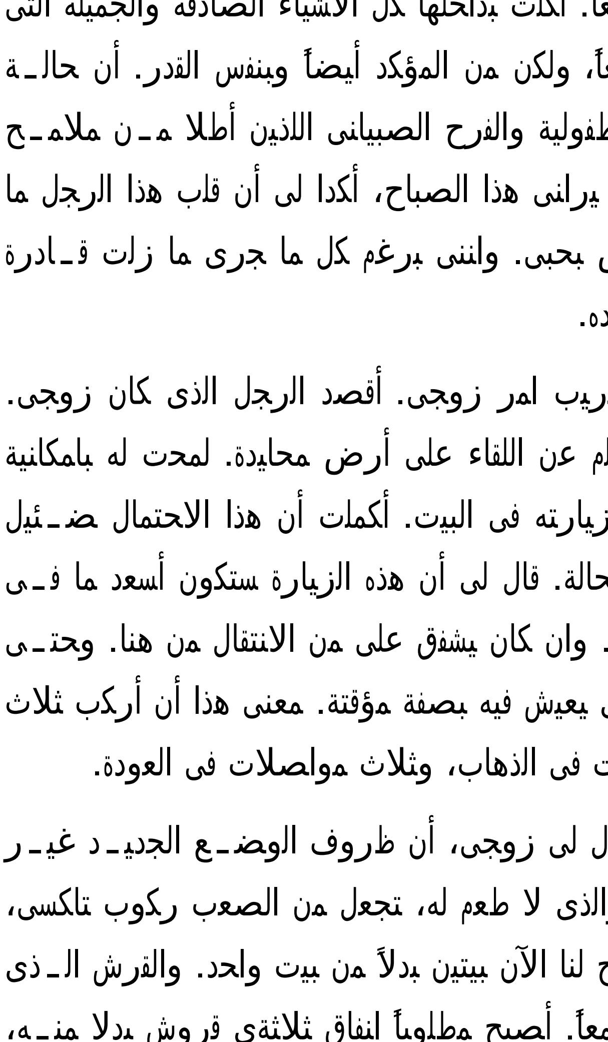
مشى زوجى بعد أن تواعدنا على اللقاء على أرض محايدة، بناء على طلبى. وقبل مشيه. ترك لى عنوان البيت الذى يعيش فيه بصفة مؤقتة. ضحكت فى نفسى وهو يضغط على كلمة مؤقتة. وأدرك ما وراء هذا الضغط على هذه الكلمة بالذات. كان يكتب عنوان البيت وهو يتكلم عنه. قال انه بيت صديق له. أعزب تركه له، وذهب يعيش مع أهله.



حتى تذهب الغامة، وينجلى الكرب. فما يحـدث بـين زوج وزوجته لا يمكن أن يكون سوى سحابة صـيف لا تسـتمر طويلاً. قال لى، إن صديقه أكد له أن حياته فى بيت لا يملك فيه سوى جلباب نومه وفرشاة أسنانه وأدوات حلاقته، معناه أنه يترك باب عودته إلى بيته الأصلى مفتوحاً. وليس مواربأ فقط. وترك الأبواب مفتوحة أفضل ألف مرة مـن إغـلاق الأبواب وراء ظهورنا. فإغلاق الأبواب بصفة نهائية ربمـا ندفع العمر كله ثمناً له، خيل إلى أن زوجى يلعـب، وكنـت متعبة من سهر ليلة البارحة. ولم أكن أود الاستمرار فى تلك السهرات الصاخبة والمكلفة. وكنت فى حاجة لأمـر آخـر يشغلنى. فقررت الاستمرار فى اللعبة.

نبتت الفكرة فى ذهنى. وقررت تنفيذها على الفور.

قلت إن حضور زوجى إلى يعد زيـارة. بـالمعنى الاجتماعى. والمفروض أن أرد هذه الزيارة له. سأردها لـه اذن واليوم. زوجى حضر لى فى الثامنـة صـباحاً. وأنـا سأذهب له فى الثامنة مساء. أى بعد مرور اثنى عشر ساعة على حضوره لى.حاولت تفسير حالة السعادة التى انتـابتنى. هربت من محاولة التفسير إلى سؤال طرحته على نفسى: هل



مازال هذا الرجل يحبنى أم لا؟ من المؤكد أن الأيـام التـى عشناها معاً. أكلت بداخلها كل الأشياء الصادقة والجميلة التى جمعتنا معاً، ولكن من المؤكد أيضاً وبنفس القدر. أن حالـة الحبور الطفولية والفرح الصبيانى اللذين أطلا مـن ملامـح وجه وهو يرانى هذا الصباح، أكدا لى أن قلب هذا الرجل ما زال ينبض بحبى. واننى برغم كل ما جرى ما زلت قـادرة على إسعاده.

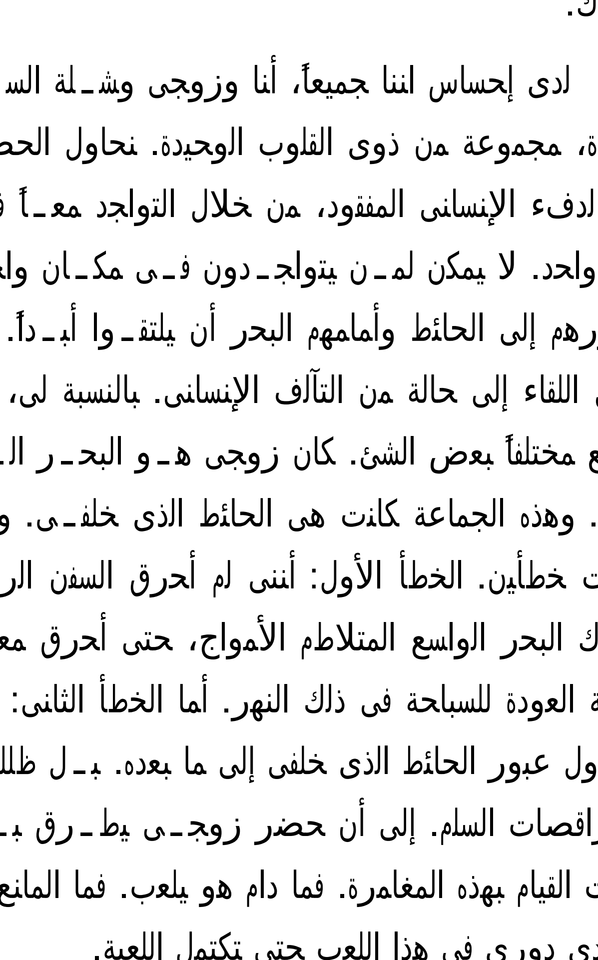
غريب امر زوجى. أقصد الرجل الذى كان زوجى. ونحن نتكلم عن اللقاء على أرض محايدة. لمحت له بامكانية أن أقوم بزيارته فى البيت. أكملت أن هذا الاحتمال ضـئيل لحد الاستحالة. قال لى أن هذه الزيارة ستكون أسعد ما فـى عمره كله. وان كان يشفق على من الانتقال من هنا. وحتـى البيت الذى يعيش فيه بصفة مؤقتة. معنى هذا أن أركب ثلاث مو اصلات فى الذهاب، وثلاث مواصلات فى العودة.

قال لى زوجى، أن ظروف الوضـع الجديـد غيـر المبرر، والذى لا طعم له، تجعل من الصعب ركوب تاكسى، لأننا أصبح لنا الآن بيتين بدلاً من بيت واحد. والقرش الـذى كنا ننفقه معاً. أصبح مطلوباً انفاق ثلاثةى قروش بدلا منـه،

وهو من ناحيته، فإن ظروفه المالية لا تمكنه من الحضـور إلى وأخذى فى تاكسى حتى بيته. لعب الفأر فى عبى. قلـت له. أن كانت زيارتى له قد تغضب التى تعيش معه، يمكنه أن يخبرها بالزيارة مسبقاً، وأن تترك البيت لى وقـت الزيـارة فقط. غضب من استمرار ظلمى له- هكذا وصـف مـوقفى منه- كرر عرضه أن يحضر إلى ويأخذنى معه حتى لا أتوه وأسأل. وقد لا أصل إليه أبداً. فالبيت الذى يعيش فيـه فـى منطقة جديدة. الشوارع بدون أسماء ولا توجد علامات تحدد المكان.

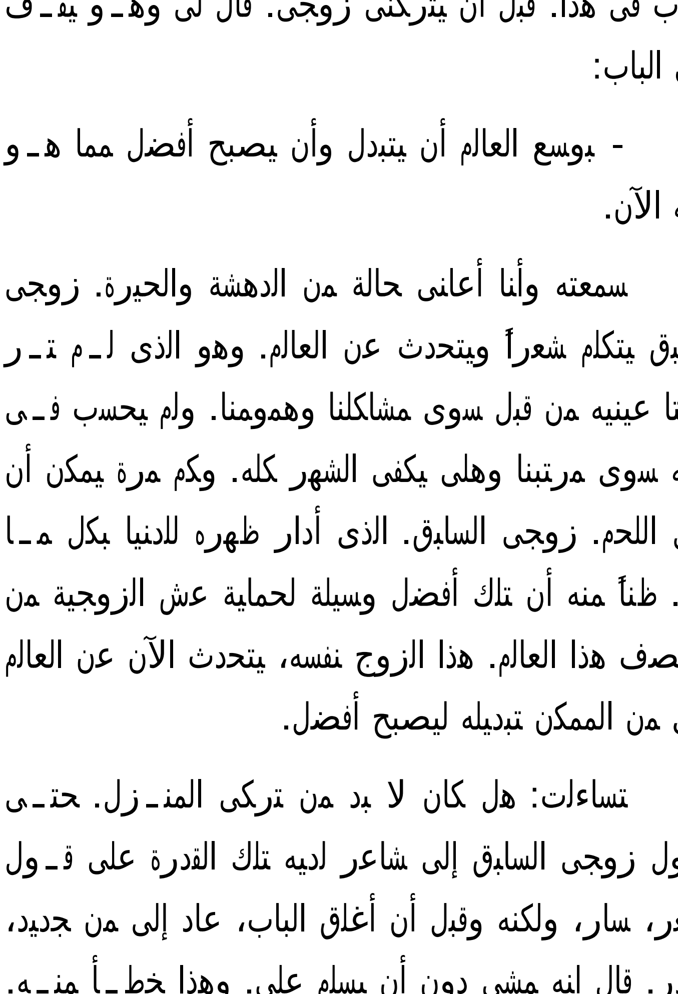
- ستكون مهمتى الأساسية هى الوصول إليك.

هكذا قلت له. كتب لى العنوان. على ورقة من حجم الفولسكاب، بها الكثير من العلامات والشواهد. وفـى ظهـر الوقة رسم خريطة ضخمة حدد فيها الجهات الأربـع. كـان الوصول إلى المكان الذى يعيش فيه زوجى مغامرة محببـة إلى نفسى. رحت أتخيل رفقة السهر الجديدة. الذين يحضرون بهدف ملء الفراغ الجديد فى حياتى بعد" بروفة الطلاق بينى وبين زوجى". هكذا منحوا وضعنا اسماً من عندهم. أتخيـل



حضورهم واكتشافهم أننى لست فى المنزل، وعدم حضورهم بعد ذلك.

لدى إحساس اننا جميعاً، أنا وزوجى وشلة السهر الجديدة، مجموعة من ذوى القلوب الوحيدة. نحاول الحصول على الدفء الإنسانى المفقود، من خلال التواجد معاً فى مكان واحد. لا يمكن لمن يتواجدون فى مكان واحد وظهورهم إلى الحائط وأمامهم البحر أن يلتقوا أبداً. وأن يتحول اللقاء إلى حالة من التآلف الإنسانى. بالنسبة لى، كان الوضع مختلفاً بعض الشئ. كان زوجى هو البحر الذى أمامى. وهذه الجماعة كانت هى الحائط الذى خلفى. وقد ارتكبت خطأين. الخطأ الأول: أننى لم أحرق السفن الراسية فى ذلك البحر الواسع المتلاطم الأمواج، حتى أحرق معها امكانية العودة للسباحة فى ذلك النهر. أما الخطأ الثانى: أننى لم أحاول عبور الحائط الذى خلفى إلى ما بعده. بل ظللت مثل راقصات السلم. إلى أن حضر زوجى يطرق بابى فقررت القيام بهذه المغامرة. فما دام هو يلعب. فما المانع من أن أودى دورى فى هذا اللعب حتى تكتمل اللعبة.

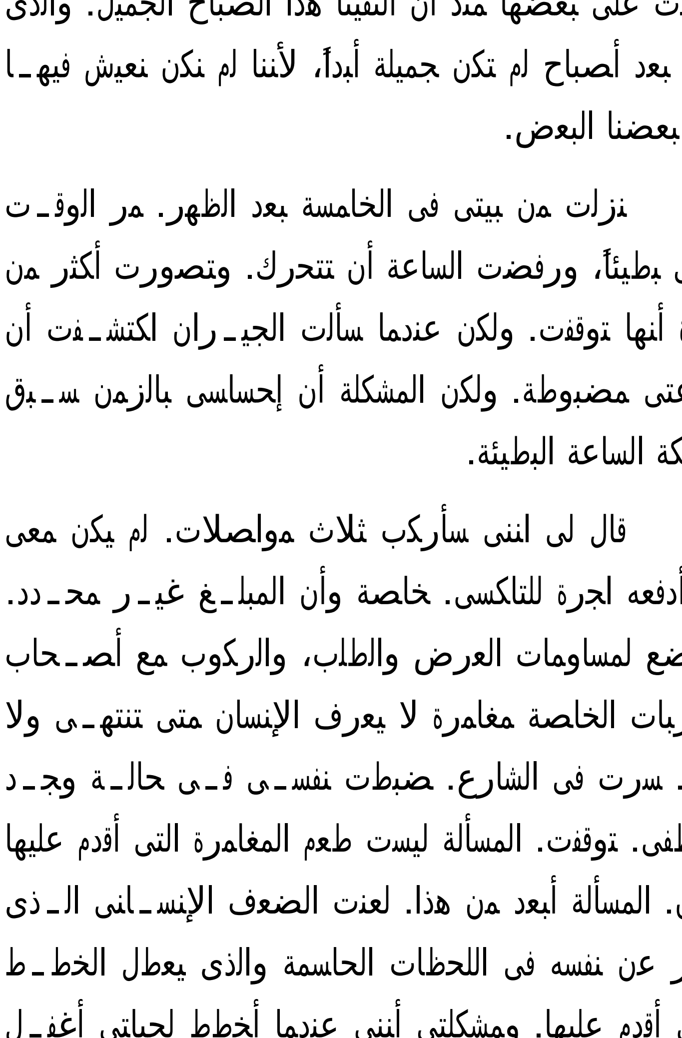


سألت نفسى عن السبب فى زيارة الرجل ا لذى كان زوجى فى البيت الذى يسكن فيه، فاكتشفت اننى لا أعـرف السبب فى هذا. قبل أن يتركنى زوجى. قال لى وهـو يقـف على الباب:

- بوسع العالم أن يتبدل وأن يصبح أفضل مما هـو عليه الآن.

سمعته وأنا أعانى حالة من الدهشة والحيرة. زوجى السابق يتكلم شعراً ويتحدث عن العالم. وهو الذى لـم تـر حدقتا عينيه من قبل سوى مشاكلنا وهمومنا. ولم يحسب فـى ذهنه سوى مرتبنا وهلى يكفى الشهر كله. وكم مرة يمكن أن نأكل اللحم. زوجى السابق. الذى أدار ظهره للدنيا بكل مـا فيها. ظناً منه أن تلك أفضل وسيلة لحماية عش الزوجية من عواصف هذا العالم. هذا الزوج نفسه، يتحدث الآن عن العالم الذى من الممكن تبديله ليصبح أفضل.

تساءلت: هل كان لا بد من تركى المنـزل. حتـى يتحول زوجى السابق إلى شاعر لديه تلك القدرة على قـول الشعر، سار، ولكنه وقبل أن أغلق الباب، عاد إلى من جديد، اعتذر. قال إنه مشى دون أن يسلم على. وهذا خطـأ منـه.



وهو يعود إلى لكى يعتذر، ويسلم على رغم ايمانه أن القلوب سلمت على بعضها منذ أن ألتقينا هذا الصباح الجميل. والذى أتى بعد أصباح لم تكن جميلة أبداً، لأننا لم نكن نعيش فيها مع بعضنا البعض.

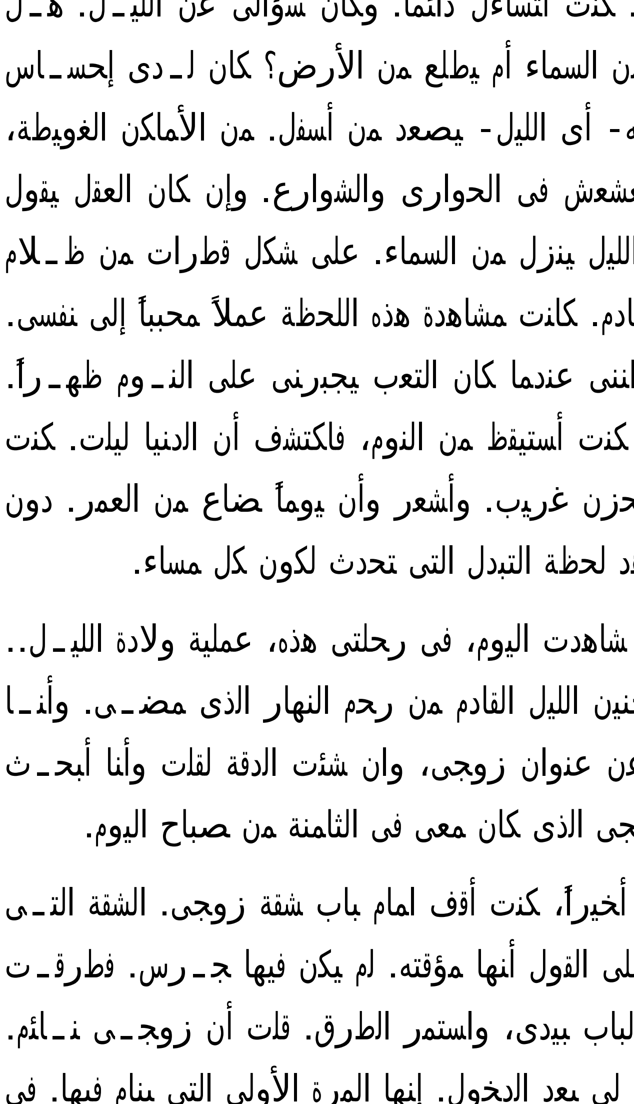
نزلت من بيتى فى الخامسة بعد الظهر. مر الوقت على بطيئاً، ورفضت الساعة أن تتحرك. وتصورت أكثر من مرة أنها توقفت. ولكن عندما سألت الجيران اكتشفت أن ساعتى مضبوطة. ولكن المشكلة أن إحساسى بالزمن سبق حركة الساعة البطيئة.

قال لى اننى سأركب ثلاث مواصلات. لم يكن معى ما أدفعه اجرة للتاكسى. خاصة وأن المبلغ غير محدد. يخضع لمساومات العرض والطلب، والركوب مع أصحاب العربات الخاصة مغامرة لا يعرف الإنسان متى تنتهى ولا أين. سرت فى الشارع. ضبطت نفسى فى حالة وجد عاطفى. توقفت. المسألة ليست طعم المغامرة التى أقدم عليها الآن. المسألة أبعد من هذا. لعنت الضعف الإنسانى الذى يعبر عن نفسه فى اللحظات الحاسمة والذى يعطل الخطط التى أقدم عليها. ومشكلتى أننى عندما أخطط لحياتى أغفل

دور العواطف، ولهذا تفاجئنى فى الوقت غير المناسب. وأنا غير مستعدة لها. أسأل نفسى، هل ما يزال فى القلب مكـان لذلك الرجل الذى كان زوجى؟ ما دام الأمر قد وصـل إلـى منطقة القلوب وما فيها من عواطف. فربما بدت الإجابة على السؤال صعبة.

الواقع حولى لم يتغير، زحام البشر، والمواصـلات البطيئة والمزدحمة وكلمات الشارع التى أسمعها. ومع هـذا ثمة شئ قد تغير فى هذا كله. ربما كنت أنا التى تغيرت.

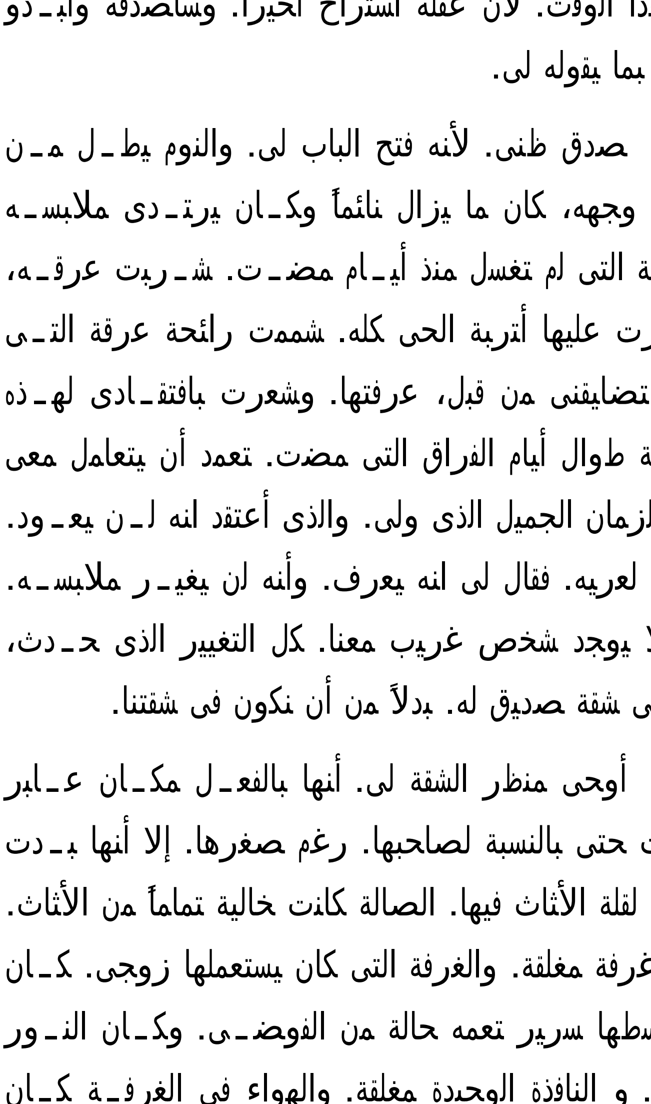
كان الوصول إلى المكان صعباً. وقد تعبت من كثرة المشى. وأرهقت من كثرة الأسئلة. والمشكلة أن من يعـرف يدلك. ومن لايعرف يرشدك أيضاً، بدلاً من الاعتراف بأنه لا يعرف. ولولا الظرف النفسى الذى أعيشه لقررت الرجـوع، ولكن كان بداخلى تصميم غريب على الوصول مهمـا كـان التعب، وقد وجدت لذة خاصة فى التعب من أجل الوصـول إليه. كان الوقت يقترب من لحظة الغروب. وأنا احب هـذه اللحظة بشكل خاص، وأحب أن أرقبها كل يوم. حيـث تنـزل قطرات الليل لتستقر فى الأمكنة والزوايا والأركـان. كنـت أجلس فى شرفة منزلى. الذى كان منزلنا. بينما زوجى ينام



بالداخل. كنت أتساءل دائماً. وكان سؤالى عن الليل. هل بينزل من السماء أم يطلع من الأرض؟ كان لدى إحساس دائم، أنه- أى الليل- يصعد من أسفل. من الأماكن الغويطة، حيث يعشعش فى الحوارى والشوارع. وإن كان العقل يقول لى أن الليل ينزل من السماء. على شكل قطرات من ظلام الليل القادم. كانت مشاهدة هذه اللحظة عملاً محبباً إلى نفسى. لدرجة اننى عندما كان التعب يجبرنى على النوم ظهراً. وعندما كنت أستيقظ من النوم، فاكتشف أن الدنيا ليلت. كنت أشعر بحزن غريب. وأشعر وأن يوماً ضاع من العمر. دون أن أشاهد لحظة التبدل التى تحدث لكون كل مساء.

شاهدت اليوم، فى رحلتى هذه، عملية ولادة الليل.. خرج جنين الليل القادم من رحم النهار الذى مضى. وأنا أبحث عن عنوان زوجى، وان شئت الدقة لقلت وأنا أبحث عن زوجى الذى كان معى فى الثامنة من صباح اليوم.

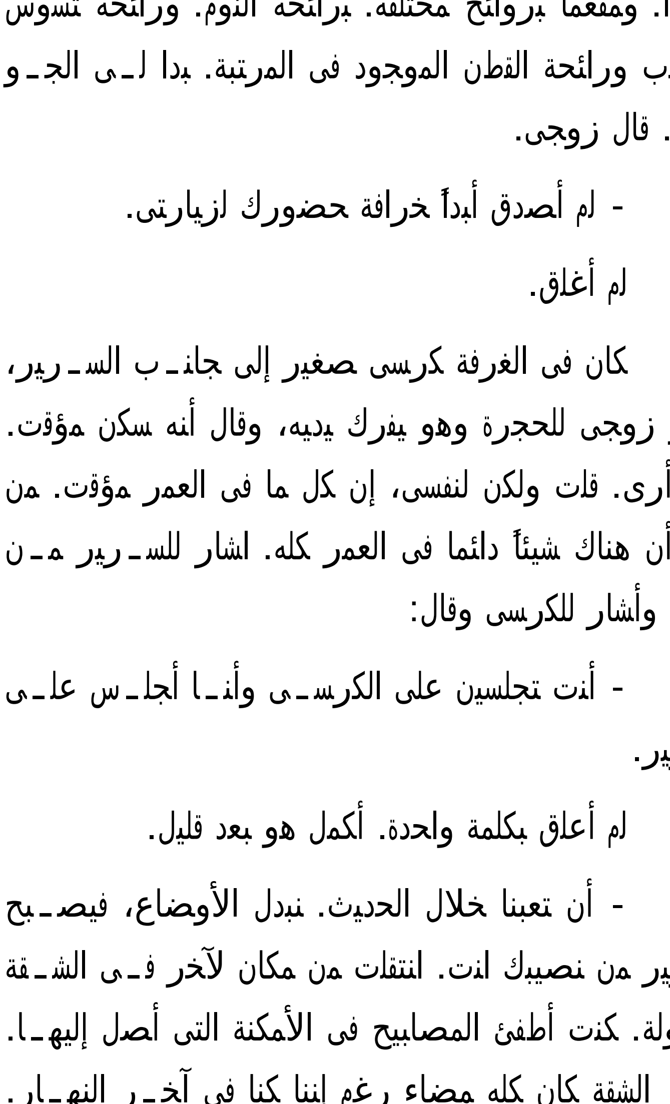
أخيراً، كنت أقف امام باب شقة زوجى. الشقة التى يصر على القول أنها مؤقته. لم يكن فيها جرس. فطرقت زجاج الباب بيدى، واستمر الطرق. قلت أن زوجى نائم. وسيقول لى بعد الدخول. إنها المرة الأولى التى ينام فيها. فى



مثل هذا الوقت. لأن عقله استراح أخيراً. وسأصدقه وأبدو سعيدة بما يقوله لى.

صدق ظنى. لأنه فتح الباب لى. والنوم يطل من ملامح وجهه، كان ما يزال نائماً وكان يرتدى ملابسه الداخلية التى لم تغسل منذ أيام مضت. شربت عرقه، واستقرت عليها أتربة الحى كله. شممت رائحة عرقة التى كانت تضايقنى من قبل، عرفتها. وشعرت بافتقادى لهذه الرائحة طوال أيام الفراق التى مضت. تعمد أن يتعامل معى بألفة الزمان الجميل الذى ولى. والذى أعتقد انه لن يعود. اشرت لعريه. فقال لى انه يعرف. وأنه لن يغير ملابسه. لأنه لا يوجد شخص غريب معنا. كل التغيير الذى حدث، أننى فى شقة صديق له. بدلاً من أن نكون فى شقتنا.

أوحى منظر الشقة لى. أنها بالفعل مكان عابر ومؤقت حتى بالنسبة لصاحبها. رغم صغرها. إلا أنها بدت واسعة لقلة الأثاث فيها. الصالة كانت خالية تماماً من الأثاث. وثمة غرفة مغلقة. والغرفة التى كان يستعملها زوجى. كان فى وسطها سرير تعمه حالة من الفوضى. وكان النور مضاء. و النافذة الوحيدة مغلقة. والهواء فى الغرفة كان



راكداً. ومفعماً بروائح مختلفة. برائحة النوم. ورائحة تسوس الخشب ورائحة القطن الموجود فى المرتبة. بدا لـى الجـو كئيباً. قال زوجى.

- لم أصدق أبداً خرافة حضورك لزيارتى.

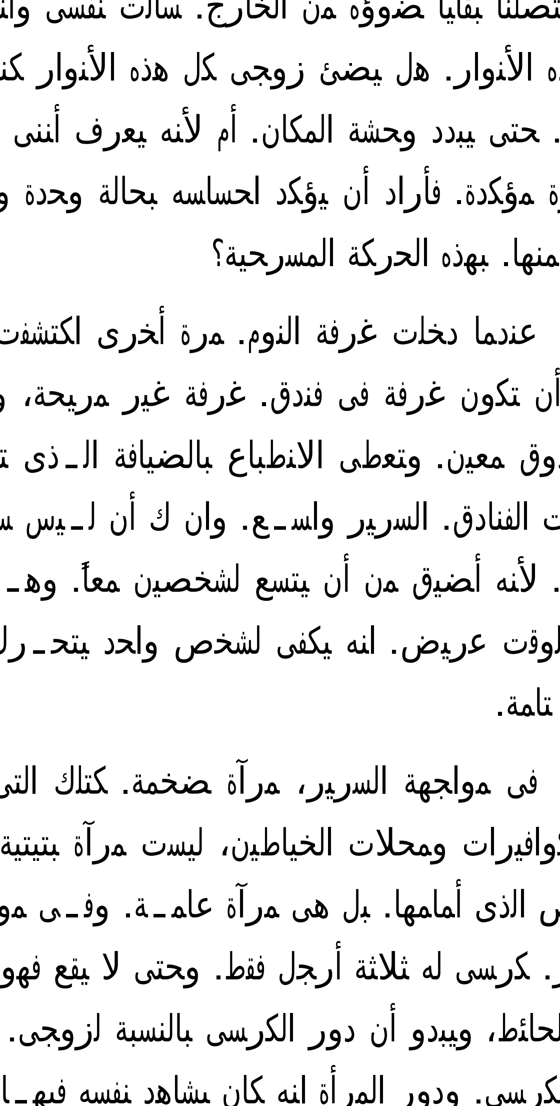
لم أعلق.

كان فى الغرفة كرسى صغير إلى جانـب السـرير، أشار زوجى للحجرة وهو يفرك يديه، وقال أنه سكن مؤقت. كما أرى. قلت ولكن لنفسى، إن كل ما فى العمر مؤقت. من قال أن هناك شيئاً دائما فى العمر كله. اشار للسـرير مـن جديد وأشار للكرسى وقال:

- أنت تجلسين على الكرسـى وأنـا أجلـس علـى السرير.

لم أعلق بكلمة واحدة. أكمل هو بعد قليل.

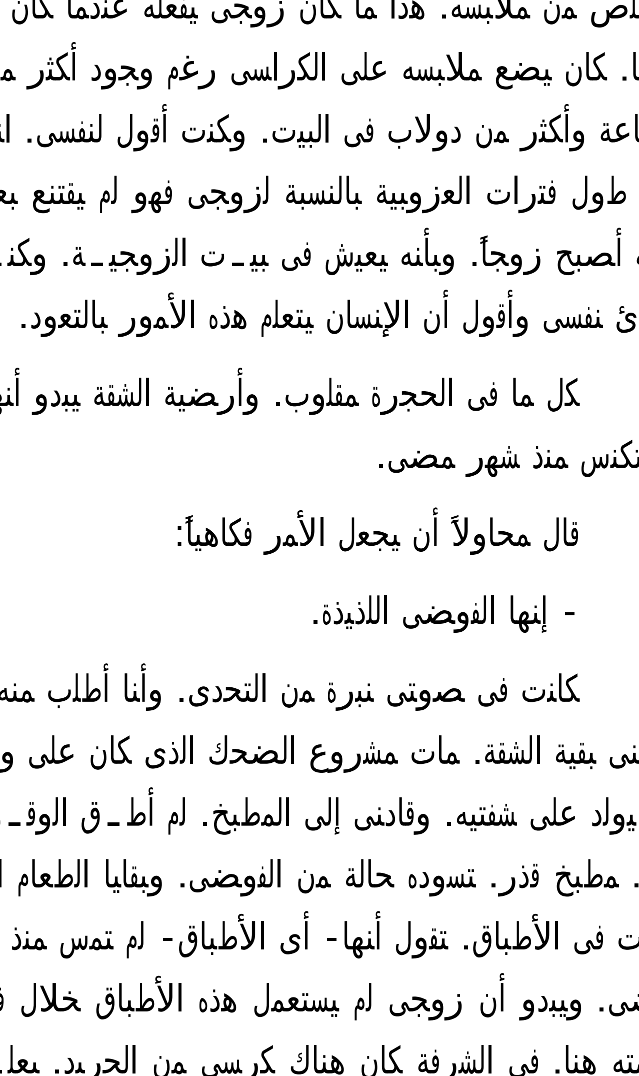
- أن تعبنا خلال الحديث. نبدل الأوضاع، فيصـبح السرير من نصيبك انت. انتقلت من مكان لآخر فـى الشـقة بسهولة. كنت أطفئ المصابيح فى الأمكنة التى أصل إليهـا. ونور الشقة كان كله مضاء رغم إننا كنا فى آخـر النهـار.



وكان تصلنا بقايا ضوؤه من الخارج. سألت نفسى وأنا أطفئ كل هذه الأنوار. هل يضئ زوجى كل هذه الأنوار كنوع من الونس. حتى يبدد وحشة المكان. أم لأنه يعرف أننى قادمـة بصورة مؤكدة. فأراد أن يؤكد احساسه بحالة وحدة وهميـة يعانى منها. بهذه الحركة المسرحية؟

عندما دخلت غرفة النوم. مرة أخرى اكتشفت أنهـا يمكن أن تكون غرفة فى فندق. غرفة غير مريحة، ولا تدل على ذوق معين. وتعطى الانطباع بالضيافة الـذى تعطيـه حجرات الفنادق. السرير واسـع. وان ك أن لـيس سـريراً زوجياً. لأنه أضيق من أن يتسع لشخصين معاً. وهـو فـى نفس الوقت عريض. انه يكفى لشخص واحد يتحـرك فيـه بحرية تامة.

فى مواجهة السرير، مرآة ضخمة. كتلك التى نراها فى الكوافيرات ومحلات الخياطين، ليست مرآة بتيتية تعكس الشخص الذى أمامها. بل هى مرآة عامـة. وفـى مواجهـة السرير. كرسى له ثلاثة أرجل فقط. وحتى لا يقع فهو مسنود على الحائط، ويبدو أن دور الكرسى بالنسبة لزوجى. يضعها فوق الكرسى. ودور المرأة انه كان يشاهد نفسه فيهـا وهـو



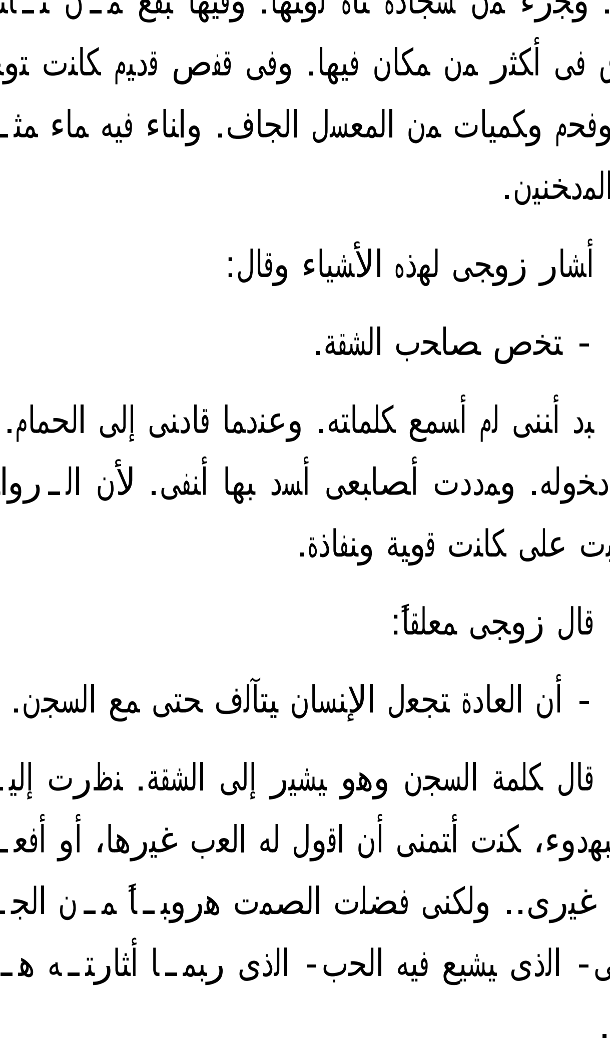
يتخلص من ملابسه. هذا ما كان زوجى يفعله عندما كان فى بيتنا. كان يضع ملابسه على الكراسى رغم وجود أكثر من شماعة وأكثر من دولاب فى البيت. وكنت أقول لنفسى. انه من طول فترات العزوبية بالنسبة لزوجى فهو لم يقتنع بعد بأنه أصبح زوجاً. وبأنه يعيش فى بيت الزوجية. وكنت أهدئ نفسى وأقول أن الإنسان يتعلم هذه الأمور بالتعود.

كل ما فى الحجرة مقلوب. وأرضية الشقة يبدو أنها لم تكنس منذ شهر مضى.

قال محاولاً أن يجعل الأمر فكاهياً:

- إنها الفوضى اللذيذة.

كانت فى صوتى نبرة من التحدى. وأنا أطلب منه أن يرينى بقية الشقة. مات مشروع الضحك الذى كان على وشك أن يولد على شفتيه. وقادنى إلى المطبخ. لم أطق الوقوف فيه. مطبخ قذر. تسوده حالة من الفوضى. وبقايا الطعام التى كانت فى الأطباق. تقول أنها- أى الأطباق- لم تمس منذ عام مضى. ويبدو أن زوجى لم يستعمل هذه الأطباق خلال فترة إقامته هنا. فى الشرفة كان هناك كرسى من الجريد. يعلوه



التراب. وجزء من سجادة تاه لونها. وفيها بقع مـن تـأثير الحروق فى أكثر من مكان فيها. وفى قفص قديم كانت توجد جوزة وفحم وكميات من المعسل الجاف. واناء فيه ماء مثـل أسنان المدخنين.

أشار زوجى لهذه الأشياء وقال:

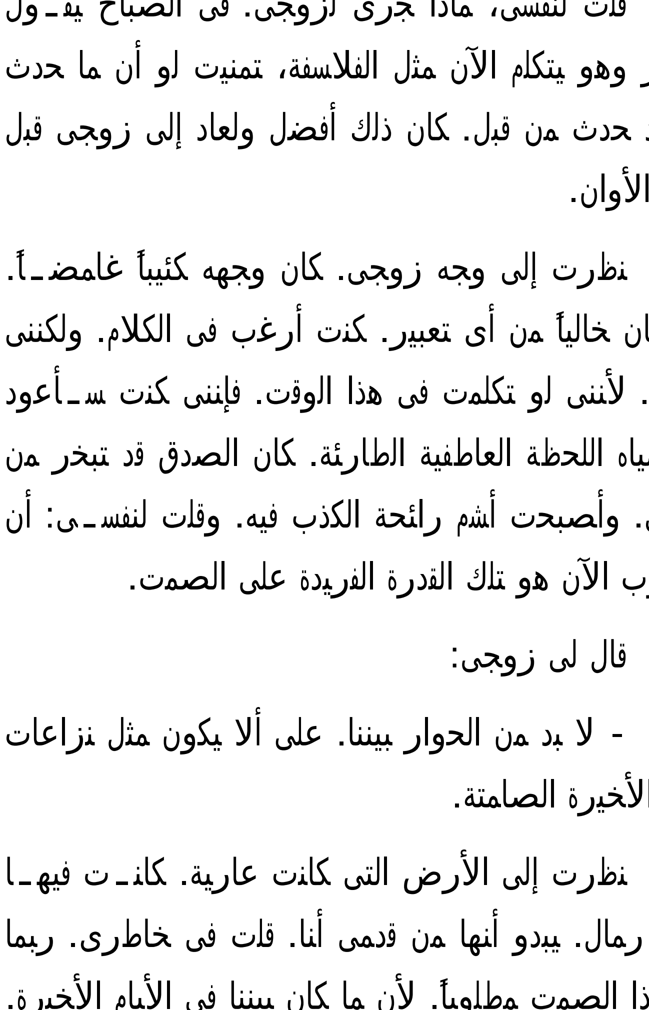
- تخص صاحب الشقة.

بد أننى لم أسمع كلماته. وعندما قادنى إلى الحمام. لم أطق دخوله. ومددت أصابعى أسد بها أنفى. لأن الـروائح التى هبت على كانت قوية ونفاذة.

قال زوجى معلقاً:

- أن العادة تجعل الإنسان يتآلف حتى مع السجن.

قال كلمة السجن وهو يشير إلى الشقة. نظرت إليـه جيداً وبهدوء، كنت أتمنى أن اقول له العب غيرها، أو أفعـل هذا مع غيرى.. ولكنى فضلت الصمت هروبـاً مـن الجـو الإنسانى- الذى يشيع فيه الحب- الذى ربمـا أثارتـه هـذه الكمات.



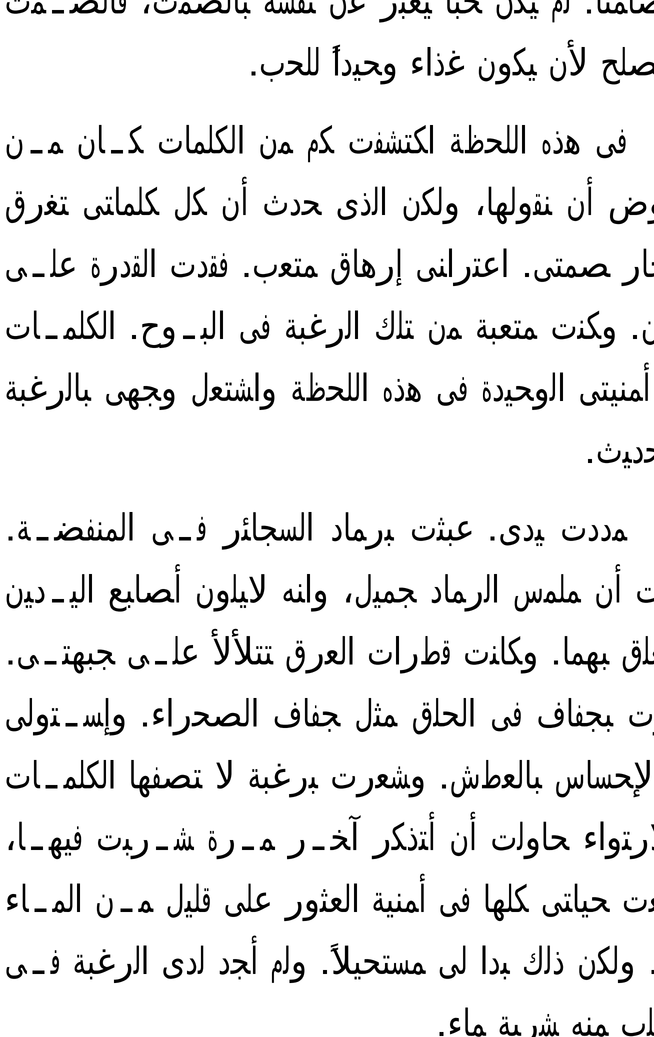
قلت لنفسى، ماذا جرى لزوجى. فى الصباح يقـول الشاعر وهو يتكلم الآن مثل الفلاسفة، تمنيت لو أن ما حدث كان قد حدث من قبل. كان ذلك أفضل ولعاد إلى زوجى قبل فوات الأوان.

نظرت إلى وجه زوجى. كان وجهه كئيباً غامضـاً. وان كان خالياً من أى تعبير. كنت أرغب فى الكلام. ولكننى صمت. لأننى لو تكلمت فى هذا الوقت. فإننى كنت سـأعود على مياه اللحظة العاطفية الطارئة. كان الصدق قد تبخر من صوتى. وأصبحت أشم رائحة الكذب فيه. وقلت لنفسـى: أن المطلوب الآن هو تلك القدرة الفريدة على الصمت.

قال لى زوجى:

- لا بد من الحوار بيننا. على ألا يكون مثل نزاعات أيامنا الأخيرة الصامتة.

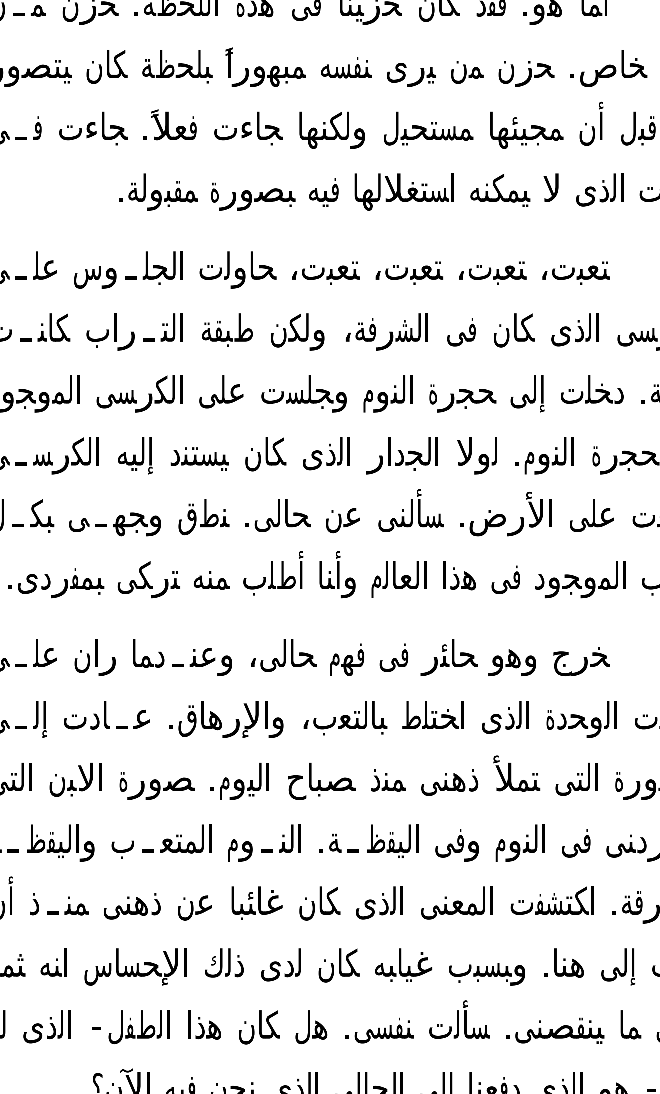
نظرت إلى الأرض التى كانت عارية. كانـت فيهـا ذرات رمال. يبدو أنها من قدمى أنا. قلت فى خاطرى. ربما كان هذا الصمت مطلوباً. لأن ما كان بيننا فى الأيام الأخيرة.



كان صامتاً. لم يكن حباً يعبر عن نفسه بالصمت، فالصـمت قد لايصلح لأن يكون غذاء وحيداً للحب.

فى هذه اللحظة اكتشفت كم من الكلمات كـان مـن المفروض أن نقولها، ولكن الذى حدث أن كل كلماتى تغرق فى بحار صمتى. اعترانى إرهاق متعب. فقدت القدرة علـى الكتمان. وكنت متعبة من تلك الرغبة فى البـوح. الكلمـات كانت أمنيتى الوحيدة فى هذه اللحظة واشتعل وجهى بالرغبة فى الحديث.

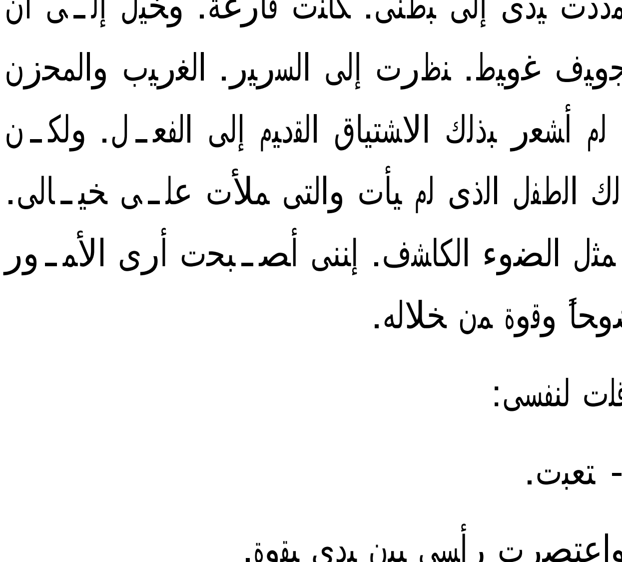
مددت يدى. عبثت برماد السجائر فـى المنفضـة. اكتشفت أن ملمس الرماد جميل، وانه لايلون أصابع اليـدين ولا يعلق بهما. وكانت قطرات العرق تتلألأ علـى جبهتـى. وشعرت بجفاف فى الحلق مثل جفاف الصحراء. وإسـتولى على الإحساس بالعطش. وشعرت برغبة لا تصفها الكلمـات فى الارتواء حاولت أن أتذكر آخـر مـرة شـربت فيهـا، وتجمعت حياتى كلها فى أمنية العثور على قليل مـن المـاء البارد. ولكن ذلك بدا لى مستحيلاً. ولم أجد لدى الرغبة فـى أن أطلب منه شربة ماء.



أما هو. فقد كان حزيناً فى هذه اللحظة. حزن من نوع خاص. حزن من يرى نفسه مبهوراً بلحظة كان يتصور من قبل أن مجيئها مستحيل ولكنها جاءت فعلاً. جاءت فى الوقت الذى لا يمكنه استغلالها فيه بصورة مقبولة.

تعبت، تعبت، تعبت، تعبت، حاولت الجلوس على الكرسى الذى كان فى الشرفة، ولكن طبقة التراب كانت كثيفة. دخلت إلى حجرة النوم وجلست على الكرسى الموجود فى حجرة النوم. لولا الجدار الذى كان يستند إليه الكرسي لوقعت على الأرض. سألنى عن حالى. نطق وجهى بكل التعب الموجود فى هذا العالم وأنا أطلب منه تركى بمفردى.

خرج وهو حائر فى فهم حالى، وعندما ران على صمت الوحدة الذى اختلط بالتعب، والإرهاق. عادت إلى الصورة التى تملأ ذهنى منذ صباح اليوم. صورة الابن التى تطاردنى فى النوم وفى اليقظة. النوم المتعب واليقظة الحارقة. اكتشفت المعنى الذى كان غائبا عن ذهنى منذ أن جئت إلى هنا. وبسبب غيابه كان لدى ذلك الإحساس انه ثمة شئى ما ينقصنى. سألت نفسى. هل كان هذا الطفل- الذى لم يأت- هو الذى دفعنا إلى الحالى الذى نحن فيه الآن؟



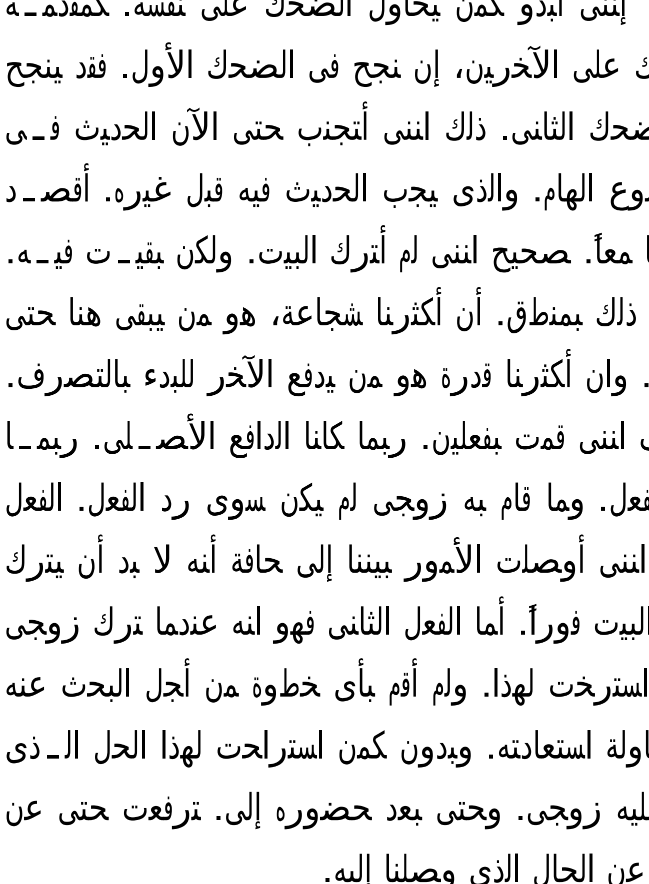
مددت يدى إلى بطنى. كانت فارغة. وخيل إلى أن مكانها تجويف غويط. نظرت إلى السرير. الغريب والمحزن معاً أننى لم أشعر بذلك الاشتياق القديم إلى الفعل. ولكن صورة ذلك الطفل الذى لم يأت والتى ملأت على خيالى. أصبحت مثل الضوء الكاشف. إننى أصبحت أرى الأمور أكثر وضوحاً وقوة من خلاله.

قلت لنفسى:

- تعبت.

واعتصرت رأسى بين يدى بقوة.

ثلاث طرق لبدء الكلام



إننى أبدو كمن يحاول الضحك على نفسه. كمقدمـة للضحك على الآخرين، إن نجح فى الضحك الأول. فقد ينجح فى الضحك الثانى. ذلك اننى أتجنب حتى الآن الحديث فـى الموضوع الهام. والذى يجب الحديث فيه قبل غيره. أقصـد حكايتنا معاً. صحيح اننى لم أترك البيت. ولكن بقيـت فيـه. وقد تم ذلك بمنطق. أن أكثرنا شجاعة، هو من يبقى هنا حتى النهاية. وان أكثرنا قدرة هو من يدفع الآخر للبدء بالتصرف. أعترف اننى قمت بفعلين. ربما كانا الدافع الأصـلى. ربمـا كانا الفعل. وما قام به زوجى لم يكن سوى رد الفعل. الفعل الأول اننى أوصلت الأمور بيننا إلى حافة أنه لا بد أن يترك أحدنا البيت فوراً. أما الفعل الثانى فهو انه عندما ترك زوجى البيت استرخت لهذا. ولم أقم بأى خطوة من أجل البحث عنه أو محاولة استعادته. وبدون كمن استراحت لهذا الحل الـذى أقدم عليه زوجى. وحتى بعد حضوره إلى. ترفعت حتى عن سؤاله عن الحال الذى وصلنا إليه.

قمت بزيارته فى شقته. دخلت. وقبل أى كلام سألته:

- ماذا تريد؟

رد على الفور

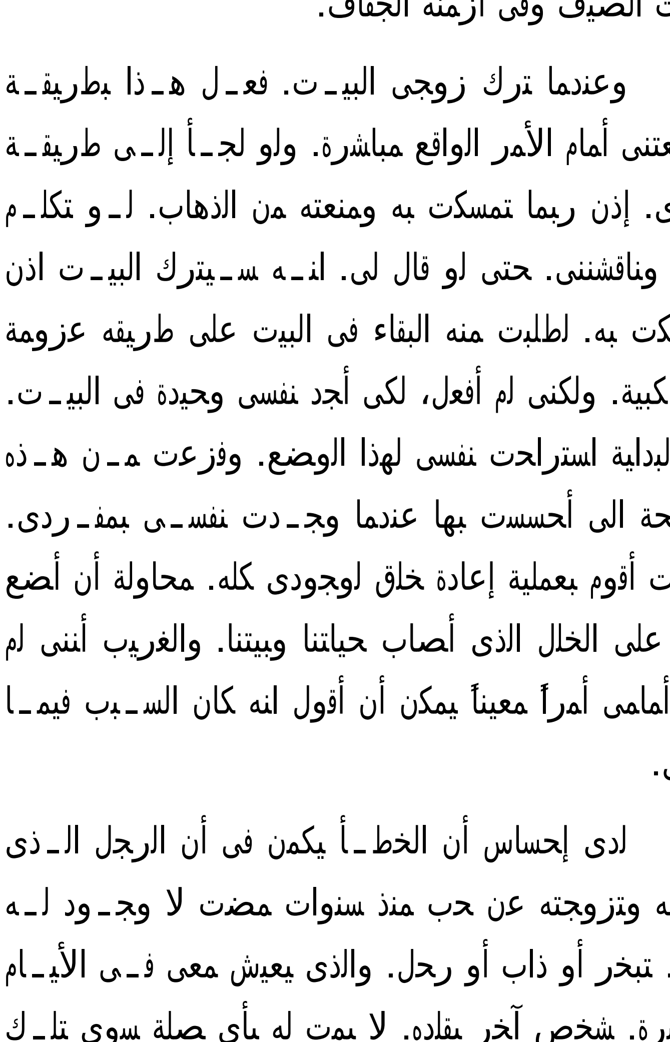
- لا شئ

نطق لسانه بالكلمة. وان كانت ملامـح وجهـه قـد أعلنت عن كذبه وكان من المفروض على فى مواجهة كذبـه أن أقول الصدق. ولكنى لم أفعل. قال لى مرة أخرى. أنه لا يريد منى أى شئ. وان كانت حركات وجهـه، قـد أكـدت لى.أنه يريد منى كل شئ دفعة واحدة. وإن كلمـة لا شـئ. كانت مجرد محاولة لطلاء كل ما يريده منى بالكذب. الكذب على نفسه، قبل الكذب على.

- لا شئ.

قالها للمرة الثالثة. مع أنه كان يريد كل شئ.

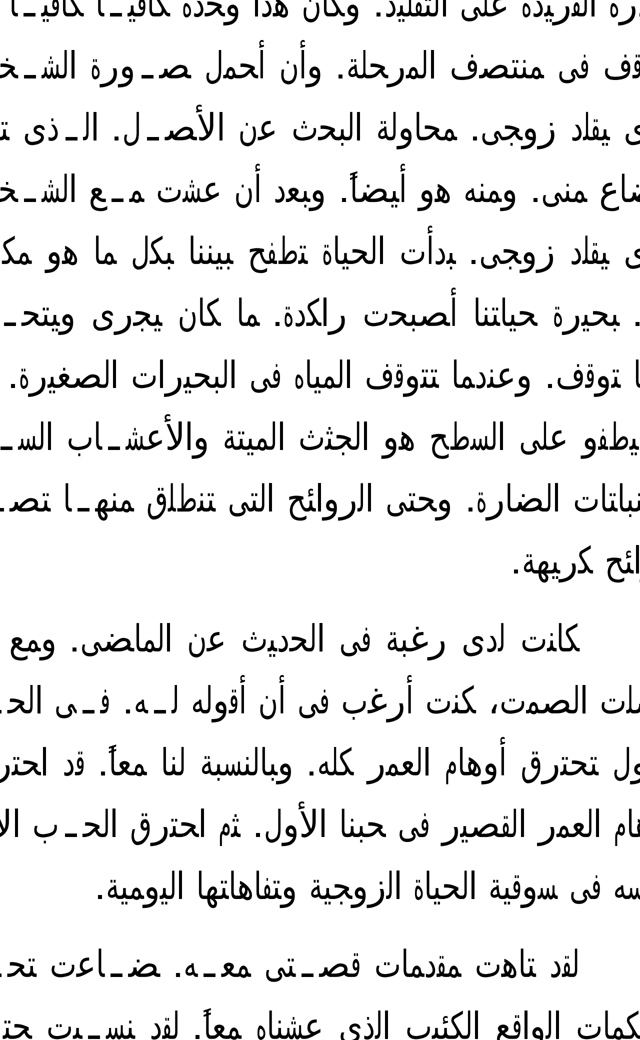
عندما زارنى، تمنيت لو سألته عن حكاية الفـراق. ولكنى خفت أن يفتح السؤال الباب أمام الضـعف الإنسـانى الذى أخشاه. فأنا من ذلك النوع من الناس، الذى يحمل قلبـه على يديه. وعواطفه جاهزة والدموع مترقرقـة فـى مـآقى



العيون دائماً، مستعدة للنزول على شكل المطر حتى فى أوقات الصيف وفى أزمنة الجفاف.

وعندما ترك زوجى البيت. فعل هذا بطريقة وضعتنى أمام الأمر الواقع مباشرة. ولو لجأ إلى طريقة أخرى. إذن ربما تمسكت به ومنعته من الذهاب. لو تكلم معى وناقشننى. حتى لو قال لى. انه سيترك البيت اذن لتمسكت به. لطلبت منه البقاء فى البيت على طريقه عزومة المراكبية. ولكننى لم أفعل، لكى أجد نفسى وحيدة فى البيت. فى البداية استراحت نفسى لهذا الوضع. وفزعت من هذه الرائحة الى أحسست بها عندما وجدت نفسى بمفردى. وعدت أقوم بعملية إعادة خلق لوجودى كله. محاولة أن أضع يدى على الخلل الذى أصاب حياتنا وبيتنا. والغريب أننى لم أجد أمامى أمراً معيناً يمكن أن أقول انه كان السبب فيما جرى.

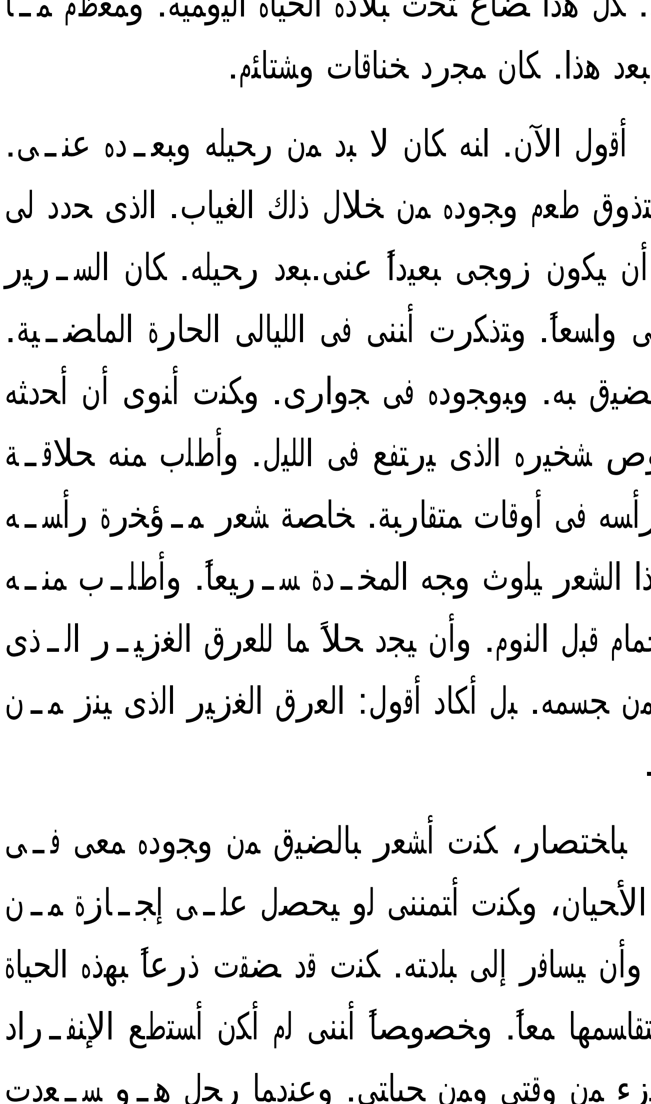
لدى إحساس أن الخطأ يكمن فى أن الرجل الذى أحببته وتزوجته عن حب منذ سنوات مضت لا وجود له الآن. تبخر أو ذاب أو رحل. والذى يعيش معى فى الأيام الأخيرة. شخص آخر يقلده. لا يمت له بأى صلة سوى تلك



القدرة الفريدة على التقليد. وكان هذا وحده كافيـاً كافيـاً لأن أتوقف فى منتصف المرحلة. وأن أحمل صـورة الشـخص الذى يقلد زوجى. محاولة البحث عن الأصـل. الـذى تـاه وضاع منى. ومنه هو أيضاً. وبعد أن عشت مـع الشـخص الذى يقلد زوجى. بدأت الحياة تطفح بيننا بكل ما هو مكروه منا. بحيرة حياتنا أصبحت راكدة. ما كان يجرى ويتحـرك فيها توقف. وعندما تتوقف المياه فى البحيرات الصغيرة. فإن ما يطفو على السطح هو الجثث الميتة والأعشـاب السـامة والنباتات الضارة. وحتى الروائح التى تنطلق منهـا تصـبح روائح كريهة.

كانت لدى رغبة فى الحديث عن الماضى. ومع هذا فضلت الصمت، كنت أرغب فى أن أقوله لـه. فـى الحـب الأول تحترق أوهام العمر كله. وبالنسبة لنا معاً. قد احترقت أوهام العمر القصير فى حبنا الأول. ثم احترق الحـب الأول نفسه فى سوقية الحياة الزوجية وتفاهاتها اليومية.

لقد تاهت مقدمات قصـتى معـه. ضـاعت تحـت تراكمات الواقع الكئيب الذى عشناه معاً. لقد نسـيت حتـى عذوبة الكلمات الأولى، ورعشة القلب، وقشعريرة اللمسـات



الأولى. كل هذا ضاع تحت بلادة الحياة اليومية. ومعظم ما جرى بعد هذا. كان مجرد خناقات وشتائم.

أقول الآن. انه كان لا بد من رحيله وبعده عنى. حتى أتذوق طعم وجوده من خلال ذلك الغياب. الذى حدد لى معنى أن يكون زوجى بعيداً عنى.بعد رحيله. كان السرير يبدو لى واسعاً. وتذكرت أننى فى الليالى الحارة الماضية. كنت أضيق به. وبوجوده فى جوارى. وكنت أنوى أن أحدثه بخصوص شخيره الذى يرتفع فى الليل. وأطلب منه حلاقة شعر رأسه فى أوقات متقاربة. خاصة شعر مؤخرة رأسه لأن هذا الشعر يلوث وجه المخدة سريعاً. وأطلب منه الاستحمام قبل النوم. وأن يجد حلاً ما للعرق الغزير الذى ينزل من جسمه. بل أكاد أقول: العرق الغزير الذى ينز من جسمه.

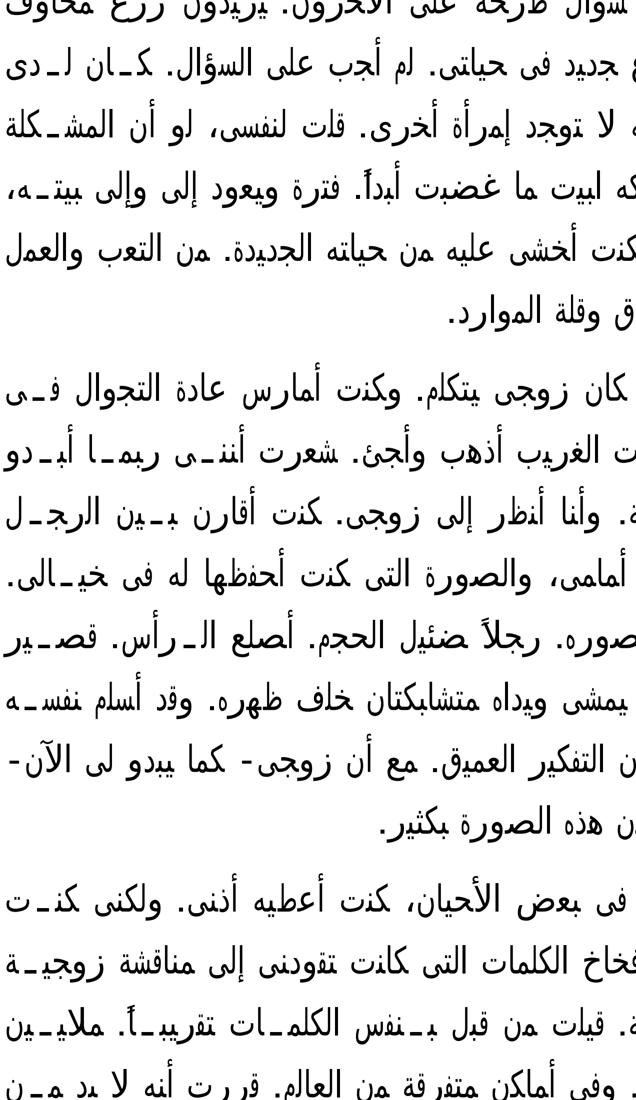
باختصار، كنت أشعر بالضيق من وجوده معى فى بعض الأحيان، وكنت أتمننى لو يحصل على إجازة من عمله، وأن يسافر إلى بلدته. كنت قد ضقت ذرعاً بهذه الحياة التى نتقاسمها معاً. وخصوصاً أننى لم أكن أستطع الإنفراد بأى جزء من وقتى ومن حياتى. وعندما رحل هو سعدت

قلت لنفسى، أن الأيام القادمة سيكون لها طعم مختلـف. لـم أجربه من قبل. ولكنى لا أستطيع الحديث عن بدء الإحساس بالفراغ الذى تركه. وأفزع عندما اكتشف مدى شوقى لكـل الأشياء التى لم أكن أحبها فيه. بدت لى أشياء جميلـة. مـن الصعب الحديث عن مدى جمالها. كان شوقى لها حقيقياً.

جمع أشياءه ومضى، لم أكن فى البيت وقتهـا. وان كنت- بعد أن تأكدت من رحيله- أتخيل وقع اقدامـه علـى أرضية الشقة. وسمعت ألف مرة. بأذن الخيال، صوت بـاب الشقة يفتح بعصبية. ثم يغلق من جديد بنفس العصبية.

أصبحت امرأة وحيدة. ضائعة ومهجـورة. فقـدت الرغبة حتى فى القيام من الفراش. ثم أوشكت أن أفقد القدرة على الحركة. تخلى عنى جسمى كله. وأصبحت امرأة متثاقلة كئيبة. وفى كل يوم، كنت أنفض الغبار عن بيتنـا. وأفـتح النوافذ والأنوار حتى يدخل الهواء، وأحياناً أقف حتى تـدخل الشمس. تماماً. مثلما كنت أفعل وهو معى.

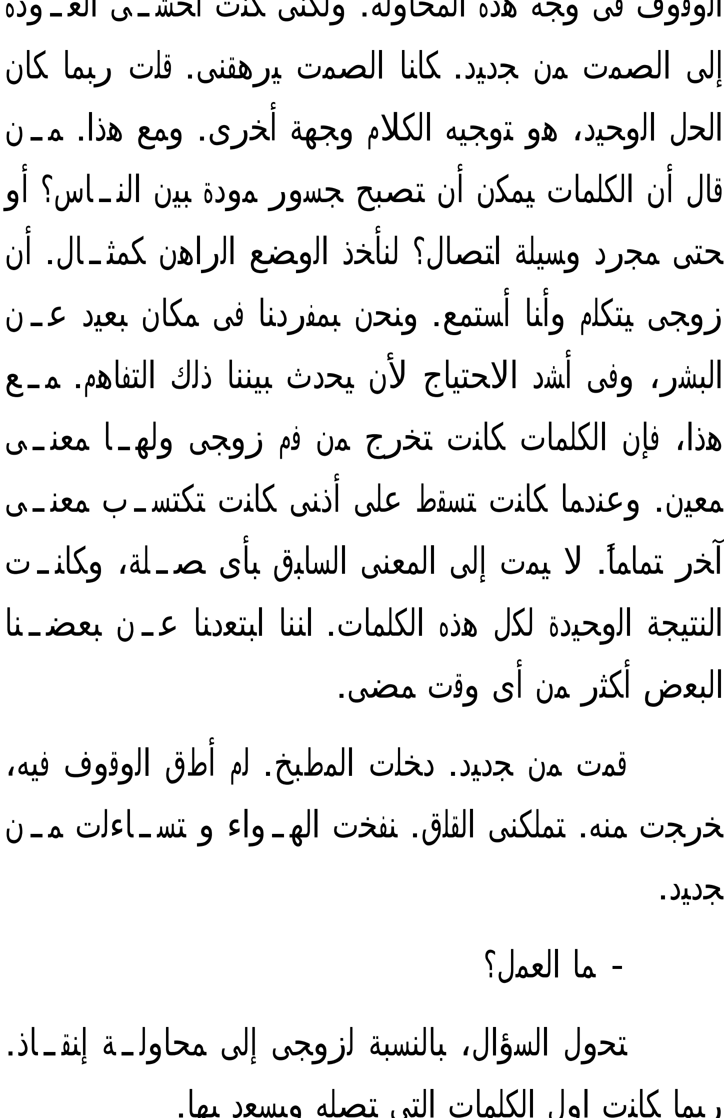
- هل هناك إمرأة أخرى؟



سؤال طرحه على الآخرون. يريدون زرع مخاوف من نوع جديد فى حياتى. لم أجب على السؤال. كـان لـدى يقين أنه لا توجد إمرأة أخرى. قلت لنفسى، لو أن المشـكلة هى تركه ابيت ما غضبت أبداً. فترة ويعود إلى وإلى بيتـه، ولكنى كنت أخشى عليه من حياته الجديدة. من التعب والعمل والإرهاق وقلة الموارد.

كان زوجى يتكلم. وكنت أمارس عادة التجوال فـى هذا البيت الغريب أذهب وأجئ. شعرت أننـى ربمـا أبـدو مضحكة. وأنا أنظر إلى زوجى. كنت أقارن بـين الرجـل الجالس أمامى، والصورة التى كنت أحفظها له فى خيـالى. كنت أتصوره. رجلاً ضئيل الحجم. أصلع الـرأس. قصـير الساقين يمشى ويداه متشابكتان خلف ظهره. وقد أسلم نفسـه لحالة من التفكير العميق. مع أن زوجى- كما يبدو لى الآن- أجمل من هذه الصورة بكثير.

فى بعض الأحيان، كنت أعطيه أذنى. ولكنى كنـت أخشى فخاخ الكلمات التى كانت تقودنى إلى مناقشة زوجيـة مستهلكة. قيلت من قبل بـنفس الكلمـات تقريبـاً. ملايـين المرات. وفى أماكن متفرقة من العالم. قررت أنه لا بد مـن



الوقوف فى وجه هذه المحاولة. ولكنى كنت أخشـى العـودة إلى الصمت من جديد. كانا الصمت يرهقنى. قلت ربما كان الحل الوحيد، هو توجيه الكلام وجهة أخرى. ومع هذا. مـن قال أن الكلمات يمكن أن تصبح جسور مودة بين النـاس؟ أو حتى مجرد وسيلة اتصال؟ لنأخذ الوضع الراهن كمثـال. أن زوجى يتكلم وأنا أستمع. ونحن بمفردنا فى مكان بعيد عـن البشر، وفى أشد الاحتياج لأن يحدث بيننا ذلك التفاهم. مـع هذا، فإن الكلمات كانت تخرج من فم زوجى ولهـا معنـى معين. وعندما كانت تسقط على أذنى كانت تكتسـب معنـى آخر تماماً. لا يمت إلى المعنى السابق بأى صـلة، وكانـت النتيجة الوحيدة لكل هذه الكلمات. اننا ابتعدنا عـن بعضـنا البعض أكثر من أى وقت مضى.

قمت من جديد. دخلت المطبخ. لم أطق الوقوف فيه، خرجت منه. تملكنى القلق. نفخت الهـواء و تسـاءلت مـن جديد.

- ما العمل؟

تحول السؤال، بالنسبة لزوجى إلى محاولـة إنقـاذ. ربما كانت اول الكلمات التى تصله ويسعد بها.

قال بفرح:

- هذا السؤال هو البداية.

فكرت أن أقول له. اننى لا أقصـد المعنـى الـذى وصله. ولكنى تصورت أن الصمت ربما كان أفضل. وفـى هذه اللحظة حاصرنى المشهد الذى أحلم به فى كل ليلة. ابنى الذى لم يأت. وابنتى التى ستكون شقيقته والابنان لـم يأتيـا بإرادتنا نحن. زوجى تكلم كثيراً عن متاعب الحيـاة. أجـرة الحضانة ومصاريف المدرسـة. قـال أن عودنـا أخضـر وامكانياتنا لا تسمح بذلك. وأن تأجيل مجئ الطفل. ومجـئ أخت الطفل. حتى تتحسن الأحوال. ربما كان أفضل. كـان يتكلم عن امكانية السفر إلى دولة عربية. يسافر أولاً بمفرده. وبعد أن يهيئ الظروف المناسبة. يرسل لى. أذهـب إليـه. حيث نبقى هناك معاً. أربع سنوات. وعندما سألته عن سـر هذا الرقم. قال لى أن القوانين لاتسمع بأكثر من أربع سنوات إجازة بدون مرتب. وبعد العـودة. سـتكون الظـروف قـد خرجت من عنق الزجاجة. وبمكننا انجاب الولد. ثم الفتـاة. وينطبق علينا فى هذه الحالة المثل الشعبى الذى يقول. أن من يسعده زمانه ينجب الولد والبنت.

يقول زوجى اننا نستطيع تعليمهما- الولد والبنـت- من الحضانة وحتى الجامعة. وإن الامكانيات قد تسـمح لنـا بشراء شقة للفتاة، و ايداع مبلغ من المال فى أحـد البنـوك للصبى. حتى يبدأ حياته. وستكون لدينا سيارة. وقد نسـتبدل الشقة الصغيرة بأخرى أكبر. من يدرى ربمـا كانـت فـيلا فاخرة. وقد نتمكن من شراء قطعة أرض فى قريته البعيـدة. والتى لا يستطيع الذهاب إليها لضيق ذات اليد. ويحلق حتـى السماء السابعة عندما يتكلم عن الذهاب إلى المصـيف. فـى فصل الصيف كل عام.

أصيح فيه:

- كفى تخريفاً.

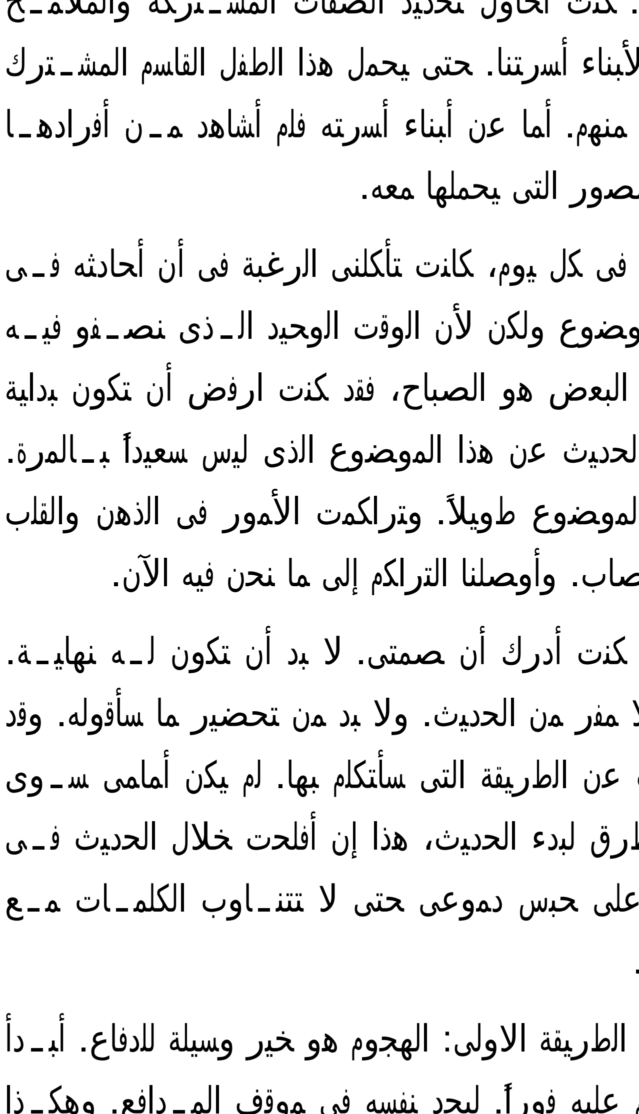
يسألنى:

- ألا تحبين الأحلام

أقول له.

- اننى أكره الهروب إلى الأوهام

- كانت تصيبنى حالة من اللوعة عند الحديث عـن الطفل. وفى الليالى الطويلة كان هـذا الطفـل يـأتينى فـى



الأحلام. كنت أحاول تحديد الصفات المشـتركة والملامـح العامة لأبناء أسرتنا. حتى يحمل هذا الطفل القاسم المشـترك الأعظم منهم. أما عن أبناء أسرته فلم أشاهد مـن أفرادهـا سوى الصور التى يحملها معه.

فى كل يوم، كانت تأكلنى الرغبة فى أن أحادثه فـى هذا الموضوع ولكن لأن الوقت الوحيد الـذى نصـفو فيـه لبعضنا البعض هو الصباح، فقد كنت ارفض أن تكون بداية اليوم بالحديث عن هذا الموضوع الذى ليس سعيداً بـالمرة. أجلت الموضوع طويلاً. وتراكمت الأمور فى الذهن والقلب و الأعصاب. وأوصلنا التراكم إلى ما نحن فيه الآن.

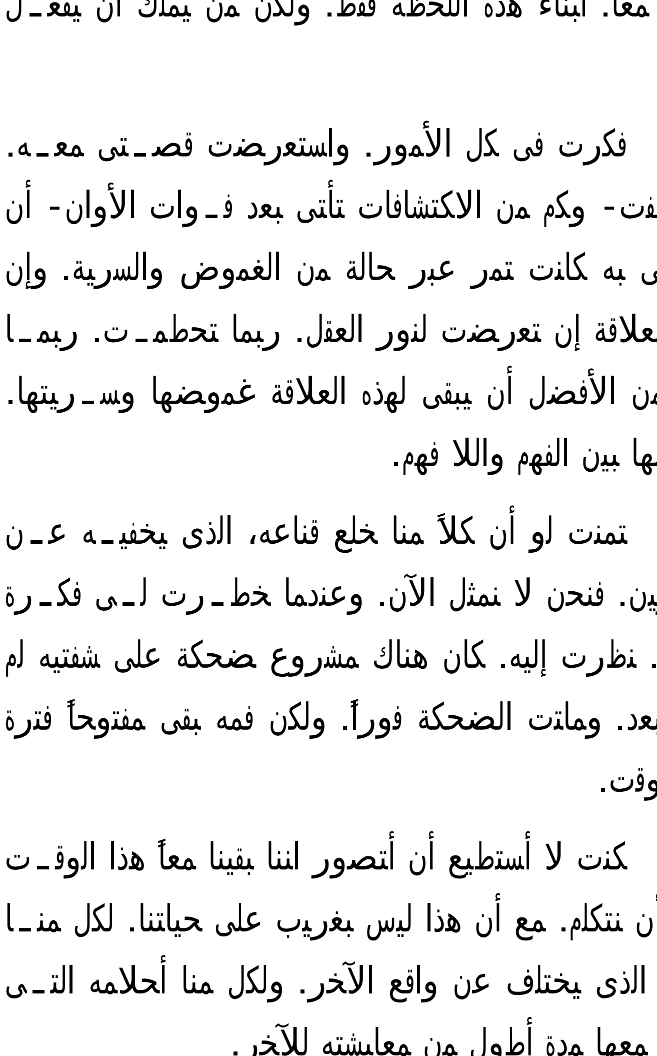
كنت أدرك أن صمتى. لا بد أن تكون لـه نهايـة. وكان لا مفر من الحديث. ولا بد من تحضير ما سأقوله. وقد تساءلت عن الطريقة التى سأتكلم بها. لم يكن أمامى سـوى ثلاث طرق لبدء الحديث، هذا إن أفلحت خلال الحديث فـى القدرة على حبس دموعى حتى لا تتنـاوب الكلمـات مـع الدموع.

الطريقة الاولى: الهجوم هو خير وسيلة للدفاع. أبـدأ بالهجوم عليه فوراً. ليجد نفسه فى موقف المـدافع. وهكـذا

أعفى نفسى من الوقوف موقف المتهم. كان طريقـة جيـدة. ولكنى لم أكن مستعدة لها من الناحية النفسية. كنت مهزومـة وحزينة من الداخل. وتلك الطريقة تتطلب جرأة. قد لا تكون موجودة لدى.

الطريقة الثانية: أن ألـف وأدور حـول الموضـوع الأساسى، دون التطرق إليه وأدفعه هو إلى الحديث. فالـذى يتكلم أولاً هو الذى يضعف أولا. وهـو الـذى يتـوه بـين التفصيلات الكثيرة. ولكن خيل إلى أن اللف والدوران حـول موضوع معين يتطلب قدراً من صفاء الذهن، قـدرة علـى ترتيب الأفكار. وهذا ما لا أستطيعه فى الحالة المرهقة التى أمر بها.

الطريقة الثالثة: أن يقترب القلب من القلب، من يمتلك الشجاعة أن يفعل هذا. فى الزمن العصيب الذى نعيش فيـه؟ أشك فى هذا. لم أكن مستعدة من الناحية النفسية. لا أستطيع أن أقول له عفا ا عما سلف. وليس أمامنا سوى البدء مـن الآن. من اللحظة التى نجلس فيها معـاً. أن نحـاول محـو الماضى بكل ما فيه حتى اللحظات السعيدة التى مـرت. وأن



نكون معاً. أبناء هذه اللحظة فقط. ولكن من يملك أن يفعـل هذا؟

فكرت فى كل الأمور. واستعرضت قصـتى معـه. واكتشفت- وكم من الاكتشافات تأتى بعد فـوات الأوان- أن علاقتى به كانت تمر عبر حالة من الغموض والسرية. وإن هذه العلاقة إن تعرضت لنور العقل. ربما تحطمـت. ربمـا كان من الأفضل أن يبقى لهذه العلاقة غموضها وسـريتها. وتذبذبها بين الفهم واللا فهم.

تمنت لو أن كلاً منا خلع قناعه، الذى يخفيـه عـن الآخرين. فنحن لا نمثل الآن. وعندما خطـرت لـى فكـرة القناع. نظرت إليه. كان هناك مشروع ضحكة على شفتيه لم يولد بعد. وماتت الضحكة فوراً. ولكن فمه بقى مفتوحاً فترة من الوقت.

كنت لا أستطيع أن أتصور اننا بقينا معاً هذا الوقـت دون أن نتكلم. مع أن هذا ليس بغريب على حياتنا. لكل منـا واقعه الذى يختلف عن واقع الآخر. ولكل منا أحلامه التـى يعيش معها مدة أطول من معايشته للآخر.

لى صديقة أحترم آراءها كثيراً. وان كنـت لا أفهـم الكثير من كلماتها قالت لى وهى تعلق على حالى مع زوجى:

- المشكلة انكما فقدتما القدرة على الحلم.

ضحكت وقلت لها:

- أى حلم. أن نومنا كله عبارة عـن جـرى فـى المسافة ما بين الأحلام والأحلام والكوابيس.

صححت لى كلامى:

- جرى فى المسافة من الكابوس إلى الكابوس

قلت لها:

- اننى أعرف حياتى أكثر قلت أنها أحلام.

طلبت منى ألا أخدع نفسى. قالت ببطء:

- لست من القادرين على الحلم. وزوجك هروبـى وصل لحد العجز عن الحلم.

تصورت أنها تهذى كعادتها. تكلم المساء. وتحـاول الانصات لصوت الرياح. وتقرأ وجه السماء.

قالت:

- عندما تغوص الناس فى بركة من الخوف علـى الغد، الخوف على لقمـة العـيش والملـبس والمواصـلات والموازنة الدائمة بين قلة الدخل وكثرة المنصـرف. تعجـز الناس فى هذه عه الحلم.

صحت فيها:

- أف أنت لاتتكلمين عنى وعن زوجى. أنت تتكلمين عن مشكلة مصر كلها.

أمسكت بى وكأنها اكتشفت اكتشافاً علميـاً. كانـت تقول:

- لقد نطقت بالمعنى الذى كنت أبحث عنه.

قالت وهى تحدث نفسها كالمجانين:

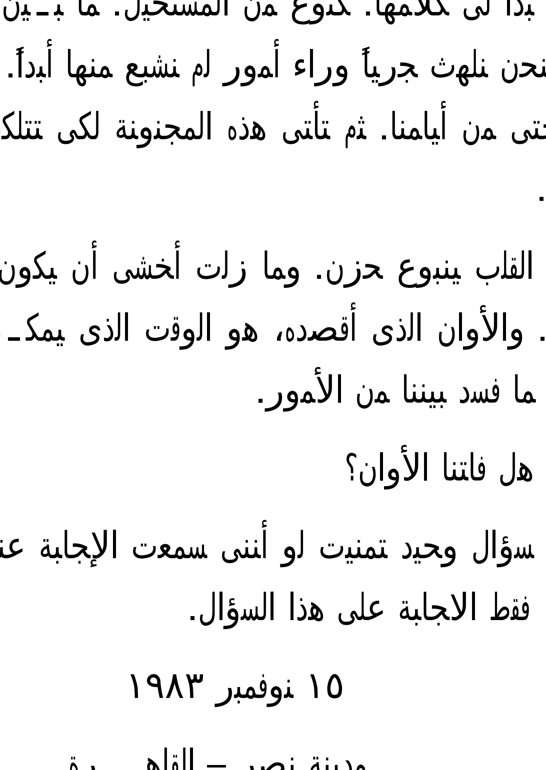
- وبدأت مشكلة الوكن عندما فقد تلك القدرة الفريدة.

سألتها ساخرة:

- ستقولين القدرة على الحلم.

أمسكت بى بقوة المتنى.

- نعم، أن فقدان القدرة على الحلم. نوع من الجحيم.



بدا لى كلامها. كنوع من المستحيل. ما بـين النـوم والنوم نحن نلهث جرياً وراء أمور لم نشبع منها أبداً. نحن لا نشبع حتى من أيامنا. ثم تأتى هذه المجنونة لكى تتلكم عـن الأحلام.

القلب ينبوع حزن. وما زلت أخشى أن يكون الأوان قد فات. والأوان الذى أقصده، هو الوقت الذى يمكـن فيـه إصلاح ما فسد بيننا من الأمور.

هل فاتنا الأوان؟

سؤال وحيد تمنيت لو أننى سمعت الإجابة عنه مـن زوجى. فقط الاجابة على هذا السؤال.

١٥ نوفمبر ١٩٨٣

مدينة نصر – القاهـرة

خد الجميل

- ١ -

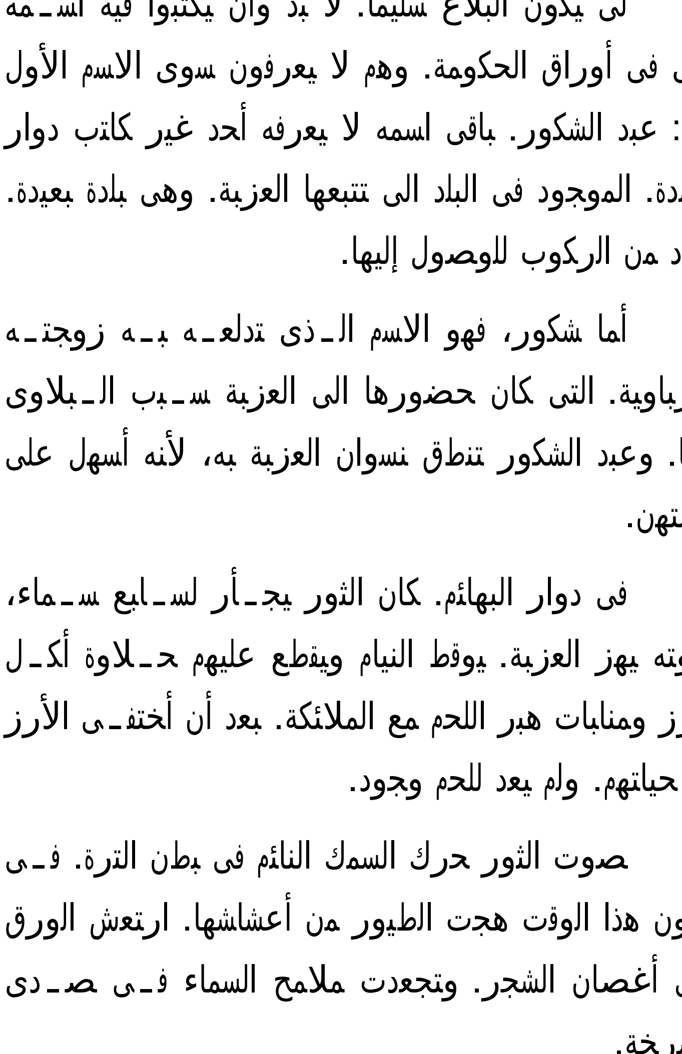
مجنون من يعمل عملة شكور. السـراية الصـفراء تصبح سكناه، طول عمره، و مستشفاه خلال مرضه. وقبـره عندما تحين ساعته. برج من عقله طار. ويبدو- وا أعلم- أن أهله خلعوا ضرس عقله من بين أسنانه عندما كان طفلاً.

هل من المعقول، أن يحضر سكيناً حامياً. ويـذهب بعد الفجر بقليل، الى دوار البهايم، ليقطـع حبـل الطاوقـة، ويمسكه بيده. ويجرى ويدور فى العزبة. والسكين فى يمناه، عليها نقطة دم وحيدة تتحرك وسط لمعان نصلها.

بيسراه حبل الطاوقة- الرذى طالما عشر به أبقـار العب كله. يشاب منه الدم. الذى تنز قطراتـه علـى هـدوم شكور حيناً، وعلى الأرض أحيانا أخرى راسمة خطا يحـدد طريقه من هلوساته الأخيرة.

قالوا، شكور إنخل. قالوا

، عبشكور اتهبل جاءت له مناخوليا فـى نافوخـه. وقرروا أن يبلغوا الحكومة حتى تأخذه فى عربية المجـانين التى تغطى نوافذها. شبيكة من الحديد.

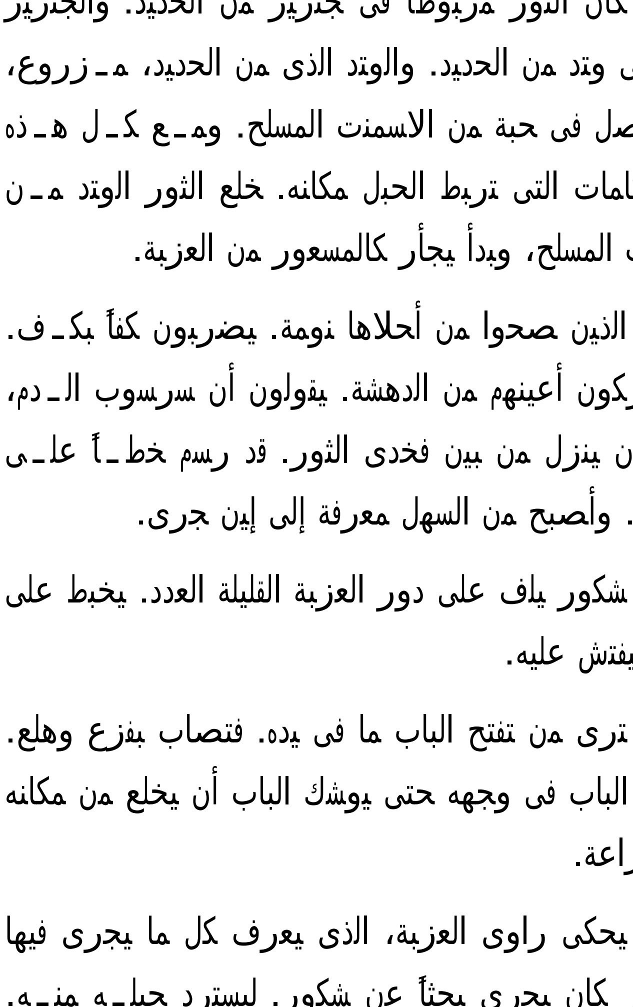


لى يكون البلاغ سليماً. لا بد وأن يكتبوا فيه اسـمه الذى فى أوراق الحكومة. وهم لا يعرفون سوى الاسم الأول فقط: عبد الشكور. باقى اسمه لا يعرفه أحد غير كاتب دوار العمدة. الموجود فى البلد الى تتبعها العزبة. وهى بلدة بعيدة. لا بد من الركوب للوصول إليها.

أما شكور، فهو الاسم الـذى تدلعـه بـه زوجتـه الغرباوية. التى كان حضورها الى العزبة سـبب الـبلاوى كلها. وعبد الشكور تنطق نسوان العزبة به، لأنه أسهل على ألسنتهن.

فى دوار البهائم. كان الثور يجـأر لسـابع سـماء، صوته يهز العزبة. يوقظ النيام ويقطع عليهم حـلاوة أكـل الأرز ومنابات هبر اللحم مع الملائكة. بعد أن أختفـى الأرز من حياتهم. ولم يعد للحم وجود.

صوت الثور حرك السمك النائم فى بطن الترة. فـى سكون هذا الوقت هجت الطيور من أعشاشها. ارتعش الورق على أغصان الشجر. وتجعدت ملامح السماء فـى صـدى الصرخة.



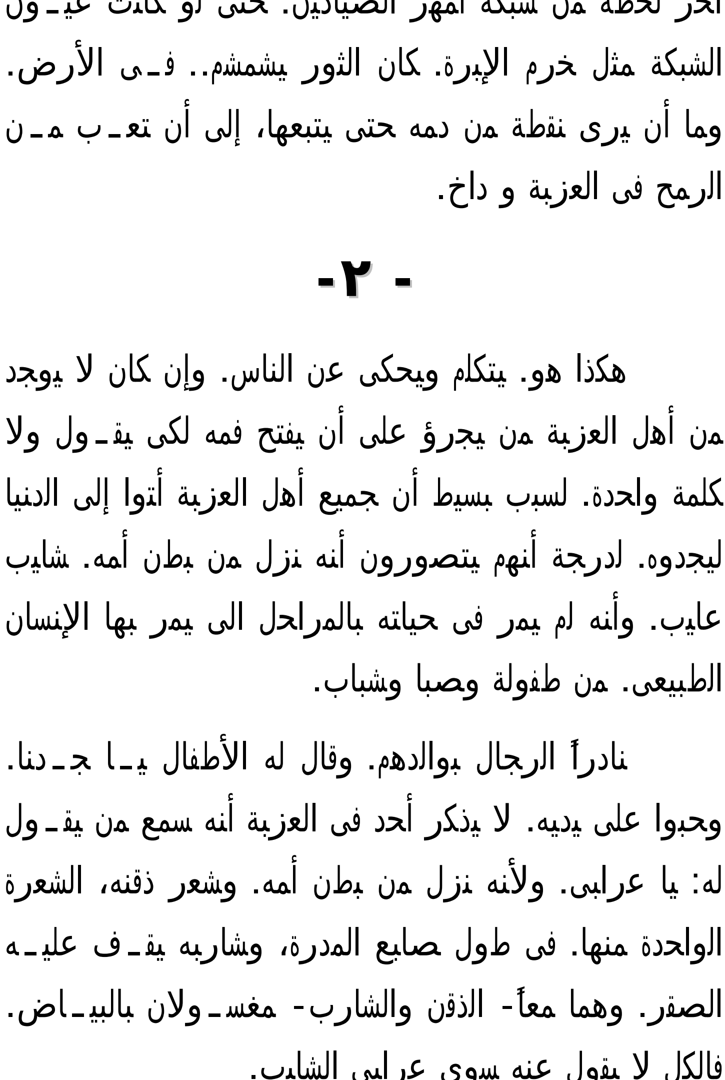
كان الثور مربوطاً فى جنزير من الحديد. والجنزير مثبت فى وتد من الحديد. والوتد الذى من الحديد، مزروع، زرع بصل فى حبة من الاسمنت المسلح. ومع كل هذه الاستحكامات التى تربط الحبل مكانه. خلع الثور الوتد من الأسمنت المسلح، وبدأ يجأر كالمسعور من العزبة.

الذين صحوا من أحلاها نومة. يضربون كفاً بكف. وهم يفركون أعينهم من الدهشة. يقولون أن سرسوب الدم، الذى كان ينزل من بين فخدى الثور. قد رسم خطأ على الأرض. وأصبح من السهل معرفة إلى إين جرى.

شكور يلف على دور العزبة القليلة العدد. يخبط على البواب يفتش عليه.

ترى من تفتح الباب ما فى يده. فتصاب بفزع وهلع. وتزرع الباب فى وجهه حتى يوشك الباب أن يخلع من مكانه من الزراعة.

يحكى راوى العزبة، الذى يعرف كل ما يجرى فيها أن الثور كان يجرى بحثاً عن شكور. ليسترد حبله منه. ولكن عبشكور هرب منه مثل القرموط عندما يفلت دائماً فى

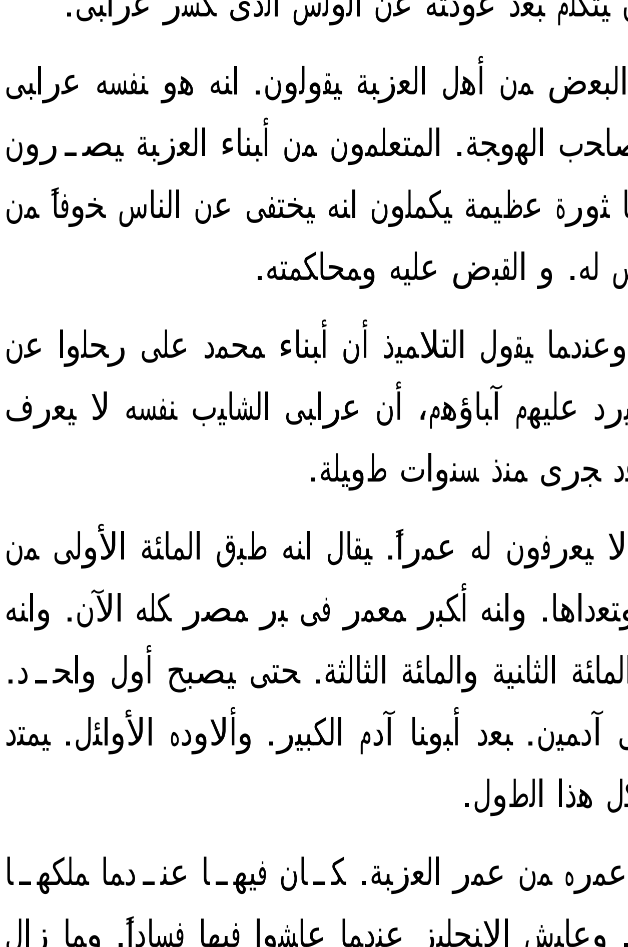


آخر لحظة من شبكة أمهر الصيادين. حتى لو كانت عيـون الشبكة مثل خرم الإبرة. كان الثور يشمشم.. فـى الأرض. وما أن يرى نقطة من دمه حتى يتبعها، إلى أن تعـب مـن الرمح فى العزبة و داخ.

- ٢ -

هكذا هو. يتكلم ويحكى عن الناس. وإن كان لا يوجد من أهل العزبة من يجرؤ على أن يفتح فمه لكى يقـول ولا كلمة واحدة. لسبب بسيط أن جميع أهل العزبة أتوا إلى الدنيا ليجدوه. لدرجة أنهم يتصورون أنه نزل من بطن أمه. شايب عايب. وأنه لم يمر فى حياته بالمراحل الى يمر بها الإنسان الطبيعى. من طفولة وصبا وشباب.

نادراً الرجال بوالدهم. وقال له الأطفال يـا جـدنا. وحبوا على يديه. لا يذكر أحد فى العزبة أنه سمع من يقـول له: يا عرابى. ولأنه نزل من بطن أمه. وشعر ذقنه، الشعرة الواحدة منها. فى طول صابع المدرة، وشاربه يقـف عليـه الصقر. وهما معاً- الذقن والشارب- مغسـولان بالبيـاض. فالكل لا يقول عنه سوى عرابى الشايب.



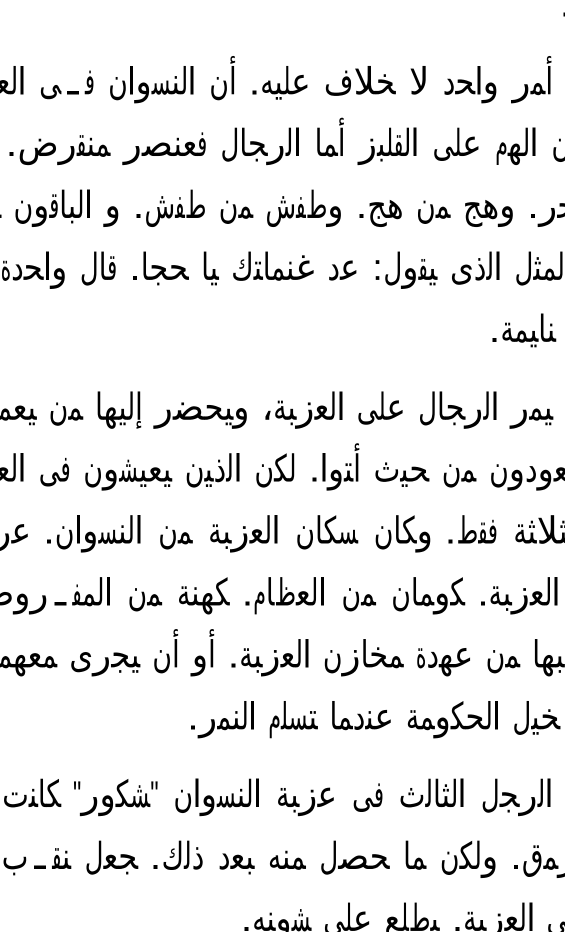
يقسم البعض أنه كان مع عرابى الكبير فى هوجتـه، وأنه كان يتكلم بعد عودته عن الولس الذى كسر عرابى.

البعض من أهل العزبة يقولون. انه هو نفسه عرابى الكبير صاحب الهوجة. المتعلمون من أبناء العزبة يصـرون على أنها ثورة عظيمة يكملون انه يختفى عن الناس خوفاً من لوم الناس له. و القبض عليه ومحاكمته.

وعندما يقول التلاميذ أن أبناء محمد على رحلوا عن مصر، يرد عليهم آباؤهم، أن عرابى الشايب نفسه لا يعرف أن هذا قد جرى منذ سنوات طويلة.

لا يعرفون له عمراً. يقال انه طبق المائة الأولى من عمره، وتعداها. وانه أكبر معمر فى بر مصر كله الآن. وانه سيكمل المائة الثانية والمائة الثالثة. حتى يصبح أول واحـد. من البنى آدمين. بعد أبونا آدم الكبير. وألاوده الأوائل. يمتد عمره بكل هذا الطول.

عمره من عمر العزبة. كـان فيهـا عنـدما ملكهـا التراكوة. وعايش الانجليز عندما عاشوا فيها فساداً. وما زال



يرطن ببعض من كلماتهم ولم يترك العزبـة وهـى تغيـر مالكيها.

أمر واحد لا خلاف عليه. أن النسوان فـى العزبـة أكثر من الهم على القلبز أما الرجال فعنصر منقرض. هاجر من هاجر. وهج من هج. وطفش من طفش. و الباقون ينطبق عليهم المثل الذى يقول: عد غنماتك يا حجا. قال واحدة واقفة والثانية نايمة.

يمر الرجال على العزبة، ويحضر إليها من يعملـون فيها ويعودون من حيث أتوا. لكن الذين يعيشون فى العزبـة رجال ثلاثة فقط. وكان سكان العزبة من النسوان. عرابـى وناظر العزبة. كومان من العظام. كهنة من المفـروض أن يتم شطبها من عهدة مخازن العزبة. أو أن يجرى معهما مـا يتم من خيل الحكومة عندما تسلم النمر.

الرجل الثالث فى عزبة النسوان "شكور" كانت فيـه شوية رمق. ولكن ما حصل منه بعد ذلك. جعل نقـب كـل امرأة فى العزبة. يطلع على شونه.

- ٣ -

وحكاية العزبة، هى نفسها حكاية اصحابها.

وإن كان اسمها الآن عزبة الستات. فقد تغير هذا الاسم أكثر من مرة. وقصة البنات السبع، اللائى يسكن الشكمة أو السراية الوحيدة فى العزبة، تستحق أن تروى. وهى ليست بعيدة عن موال شكور والطاوقة.

والسبع بنات، ولدن مرة واحدة. كانت ولادة عسرة. جاءت الداية وهى نفسها أم عبشكور ولدت كل نسوان العزبة. وكانت تقول مع كل ولادة، أنها مستنظرة، اليوم الذى تولد فيه مرات ابنها عبشكور.

قالت ذلك، حتى عندما كان شكور قطعة حمراء من اللحم فى اللفة. ولكنها - يشاء الحليم العليم - أن تولد بيديها. كل نسوان العزبة. ما عدا مرات ابنها شكور. وعندما جاءت ساعتها أوصته بأنه عندما يفرجها من لا يغفل ولا ينام. عليه أن يحضر داية من الضهرية. حددتها له بالاسم والكسم، والداية موجودة من يومها. ولكنه لم يذهب إليها أبداً. إنها القسمة والنصيب.

نعود إلى البنات السبع. كان المولـود الأول بنتـاً. سلمتها ام عبشكور الداية للواقفة بجوارهـا. وهـى تبسـمل وتقول: ا   واحد. بلغ الأب الذى كان واقفـاً فـى انتظـار البشرى غضبه، وحاول أن يبعد عن ذهنه أسماء الأولاد التى كان قد حضرها. واستعد بها. ليختار من بينها إسماً.

وعندما اكتشفت أن الأسماء قد عششت فى تلافيـف مخه. حاول أن يونثها. وقبل أن يرسى على الاسم قالوا لـه أن الوجع مازال مستمراً. وتشابك صراخ الألـم مـع بكـاء الطفلة والبطن ما يزال منتفخاً. وأطلت رأس أخرى من الأم التى كان الطلق ما يلبث يذهب عنها ثم يأتيها.

ضرب الحاج آدم الميت. تليفونياً للبنـدر. واهتـزت أسلاك التليفون بين عزبة الميت. بعنف وقوة. وبين مركـز ايتاى البارود. وخرج صوت الحاج هارداً يطلب حكيماً مـن البندر القريب. على أن يكون حيكم ولادة.

حضر الحكيم وسلم، واستجوب الداية وهددها، وسال وفحص. وعاين وكشف. واكتشف أن الأمور أكثر صـعوبة مما تصور فى البداية. طلب مساعداً وتومرجيـاً، وحكيمـة ودكتور بنج. قالها هو " أخصائى تخدير".

عادت أسلاك التليفون الوحيد فى العزبة تهتز. تحاول أن تخفى صخب الكلمات بداخلها. وعندما شاهد الصبية فـى الغيطان، أسلاك التليفون تهتز بعنف، مع أن الريـاح كانـت ساكنة. وصنع الصبية آذانهم على أعمـدة التليفـون حتـى يسمعوا ما يقال.

تحولت الولادة الطبيعية إلى عملية فتح بطن. قـال عنها آدم الميت " قيصرية". عندما أخرجوا الطفـل الثـانى، قالوا أن ا مالوش تانى، وكانت بنتاً وفى ركن من بطن الأم كان هناك الثالث وما إن سمعوا بكاءها حتى هللوا فى العزبة صائحين:" الثالثة ثابتة.

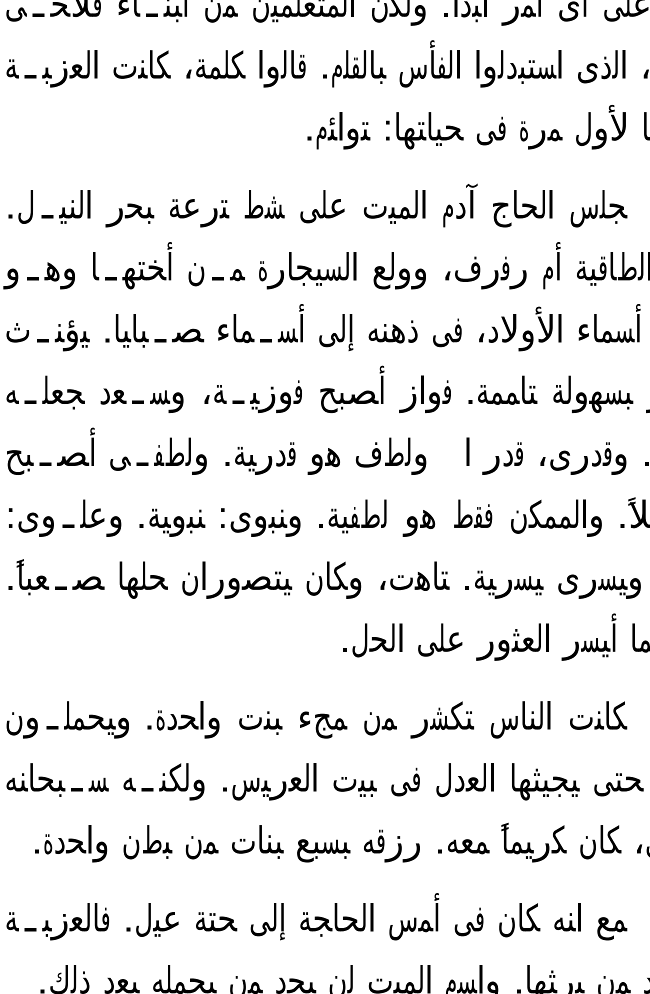
وقبل أن يعيد الحكيم كل شئ إلى موضعه داخل بطن الأم. اكتشف.. حكيم التخدير أن هناك، أربع أطفال آخـرين فى حالة تكور فى ركن البطن الذى اتسع جداً بفعل الحمل.

قال الطبيب:

- يتربوا فى عزك يا حاج

وقالت الحكيمة:

- فيهم الخير والبركة

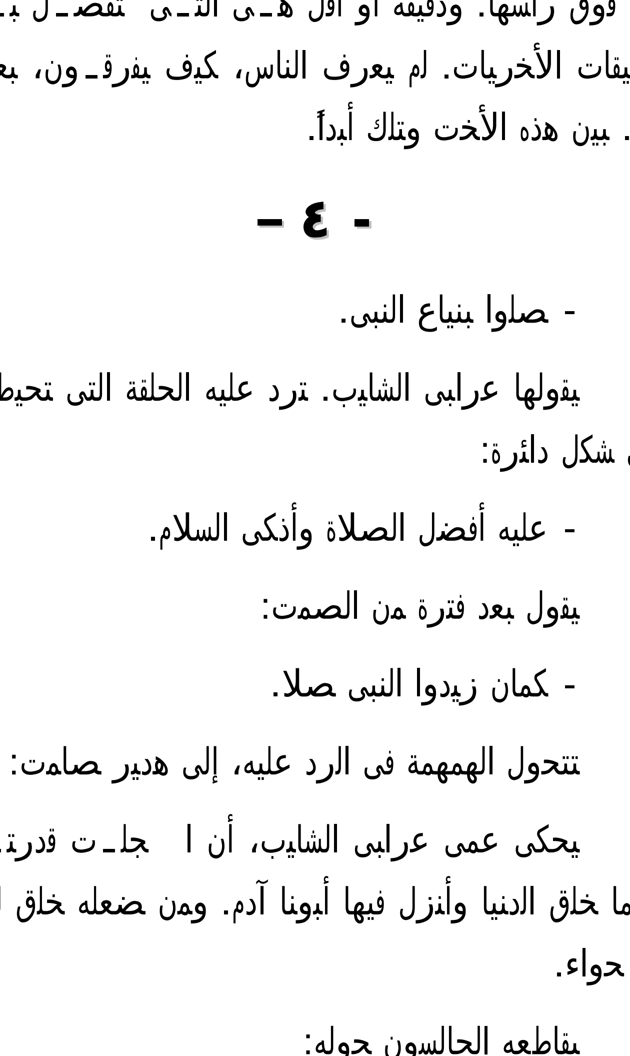


قال الناس فى العزبة، أن البنات عندما يأتين، فوق رؤوس بعضهن، سيقطعن هدوم بعضهن من الخناق، ولن يتفقن على أى أمر ابداً. ولكن المتعلمين من أبناء فلاحى العزبة، الذى استبدلوا الفأس بالقلم. قالوا كلمة، كانت العزبة تسمعها لأول مرة فى حياتها: توائم.

جلس الحاج آدم الميت على شط ترعة بحر النيل. عوج الطاقية أم رفرف، وولع السيجارة من أختها وهو يترجم أسماء الأولاد، فى ذهنه إلى أسماء صبايا. يؤنث المذكر بسهولة تامة. فواز أصبح فوزية، وسعد جعله سعدية. وقدرى، قدر ا   ولطف هو قدرية. ولطفى أصبح مستحيلاً. والممكن فقط هو لطفية. ونبوى: نبوية. وعلوى: علوية ويسرى يسرية. تاهت، وكان يتصوران حلها صعباً. ولكن ما أيسر العثور على الحل.

كانت الناس تكشر من مجء بنت واحدة. ويحملون همها، حتى يجيئها العدل فى بيت العريس. ولكنه سبحانه وتعالى، كان كريماً معه. رزقه بسبع بنات من بطن واحدة.

مع انه كان فى أمس الحاجة إلى حتة عيل. فالعزبة لن تجد من يرثها. واسم الميت لن يجد من يحمله بعد ذلك.



ساعة أو أكثر تفصل بين الأخت الكبيرة والأخت التى فوق رأسها. ودقيقة أو أقل هى التى تفصل بين الشقيقات الأخريات. لم يعرف الناس، كيف يفرقون، بعد ذلك. بين هذه الأخت وتلك أبداً.

- ٤ -

- صلوا بنياع النبى.

يقولها عرابى الشايب. ترد عليه الحلقة التى تحيط به على شكل دائرة:

- عليه أفضل الصلاة وأذكى السلام.

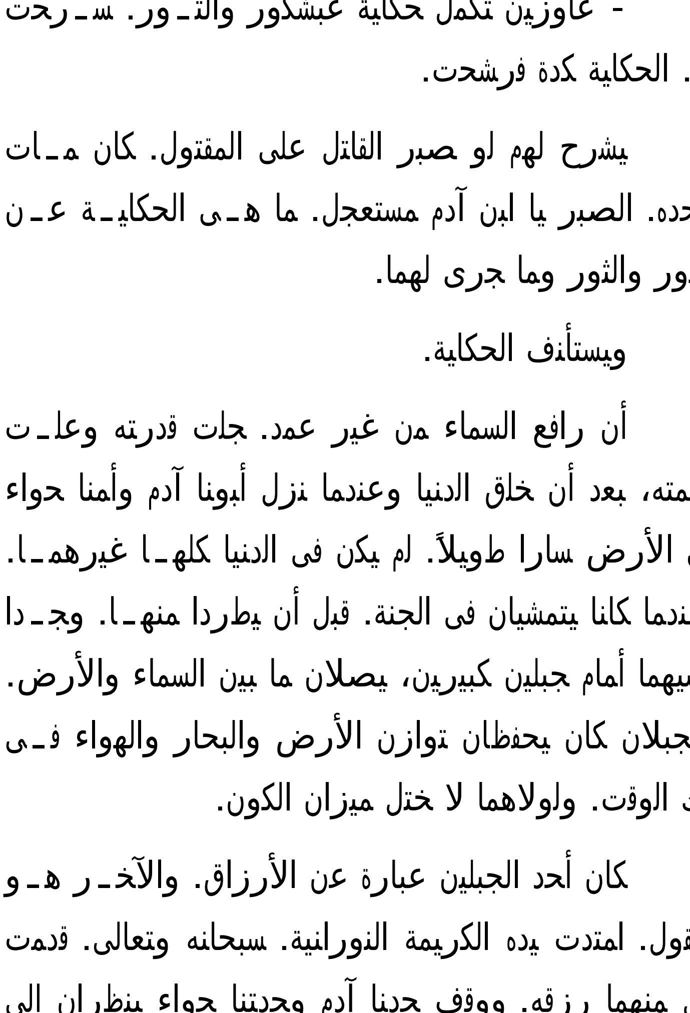
يقول بعد فترة من الصمت:

- كمان زيدوا النبى صلا.

تتحول الهمهمة فى الرد عليه، إلى هدير صامت:

يحكى عمى عرابى الشايب، أن ا جلت قدرته، عندما خلق الدنيا وأنزل فيها أبونا آدم. ومن ضلعه خلق له أمنا حواء.

يقاطعه الجالسون حوله:



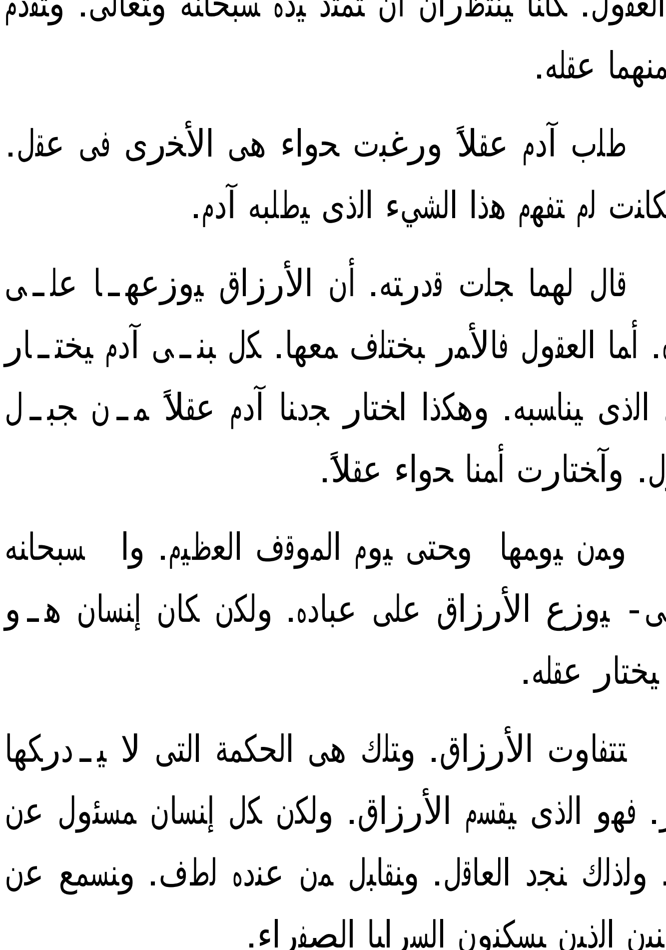
- عاوزين تكمل حكاية عبشكور والتور. سرحت ليه. الحكاية كدة فرشحت.

يشرح لهم لو صبر القاتل على المقتول. كان مات لوحده. الصبر يا ابن آدم مستعجل. ما هى الحكاية عن شكور والثور وما جرى لهما.

ويستأنف الحكاية.

أن رافع السماء من غير عمد. جلت قدرته وعلت حكمته، بعد أن خلق الدنيا وعندما نزل أبونا آدم وأمنا حواء الى الأرض سارا طويلاً. لم يكن فى الدنيا كلها غيرهما. وعندما كانا يتمشيان فى الجنة. قبل أن يطردا منها. وجدا نفسيهما أمام جبلين كبيرين، يصلان ما بين السماء والأرض. والجبلان كان يحفظان توازن الأرض والبحار والهواء فى ذلك الوقت. ولولاهما لا ختل ميزان الكون.

كان أحد الجبلين عبارة عن الأرزاق. والآخر هو العقول. امتدت يده الكريمة النورانية. سبحانه وتعالى. قدمت لكل منهما رزقه. ووقف جدنا آدم وجدتنا حواء ينظران إلى



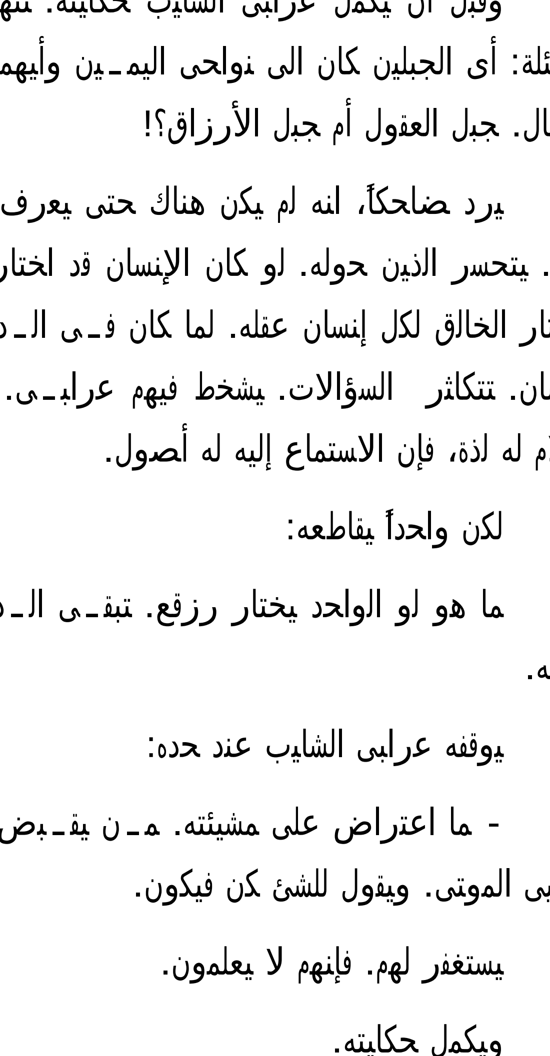
كوم العقول. كانا ينتظران أن تمتد يده سبحانه وتعالى. وتقدم لكل منهما عقله.

طلب آدم عقلاً ورغبت حواء هى الأخرى فى عقل. وان كانت لم تفهم هذا الشيء الذى يطلبه آدم.

قال لهما جلت قدرته. أن الأرزاق يوزعها على عباده. أما العقول فالأمر يختلف معها. كل بنى آدم يختار العقل الذى يناسبه. وهكذا اختار جدنا آدم عقلاً من جبل العقول. وآختارت أمنا حواء عقلاً.

ومن يومها وحتى يوم الموقف العظيم. وا سبحانه وتعالى- يوزع الأرزاق على عباده. ولكن كان إنسان هو الذى يختار عقله.

تتفاوت الأرزاق. وتلك هى الحكمة التى لا يدركها البشر. فهو الذى يقسم الأرزاق. ولكن كل إنسان مسئول عن عقله. ولذلك نجد العاقل. ونقابل من عنده لطف. ونسمع عن المجانين الذين يسكنون السرايا الصفراء.



وقبل أن يكمل عرابى الشايب حكايته. تنهال عليه الأسئلة: أى الجبلين كان الى نواحى اليمين وأيهما على الشمال. جبل العقول أم جبل الأرزاق؟!

يرد ضاحكاً، انه لم يكن هناك حتى يعرف مكان كل جبل. يتحسر الذين حوله. لو كان الإنسان قد اختار رزقه، واختار الخالق لكل إنسان عقله. لما كان فى الدنيا غنى وغلبان. تتكاثر السؤالات. يشخط فيهم عرابى. أن كان الكلام له لذة، فإن الاستماع إليه له أصول.

لكن واحداً يقاطعه:

ما هو لو الواحد يختار رزقع. تبقى الدنيا آخر نزاكه.

يوقفه عرابى الشايب عند حده:

- ما اعتراض على مشيئته. من يقبض الأرواح، ويحيى الموتى. ويقول للشئ كن فيكون.

يستغفر لهم. فإنهم لا يعلمون.

ويكمل حكايته.

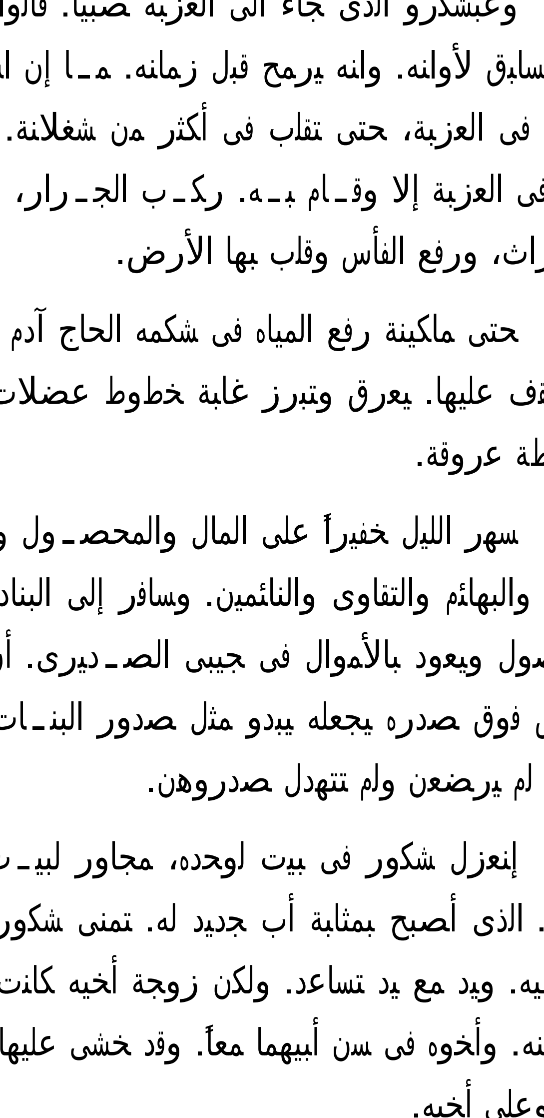
- ٥ -

عندما جاءت عيلة شكور. التى كانت أقـرب إلـى القبيلة من كثرة عددها. قالوا عنهم الغرباويـة. أو الغـرب. وعلى الرغم من مرور السنين، وكر الأيـام، إلا أن اللقـب أصبح جزءاً من الإسم. شكور الغرباوى.

والعائلة جرى لها ما يجرى لكل العـائلات، البنـات تزوجن، وكل بنت تبعت زوجها كظلـه. والنـاس الغلابـة تناديهم لقبمتهم. وتشدهم هدمتهم الى حيث لا يعرفون. هـج من هج من الغرباوية. وبقى من بقى فى العزبة.

وما إن مات الغرباوى الكبير. ثم مـات الغرباويـة العجوز. ودفنا فى قبور غريبة، هى قبور أهـل ا ، التـى تسمعى قبور الصدقة. والموجودة فى قرية الضهرية القريبة من العزبة حتى صفصفت شجرة الغرباوية ولـم يبـق فـى العزبة سوى شكور وأخوه الكبير.

الأب هو العمدان التـى تشـيل البيـت. والأم هـى مسماره. وما أن يرحلا حتى يكون البيت قد تهدم وتنبت من هديمه ورديمه بيوت جديدة.

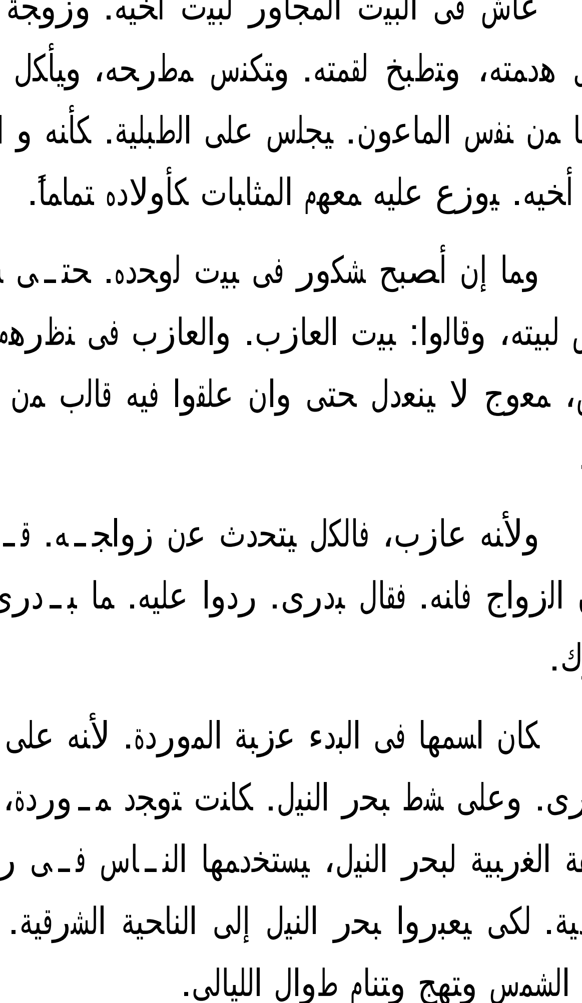


وعبشكرو الذى جاء الى العزبة صبياً. قالوا عنه انه رجل سابق لأوانه. وانه يرمح قبل زمانه. مـا إن اسـتقرت العائلة فى العزبة، حتى تقلب فى أكثر من شغلانة. ما مـن عمل فى العزبة إلا وقـام بـه. ركـب الجـرار، وأمسـك بالمحراث، ورفع الفأس وقلب بها الأرض.

حتى ماكينة رفع المياه فى شكمه الحاج آدم الميـت، كان يقف عليها. يعرق وتبرز غابة خطوط عضلات جسمه، وخريطة عروقة.

سهر الليل خفيراً على المال والمحصـول والـزرع والغلة والبهائم والتقاوى والنائمين. وسافر إلى البنادر يبيـع المحصول ويعود بالأموال فى جيبى الصـديرى. أن كـون الفلوس فوق صدره يجعله يبدو مثل صدور البنـات البكـر اللاتى لم يرضعن ولم تتهدل صدروهن.

إنعزل شكور فى بيت لوحده، مجاور لبيـت أخيـه الكبير. الذى أصبح بمثابة أب جديد له. تمنى شكور أن يقيم مع أخيه. ويد مع يد تساعد. ولكن زوجة أخيه كانت اقـرب إلى سنه. وأخوه فى سن أبيهما معاً. وقد خشى عليها وعلـى نفسه وعلى أخيه.

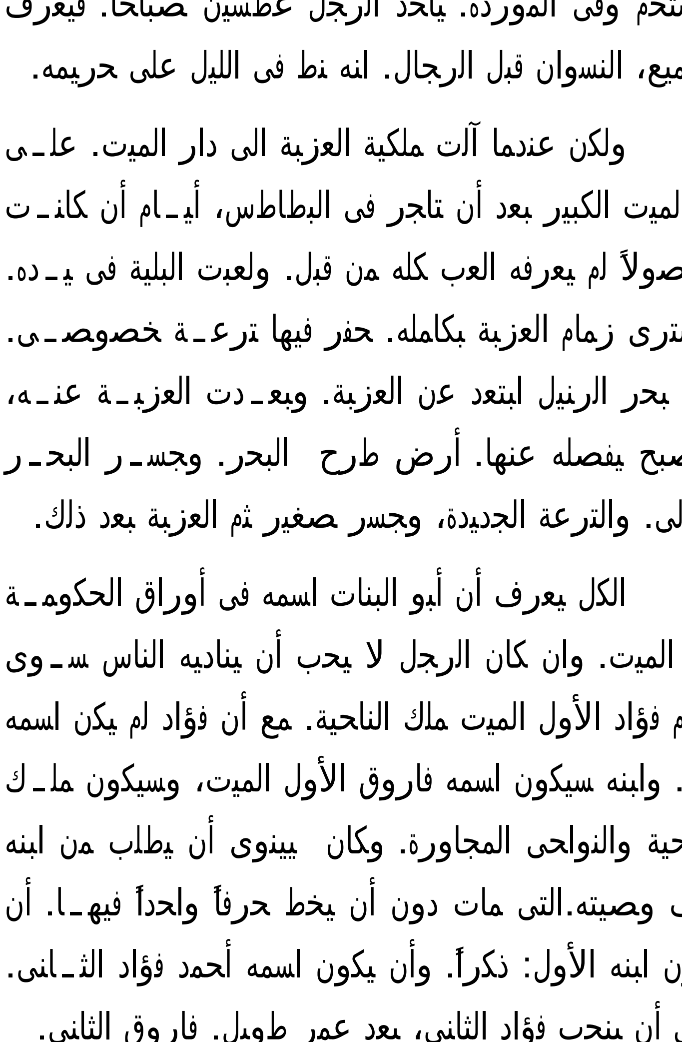


عاش فى البيت المجاور لبيت أخيه. وزوجة اخيـه تغسل هدمته، وتطبخ لقمته. وتكنس مطرحه، ويأكل معهـم أحيانا من نفس الماعون. يجلس على الطبلية. كأنه و احد من عيلة أخيه. يوزع عليه معهم المثابات كأولاده تماماً.

وما إن أصبح شكور فى بيت لوحده. حتـى شـاور الناس لبيته، وقالوا: بيت العازب. والعازب فى نظرهم ديلـه نجس، معوج لا ينعدل حتى وان علقوا فيه قالب من الطوب النى.

ولأنه عازب، فالكل يتحدث عن زواجـه. قـالوا أن سرن الزواج فانه. فقال بدرى. ردوا عليه. ما بـدرى مـن عمرك.

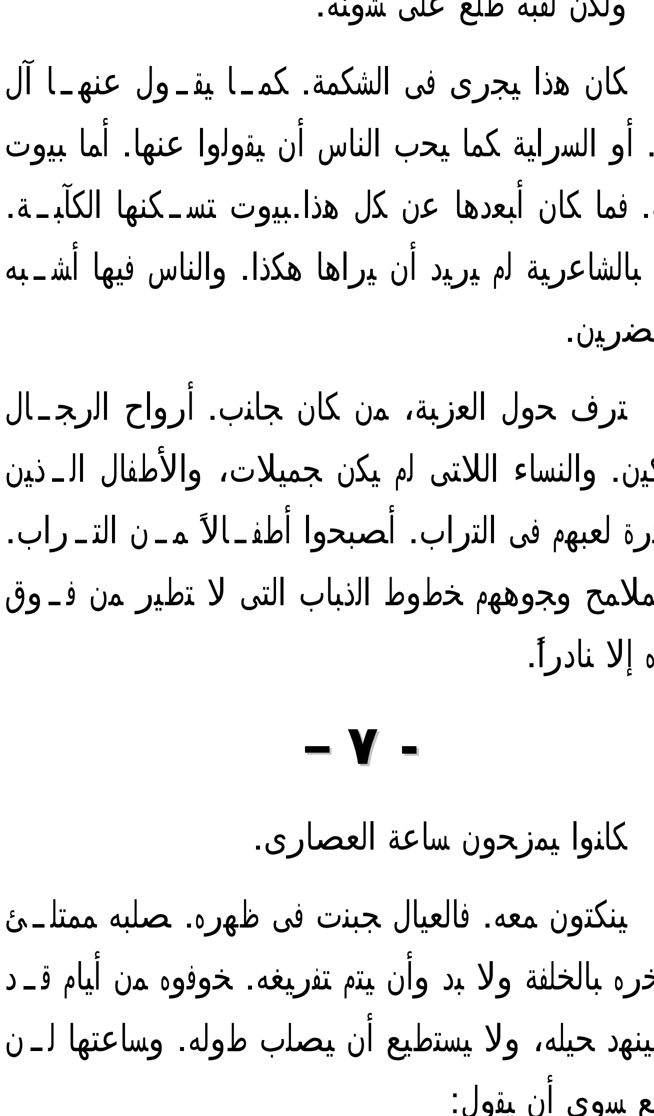
كان اسمها فى البدء عزبة الموردة. لأنه على الناحية الأخرى. وعلى شط بحر النيل. كانت توجد مـوردة، علـى الضفة الغربية لبحر النيل، يستخدمها النـاس فـى ركـوب المعدية. لكى يعبروا بحر النيل إلى الناحية الشرقية. حيـث تبيت الشمس وتهج وتنام طوال الليالى.



فى الموردة تغشل النسوة الغسيل، وتشـرب البهـائم وتستحم وفى الموردة. يأخذ الرجل غطسين صباحاً. فيعرف الجميع، النسوان قبل الرجال. انه نط فى الليل على حريمه.

ولكن عندما آلت ملكية العزبة الى دار الميت. علـى يد الميت الكبير بعد أن تاجر فى البطاطس، أيـام أن كانـت محصولاً لم يعرفه العب كله من قبل. ولعبت البلية فى يـده. واشترى زمام العزبة بكامله. حفر فيها ترعـة خصوصـى. لأن بحر الرنيل ابتعد عن العزبة. وبعـدت العزبـة عنـه، وأصبح يفصله عنها. أرض طرح البحر. وجسـر البحـر العالى. والترعة الجديدة، وجسر صغير ثم العزبة بعد ذلك.

الكل يعرف أن أبو البنات اسمه فى أوراق الحكومـة آدم الميت. وان كان الرجل لا يحب أن يناديه الناس سـوى باسم فؤاد الأول الميت ملك الناحية. مع أن فؤاد لم يكن اسمه أبداً. وابنه سيكون اسمه فاروق الأول الميت، وسيكون ملـك الناحية والنواحى المجاورة. وكان يينوى أن يطلب من ابنه ىف وصيته.التى مات دون أن يخط حرفاً واحداً فيهـا. أن يكون ابنه الأول: ذكراً. وأن يكون اسمه أحمد فؤاد الثـانى. على أن ينجب فؤاد الثانى، بعد عمر طويل. فاروق الثانى.



ولكن لقبه طلع على شونه.

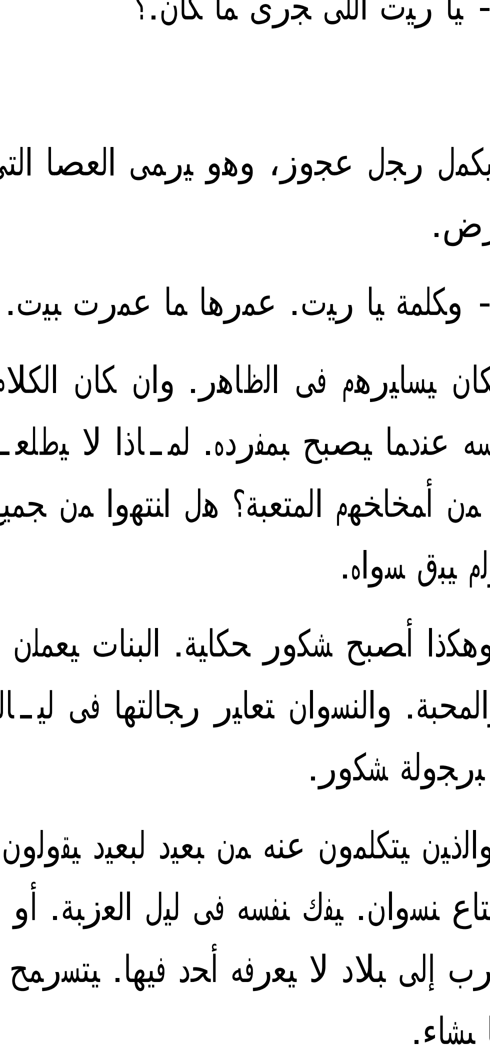
كان هذا يجرى فى الشكمة. كمـا يقـول عنهـا آل الميت. أو السراية كما يحب الناس أن يقولوا عنها. أما بيوت العزبة. فما كان أبعدها عن كل هذا.بيوت تسـكنها الكآبـة. تفيض بالشاعرية لم يريد أن يراها هكذا. والناس فيها أشـبه بالمحتضرين.

ترف حول العزبة، من كان جانب. أرواح الرجـال المساكين. والنساء اللاتى لم يكن جميلات، والأطفال الـذين من كثرة لعبهم فى التراب. أصبحوا أطفـالاً مـن التـراب. تحدد ملامح وجوههم خطوط الذباب التى لا تطير من فـوق الوجوه إلا نادراً.

- ٧ -

كانوا يمزحون ساعة العصارى.

ينكتون معه. فالعيال جبنت فى ظهره. صلبه ممتلـئ عن آخره بالخلفة ولا بد وأن يتم تفريغه. خوفوه من أيام قـد تأتى فينهد حيله، ولا يستطيع أن يصلب طوله. وساعتها لـن يستطيع سوى أن يقول:



- يا ريت اللى جرى ما كان.؟

يكمل رجل عجوز، وهو يرمى العصا التى فى يده على الأرض.

- وكلمة يا ريت. عمرها ما عمرت بيت.

كان يسايرهم فى الظاهر. وان كان الكلام يضايقه يقول لنفسه عندما يصبح بمفرده. لماذا لا يطلعه هؤلاء المخاليق من أمخاخهم المتعبة؟ هل انتهوا من جميع مشاكل حياتهم ولم يبق سواه.

وهكذا أصبح شكور حكاية. البنات يعملن له أعمال العشق والمحبة. والنسوان تعاير رجالتها فى ليالى التعب والضنى برجولة شكور.

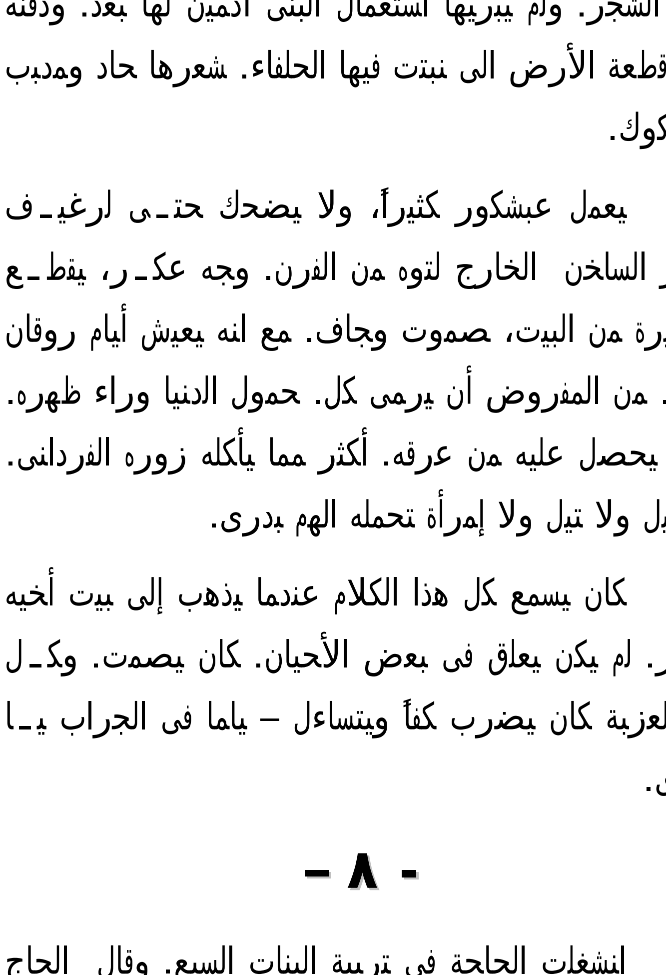
والذين يتكلمون عنه من بعيد لبعيد يقولون عنه أنى فلاتى وبتاع نسوان. يفك نفسه فى ليل العزبة. أو أنه يحمل همه ويهرب إلى بلاد لا يعرفه أحد فيها. يتسرمح على هواه، ويفعل ما يشاء.

أما هو فكانت تصله طراطيش كلام فيضحك لا يؤكد ما يقال ولا ينفيه يتلذذ بذلك الغموض الساحر الذى يحيط به. يغمغم بأصوات لا تعنى أى شئ. سألوه عن الزواج. أكلـوا وجهه فى الرايحة والجاية قالوا: " ما آنش الأوان". تسـاءلوا أن كان يضع عينيه على بنت من بنات العزبة. أو بنت مـن بلد مجاور. قال هو: أين هى هذه البنت؟

كانت البنات يخشين أن يصوم شكور، ويفطر علـى بصلة. كن يقلن عندما يجلسن فى قعدات كلام وحديث بعيـداً عن الرجال. أجدع الرجال يقعن دائماً فـى أنـتن النسـاء. وأجمل النساء وأحلاهن يكون بختهن فى الراجـل الخيخـة. وشكرو فى نظرهن رجل مجدع. رجل بحق وحقيق.

والبنات معهن الحق. والنسوان معهن كل الحق وابن عمه. فشكور طول بعرض. خشبه تكون فى أيام الرخاء التى ولت ولن تعود أبداً. عود سرو. الشعر الأسود الغزير يغطى جسمه كله. وسمانى قدميه أكثر سمنة من سـمانات أرجـل النسوان.

وعندما سلم عليك، تتوه يدك فى دروب لحـم كفـه الكبير، يترك فيمن يسلم عاريه، أنطباعاً بالمتانة والأطمئنان.



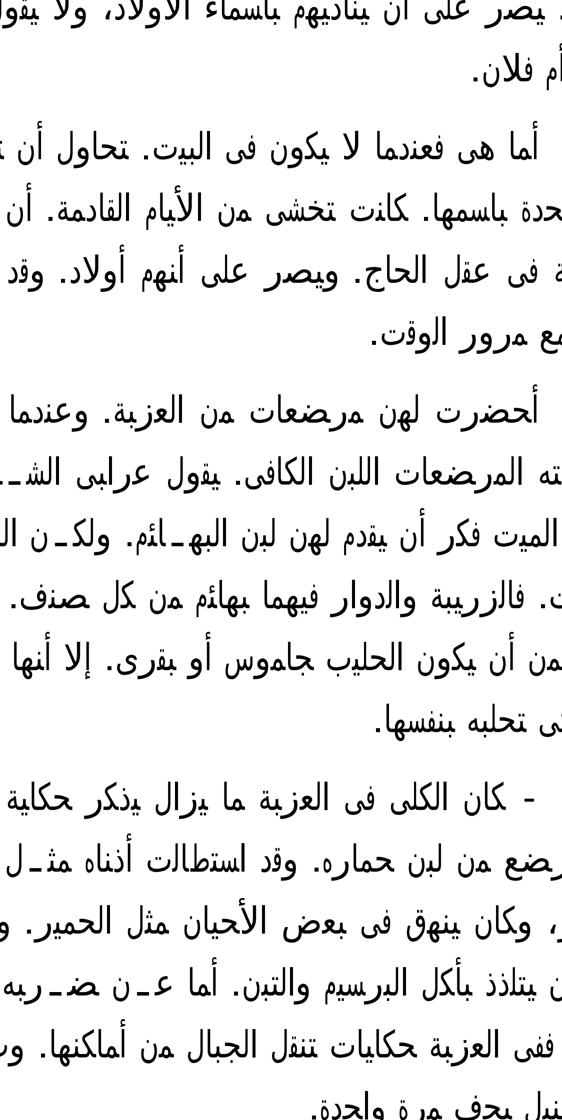
شنبه كثيف وخشن، مثل الليفة التى وقعت لتوها من فوق الشجر. ولم يبريها استعمال البنى آدمين لها بعد. وذقنه مثل قطعة الأرض الى نبتت فيها الحلفاء. شعرها حاد ومدبب ومشكوك.

يعمل عبشكور كثيراً، ولا يضحك حتـى لرغيـف الخبز الساخن الخارج لتوه من الفرن. وجه عكـر، يقطـع الخميرة من البيت، صموت وجاف. مع انه يعيش أيام روقان البال. من المفروض أن يرمى كل. حمول الدنيا وراء ظهره. الذى يحصل عليه من عرقه. أكثر مما يأكله زوره الفردانى. لا عيل ولا تيل ولا إمرأة تحمله الهم بدرى.

كان يسمع كل هذا الكلام عندما يذهب إلى بيت أخيه الكبير. لم يكن يعلق فى بعض الأحيان. كان يصمت. وكـل فى العزبة كان يضرب كفاً ويتساءل – ياما فى الجراب يـا حاوى.

– ٨ -

انشغلت الحاجة فى تربية البنات السبع. وقال الحاج الميت، أنها مشغولة فى تربية سبعة صبيان جاءوا من بطـن

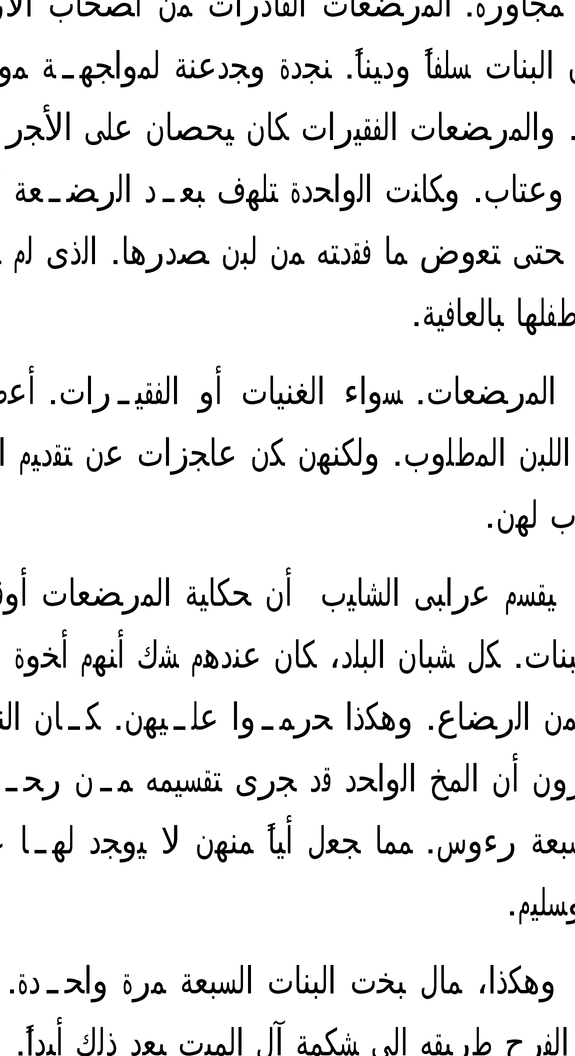


واحدة. يصر على أن يناديهم بأسماء الأولاد، ولا يقول لهـا إلا يا أم فلان.

أما هى فعندما لا يكون فى البيت. تحاول أن تنـادى كل واحدة باسمها. كانت تخشى من الأيام القادمة. أن تكبـر الحكاية فى عقل الحاج. ويصر على أنهم أولاد. وقد يصدق نفسه مع مرور الوقت.

أحضرت لهن مرضعات من العزبة. وعندما لم تجد من هاته المرضعات اللبن الكافى. يقول عرابى الشـايب أن الحاج الميت فكر أن يقدم لهن لبن البهـائم. ولكـن الحاجـة رفضت. فالزريبة والدوار فيهما بهائم من كل صنف. وهـى لا تضمن أن يكون الحليب جاموس أو بقرى. إلا أنها كانـت هى التى تحلبه بنفسها.

- كان الكلى فى العزبة ما يزال يذكر حكاية الولـد الذى رضع من لبن حماره. وقد استطالت أذناه مثـل اذنـى الحمار، وكان ينهق فى بعض الأحيان مثل الحمير. ويقولون أنه كان يتلاذذ بأكل البرسيم والتبن. أما عـن ضـربه لأمـه وأبيه، ففى العزبة حكايات تنقل الجبال من أماكنها. وت جعل بحر النيل يجف مرة واحدة.



أرسلت تبحث عن مرضعات من عزب وكفور وبلدان مجاورة. المرضعات القادرات من أصحاب الأرض، رضعن البنات سلفاً وديناً. نجدة وجدعنة لمواجهة موقف صعب. والمرضعات الفقيرات كان يحصلن على الأجر بعد ممانعة وعتاب. وكانت الواحدة تلهف بعد الرضعة أكلة معتبرة حتى تعوض ما فقدته من لبن صدرها. الذى لم يكن يطفى طفلها بالعافية.

المرضعات. سواء الغنيات أو الفقيرات. أعطين البنات اللبن المطلوب. ولكنهن كن عاجزات عن تقديم الحنان المطلوب لهن.

يقسم عرابى الشايب أن حكاية المرضعات أوقفت حال البنات. كل شبان البلد، كان عندهم شك أنهم أخوة للبنات السبع من الرضاع. وهكذا حرموا عليهن. كان الناس يتصورون أن المخ الواحد قد جرى تقسيمه من رحم الأم على سبعة رءوس. مما جعل أياً منهن لا يوجد لها عقل كامل وسليم.

وهكذا، مال بخت البنات السبعة مرة واحدة. ولم يعرف الفرح طريقه إلى شكمة آل الميت بعد ذلك أبداً.

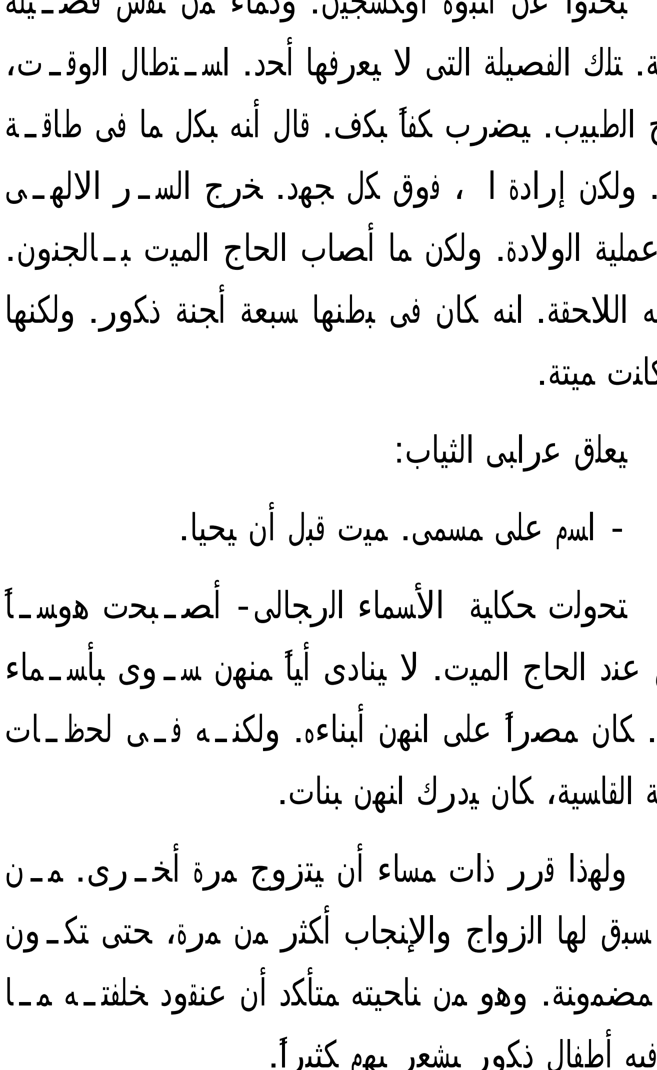
- ٩ -

وبينما كانت الحاجة تربى البنات. كان آدم الميت فى انتظار ابنه الذى لم يجئ بعد ذلك أبداً. حملت الحاجة ومـن ضخامة بطلنها. أدرك الرجال أن فى بطنها اكثر من جنـين واحد. وان كانت الأجنة قد جاءت فى المرة الماضية بنـات. فمن المتوقع أن يكونوا ذكوراً هذه المرة.

منعها من أن يراها أحد العزبة. أو العب كله خوفـا من الحسد. قالت له أنه لا يحسد المـال سـوى أصـحابه، فتشاءهم من كلامها.

لم يتكرر حضور الداية.

كان الحكيم والمساعد والتومرجى والممرضة وحكيم التخدير هم أنفسهم الذين جاءوا من قبل. جاهزون لمجرد أن جاءها الطلق الأول. معنى الوقت وتسرب دون حدوث شئ. صريخ أصوات ومناهدة وفرهدة. ودعاءات يارب، يا كريم. أدعية مرفوعة لصاحب الخيمة الزرقاء التى تغطى الكون أن ينتعها ويقومها بالسلامة. ويأخذ بيدها.



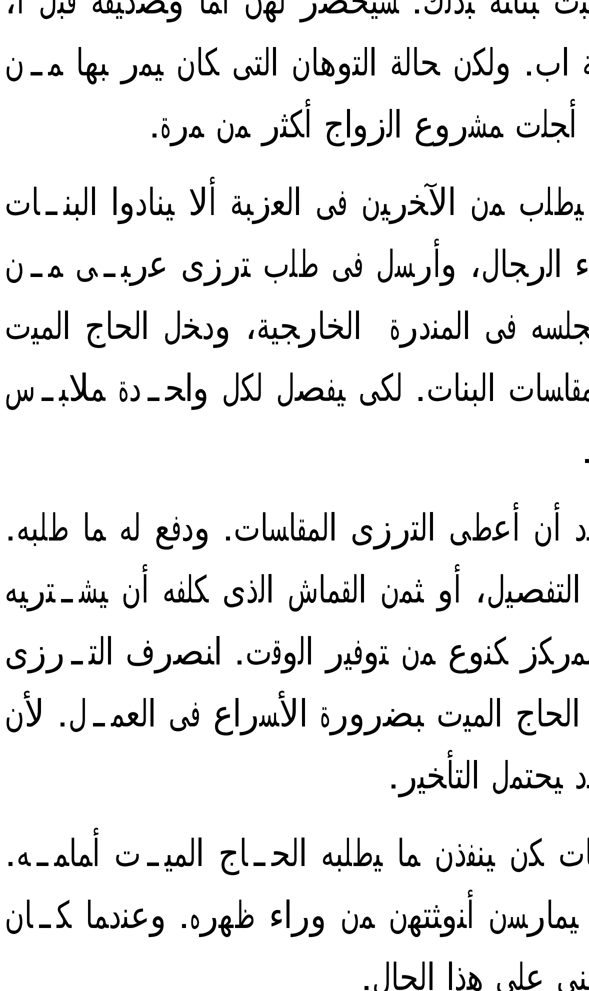
بحثوا عن أنبوة أوكسجين. ودماء من نفس فصـيلة الحاجة. تلك الفصيلة التى لا يعرفها أحد. اسـتطال الوقـت، وخرج الطبيب. يضرب كفاً بكف. قال أنه بكل ما فى طاقـة البشر. ولكن إرادة ا ، فوق كل جهد. خرج السـر الالهـى أثناء عملية الولادة. ولكن ما أصاب الحاج الميت بـالجنون. معرفته اللاحقة. انه كان فى بطنها سبعة أجنة ذكور. ولكنها كلها كانت ميتة.

يعلق عرابى الثياب:

- اسم على مسمى. ميت قبل أن يحيا.

تحولت حكاية الأسماء الرجالى- أصـبحت هوسـاً خاص عند الحاج الميت. لا ينادى أياً منهن سـوى بأسـماء رجال. كان مصراً على انهن أبناءه. ولكنـه فـى لحظـات الحقيقة القاسية، كان يدرك انهن بنات.

ولهذا قرر ذات مساء أن يتزوج مرة أخـرى. مـن إمرأة سبق لها الزواج والإنجاب أكثر من مرة، حتى تكـون نتائية مضمونة. وهو من ناحيته متأكد أن عنقود خلفتـه مـا تزال فيه أطفال ذكور يشعر بهم كثيراً.

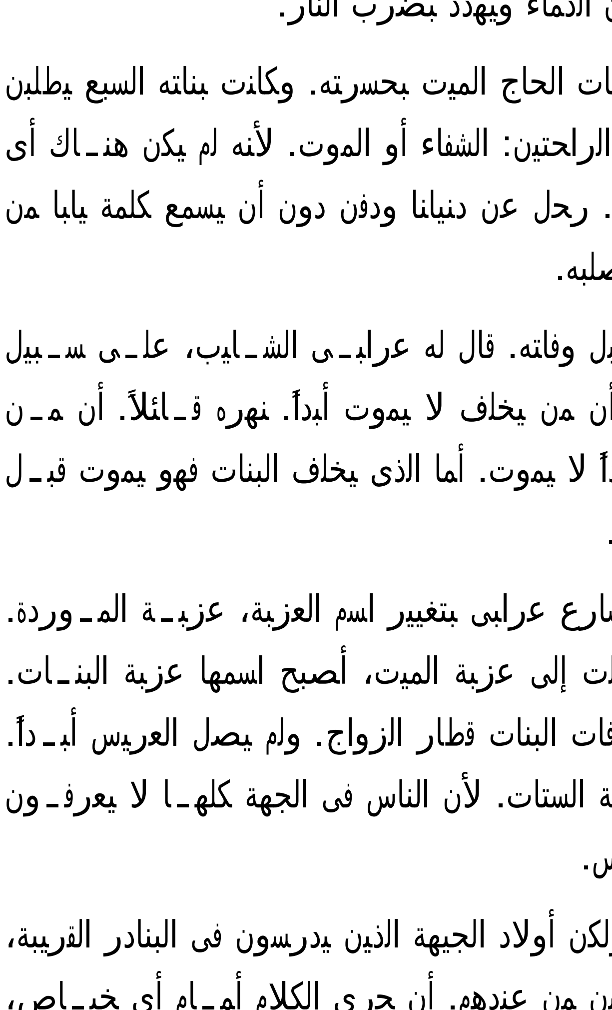


رحبت بناته بذلك. سيحضر لهن أما وصديقة قبل أ، تكون زوجة اب. ولكن حالة التوهان التى كان يمر بها من وقت لآخر، أجلت مشروع الزواج أكثر من مرة.

بدأ يطلب من الآخرين فى العزبة ألا ينادوا البنات سوى بأسماء الرجال، وأرسل فى طلب ترزى عربى من المركز، وأجلسه فى المندرة الخارجية، ودخل الحاج الميت حتى يأخذ مقاسات البنات. لكى يفصل لكل واحدة ملابس رجال بلدى.

وبعد أن أعطى الترزى المقاسات. ودفع له ما طلبه. سواء أجرة التفصيل، أو ثمن القماش الذى كلفه أن يشتريه بنفسه من المركز كنوع من توفير الوقت. انصرف الترزى مع تنبيهات الحاج الميت بضرورة الأسراع فى العمل. لأن الوقت لم يعد يحتمل التأخير.

البنات كن ينفذن ما يطلبه الحاج الميت أمامه. ولكنهن كن يمارسن أنوثتهن من وراء ظهره. وعندما كان يفاجئهن وهنى على هذا الحال.



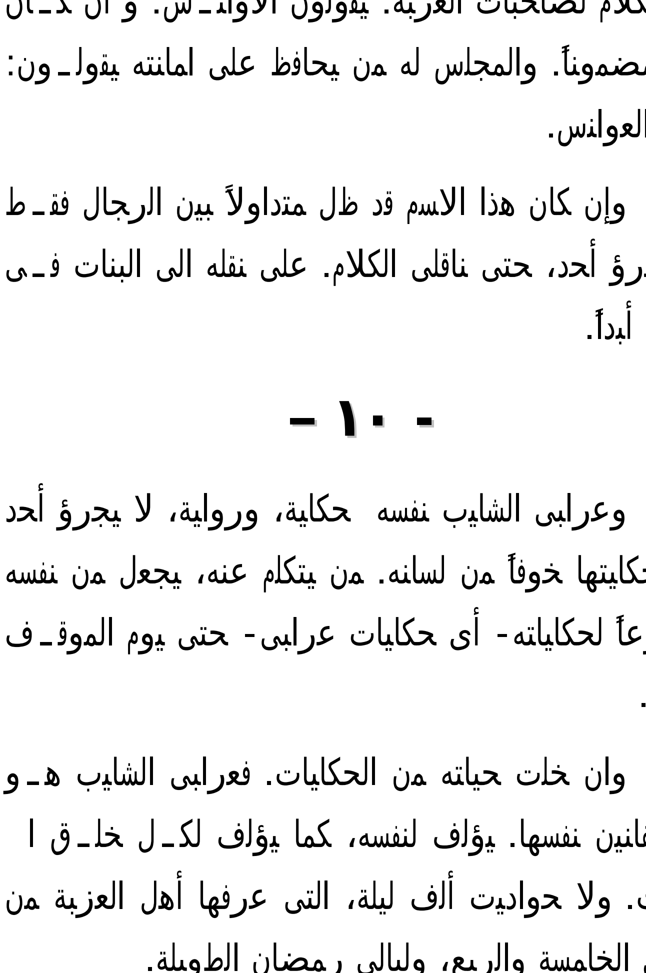
كان يطق عرق من نافوخه، ويتحـول رأسـه آلـى نافورة من الدماء ويهدد بضرب النار.

مات الحاج الميت بحسرته. وكانت بناته السبع يطلبن له إحدى الراحتين: الشفاء أو الموت. لأنه لم يكن هنـاك أى حل وسط. رحل عن دنيانا ودفن دون أن يسمع كلمة يابا من ابن من صلبه.

قبل وفاته. قال له عرابـى الشـايب، علـى سـبيل التعزية، أن من يخاف لا يموت أبداً. نهره قـائلاً. أن مـن يخاف ولداً لا يموت. أما الذى يخاف البنات فهو يموت قبـل أن يموت.

سارع عرابى بتغيير اسم العزبة، عزبـة المـوردة. التى تحولت إلى عزبة الميت، أصبح اسمها عزبة البنـات. وبعد أن فات البنات قطار الزواج. ولم يصل العريس أبـداً. قالوا عزبة الستات. لأن الناس فى الجهة كلهـا لا يعرفـون كلمة عانس.

ولكن أولاد الجيهة الذين يدرسون فى البنادر القريبة، قالوا اسمين من عندهم. أن جرى الكلام أمـام أى خبـاص،



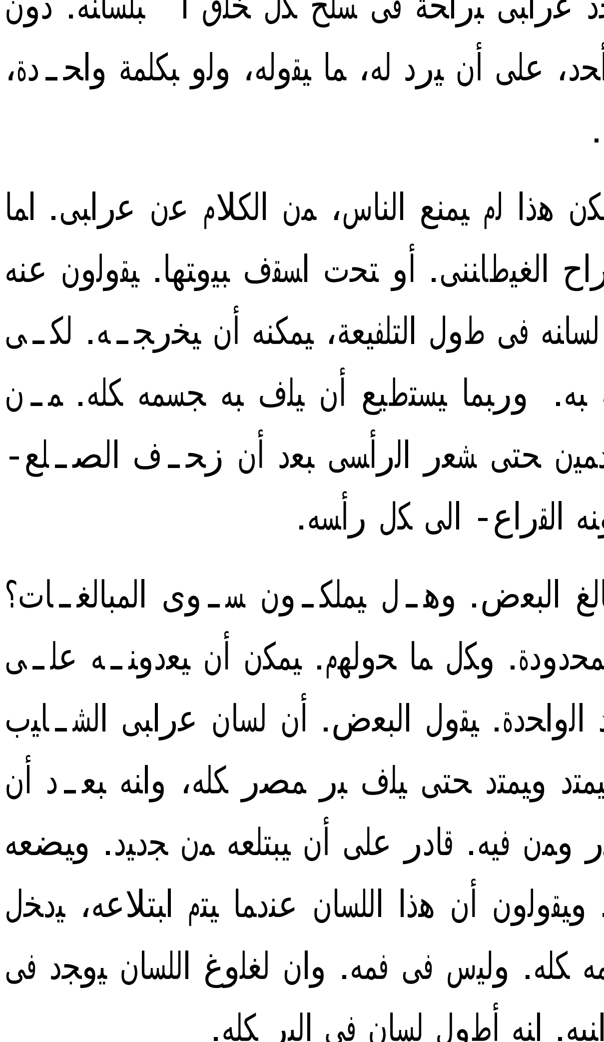
ينقل الكلام لصاحبات العزبة. يقولون الأوانس. و أن كان السر مضموناً. والمجلس له من يحافظ على امانته يقولون: عزبة العوانس.

وإن كان هذا الاسم قد ظل متداولاً بين الرجال فقط ولم يجرؤ أحد، حتى ناقلى الكلام. على نقله الى البنات فى الشكمة أبداً.

- ١٠ -

وعرابى الشايب نفسه حكاية، ورواية، لا يجرؤ أحد على حكايتها خوفاً من لسانه. من يتكلم عنه، يجعل من نفسه موضوعاً لحكاياته- أى حكايات عرابى- حتى يوم الموقف العظيم.

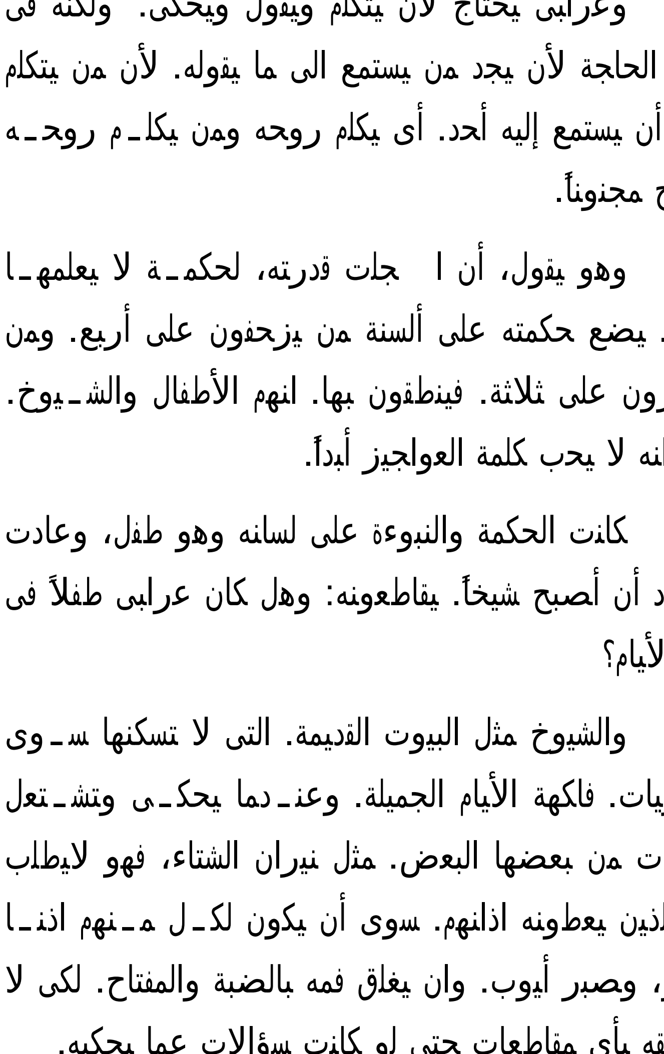
وان خلت حياته من الحكايات. فعرابى الشايب هو أبو التفانين نفسها. يؤلف لنفسه، كما يؤلف لكل خلق ا حكايات. ولا حواديت ألف ليلة، التى عرفها أهل العزبة من مسلسل الخامسة والربع، وليالى رمضان الطويلة.



أخذ عرابى براحة فى سلخ كل خلق ا بلسانه. دون أن يجرؤ أحد، على أن يرد له، ما يقوله، ولو بكلمة واحـدة، توحد ربها.

ولكن هذا لم يمنع الناس، من الكلام عن عرابى. اما وهم فى براح الغيطاننى. أو تحت اسقف بيوتها. يقولون عنه همساً، أن لسانه فى طول التلفيعة، يمكنه أن يخرجـه. لكـى يلف رأسه به. وربما يستطيع أن يلف به جسمه كله. مـن أصابع القدمين حتى شعر الرأسى بعد أن زحـف الصـلع- الذى يسمونه القراع- الى كل رأسه.

يبالغ البعض. وهـل يملكـون سـوى المبالغـات؟ فالأرزاق محدودة. وكل ما حولهم. يمكن أن يعدونـه علـى أصابع اليد الواحدة. يقول البعض. أن لسان عرابى الشـايب يمكنه أن يمتد ويمتد حتى يلف بر مصر كله، وانه بعـد أن يلف به البر ومن فيه. قادر على أن يبتلعه من جديد. ويضعه داخل فمه. ويقولون أن هذا اللسان عندما يتم ابتلاعه، يدخل داخل جسمه كله. وليس فى فمه. وان لغلوغ اللسان يوجد فى بطنه الجوانيه. انه أطول لسان فى البر كله.



وعرابى يحتاج لأن يتكلم ويقول ويحكى. ولكنه فى أمس الحاجة لأن يجد من يستمع الى ما يقوله. لأن من يتكلم دون أن يستمع إليه أحد. أى يكلم روحه ومن يكلـم روحـه يصبح مجنوناً.

وهو يقول، أن ا جلت قدرته، لحكمـة لا يعلمهـا سواه. يضع حكمته على ألسنة من يزحفون على أربع. ومن يتعكزون على ثلاثة. فينطقون بها. انهم الأطفال والشـيوخ. ذلك انه لا يحب كلمة العواجيز أبداً.

كانت الحكمة والنبوءة على لسانه وهو طفل، وعادت له بعد أن أصبح شيخاً. يقاطعونه: وهل كان عرابى طفلاً فى يوم الأيام؟

والشيوخ مثل البيوت القديمة. التى لا تسكنها سـوى الذكريات. فاكهة الأيام الجميلة. وعنـدما يحكـى وتشـتعل الكلمات من بعضها البعض. مثل نيران الشتاء، فهو لايطلب من الذين يعطونه اذانهم. سوى أن يكون لكـل مـنهم اذنـا حمار، وصبر أيوب. وان يغلق فمه بالضبة والمفتاح. لكى لا يضايقه بأى مقاطعات حتى لو كانت سؤالات عما يحكيه.

أن شهوة الشيوخ تنتقل بمرور الوقت الى الفم. يكون عليه. اما أن يفكر فى الأكل بشراهة، أو الكلام. ولأن معدته لا تساعده. وجيبه لا يسعفه. ولا توجد فى بيته من تعد له اللقمة الطرية. فهو براوى وحدانى فردانى. ولأن الكلام أسهل. وليس عليه جمرك فيصبح الكلام هو كل شهوات الدنيا جميعاً.

لقد أصبح صوت عمى عرابى ضعيفاً. وتسلل له الوهن شيئاً فشيئاً. ودون أن يدرى، لا عمى عرابى نفسه، ولا الذين يستمعون إليه كل ليلة. أصبح استمراره فى الحكى، يشكل له صعوبات كثيرة. وتدفق الكلمات لم يعد سهلاً وبسيطاً، كما كان من قبل.

إلا أن تفاصيل الذكريات الموغلة فى البعاد، لم تكن قد ضاعت بعد فى سراديب الشيخوخة الضبابية. كان يحتفظ فى صندوق عقله العجيب بمخزون هائل من النوادر واللطائف والنكت والمحن. وما زالت العيون تتسع عن آخرها وهى تستمع لحكاويه. وكل الآذان تطقطق من الدهشة وهى تشرب كلماته.

يحاول الابتعاد عن حكاية شكور والطاوقة والستات يلحون عليه فى العودة إلى الحكاية. يقول:

- وفروا خضنكم. اسمعوا الكلام لآخره.

وقبل أن يحكى.

- طفوا ناركم. حا أقول لكم كلام تتنسوا انكم سمعتوه. وانه طبل على ودانكم قبل كده.

أن الزمن يطير. لا تعرف من أين له بهذه الأجنحة التى تمكنه من القدرة لى التحليق. ولكنه يمضى حتى دون أن ندرى.

كان عرابى فكها فى حكاياته، ابن حظ ولسانه ينقط شهد. ابن نكته. يحكى فيضحكون. ولكنه ما أن يخلو إلى نفسه. حتى تتجمع الدموع فى مآقيه. ويبقى مشروع الدمعة معلقاً فترة من الوقت، دون أن يتحول إلى دمعة تريح العين وتنزل منها. أو أن تجف لكى تعود العين كما كانت.

والذين يضبطون عرابى الشايب فى هذه الحالة. يضربون كفاً بكف من أحوال الدنيا: يضحك الناس ويحوش العياط لنفسه.

- ١١ -

يوم جديد، من أسبوع وافد، من سنة مغايرة. ولكـن العزبة ظلت كما هى. كل مـا كـان يتغيـر فيهـا، بشـكل جوهرى، كان اسمها فقط.

تستبدل الأرض رداءها من الزرع والنبات، ويولـد أطفال، ويودع الحياة شيوخ، ويموت رجال ونساء فى عـز الشباب وميعة الصبا.

ولكن العزبة كان طرية ما تزال، وكأن يد الخـالق- سبحانه وتعالى- انتهت لترها من خلقها منذ لحظات. ومـن ينظر إلى العزبة. يبدو له، وكأن الحياة كلها قد بدأت فى هذه العزبة.

وشكور يعمل فى أكثر من شغلانه. عـلاف بهـائم العزبة، يرعاها، ويؤكلها ويشربها. وأجره الذى يحل عليـه مقابل هذا العمل. وقت الفجرية، يذهب الى الشـكمة، يـدير ماكينة المياه، حتى يملأ الضهاريج كلهـا. لـزوم البنـات أو الستات اللاتى يسكن الشكمة.

وأهل العزبة يقولون انه غويط، وأنه ينظر الى بعيد. ربما كان يحلم بعلاقة مع أحد من بنات الميت. بنات وحيدات فى سراية مهجورة. وشكور الطلوقة، يذهب إلى الشكمة وقت الفجر، ولا يعود إلا بعد أن تفرش الشمس كـل مكـان فـى العزبة.

قالوا فى العزبة، انه يطلع الشـكمة بعـد أن يمـلأ الضهاريج، وهنا تختلف الروايات. البعض يقول انه يعـاين الصهاريج بنفسه، ويعرف أن كانت قد إمتلأت عن آخرهـا. والآخرون يحلفون على المصحف الشريف، انه يفطـر مـع البنات، عسل نحل ورقاق غرقان فى السمن، وبيض مقلـى، وبراد شاى معتبر والذى منه.

وعند الذى ممنه هذه تختلف التفسيرات، وينفتح الباب واسعاً أمام خيالات الجميع. لكن شكور يواظب علـى رفـع المياه الى الشمكة كلر صباح، والطلوقة عمل ثالث، يقوم بـه وان كان لا يحصل على أجر مقابل عمله.

يقول عرابى الشايب. أن شكور فاتح الصريف فـى حكاية أجرته، فقال له انه ينفذ كلام الستات وعلى شكور أن يكلم صحابات المال أولاً.

ولكن البنت التى فى يدها الحل والـربط، رفضـت. قالت لشكور أن الحلوان الذى يحصل عليه، مـن الفلاحـين يكفيه، انه لو حرن ورفض الشغل، سيكون هناك الـف مـن يقبل العمل، بدلاً منه. بدون مليم واحد. لأنهـا وصـلها أن شكور يحصل على جزء من ثمـن العجـل عنـدما يولـد. ويشارك عليه فى بعض الأحيان.

وعرابى الشايب بحلف بالايمانـات. وبرحمـة مـن ماتوا، أن البنات أرسلن الى البندر سراً، من اشـترى لهـن نظارة معظمة، حتى يرين من بعيد ما يجـرى بـين الثـور والبقرة.

على أن البنات كن مشغولات بالعريس الذى لم يأت أبداً. كن يرسمنه بدموع أعينهن. انهن سبع بنـات. ولكـن العريس كان واحداً. طول بعرض. والشعر الغزير يطل من شباك صدره.

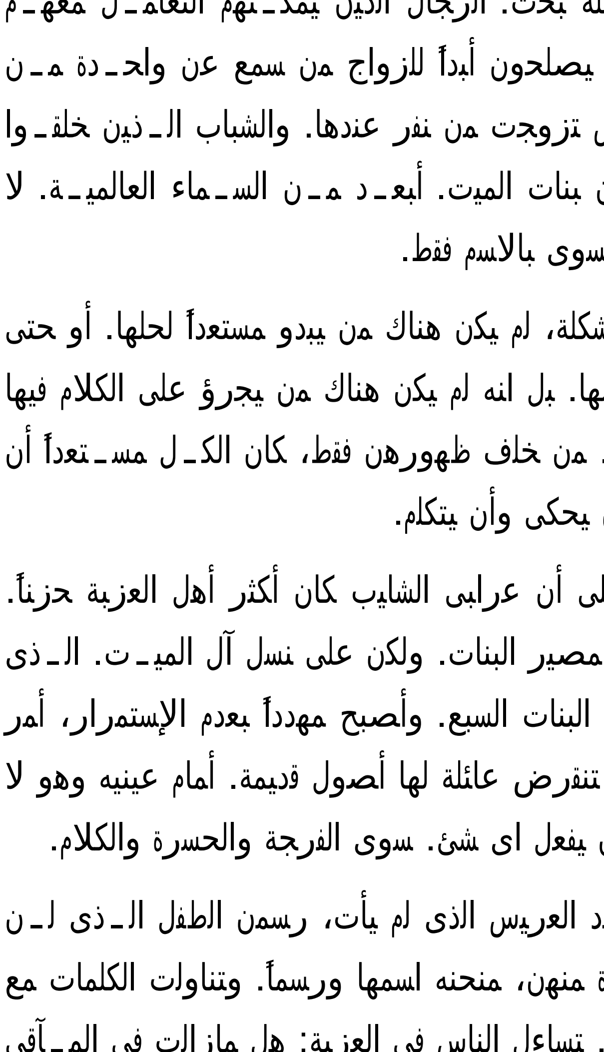
وبعد أن راح زمن الزواج، وولت ايامـه. جـاءت العنوسة. فعندما لا يأتى الرجال فى الوقت المناسـب تطـل العنوسة. أن الزغب الخفيف يبنبت وينتشر على الشفتين قبل أن يتحول مع مرور الوقت الى شارب. والعيون تبرز مـن

الوشوش. والنظرات تصيبها حالة من الزغلله. مع كرشـة النفس وسقوط الشعر. يبرز الصـدر والمـؤخرة بصـورة متنافرة مع باقى الجسم. وكأن هناك من يفرغه مما بداخلـه بإستمرار.

قال الرجال: أن سوق البنات واقف. والبنات قلن: ما عدش بيجى منه، وأصل المشكلة، أن كل بنت تحمـل فـوق رأسها طين يسد عين الشمس. ورغم وجود عدد من الشـبان الذين فى سن الزواج فى زمن مضى. إلا أنهم كـانوا مـن التملية و الأجرية، الذين لا يجرؤ واحد منهم على رفع عينيه فى واحدة من البنات.

أما الشبان الذين يناسبون البنات فـأين هـم. علـى الأغلب لا بد وأن يكونوا من أصحاب الطين مـثلهم. أبنـاء أكابر وأعيان وأجاويد. حولهم فى العزب المجاورة. ولكـن كيف يتعرفون على البنات؟!

زمن الخاطبة ولى ولن يعود. وفرص التعريف على الشباب أصبحت مستحيلة. لا البنات يـذهبن الـى البنـادر القريبة، ولا الشباب يحضرون الى العزبة.



ميلة بخت. الرجال الذين يمكنهم التعامل معهم بسهولة لا يصلحون أبداً للزواج من سمع عن واحدة من بنات الناس تزوجت من نفر عندها. والشباب الذين خلقوا للزواج من بنات الميت. أبعد من السماء العالمية. لا يعرفونهم سوى بالاسم فقط.

مشكلة، لم يكن هناك من يبدو مستعداً لحلها. أو حتى محاولة حلها. بل انه لم يكن هناك من يجرؤ على الكلام فيها مع البنات. من خاف ظهورهن فقط، كان الكل مستعداً أن يقول، وان يحكى وأن يتكلم.

على أن عرابى الشايب كان أكثر أهل العزبة حزناً. ليس على مصير البنات. ولكن على نسل آل الميت. الذى وصل إلى البنات السبع. وأصبح مهدداً بعدم الإستمرار، أمر رهيب أن تنقرض عائلة لها أصول قديمة. أمام عينيه وهو لا يستطيع أن يفعل اى شئ. سوى الفرجة والحسرة والكلام.

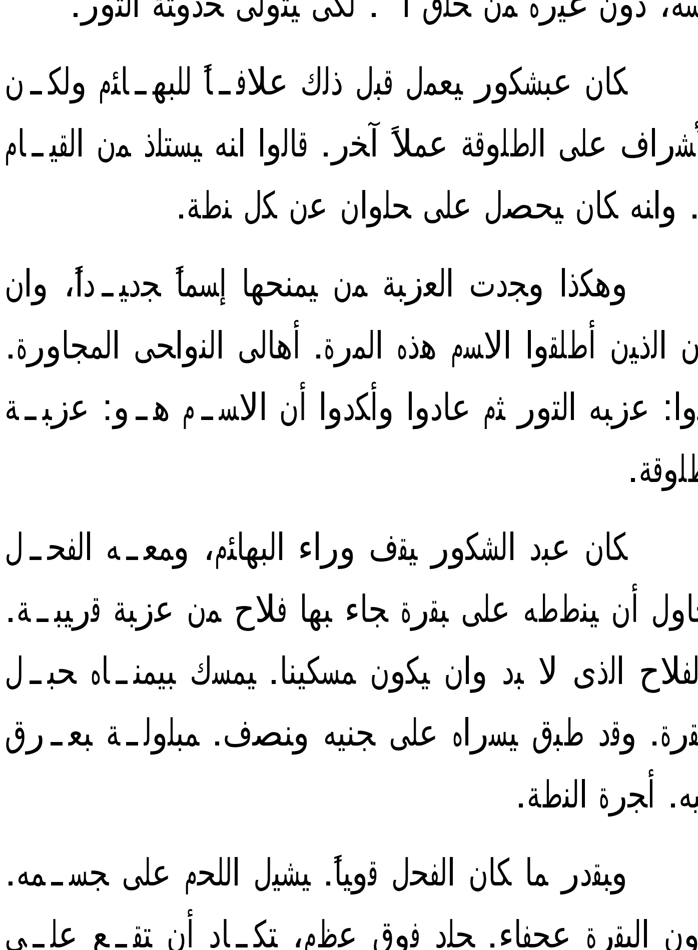
بعد العريس الذى لم يأت، رسمن الطفل الذى لن تراه واحدة منهن، منحنه اسمها ورسماً. وتناولت الكلمات مع دمع العين. تساءل الناس فى العزبة: هل مازالت فى المآقى دموع؟

يقول عرابى الشايب: انهـن كـن يرسـمن الطفـل المستحيل يوم الحيض. كن يجمعن الدماء. فالعادة تأتى لهـن فى وقت واحد. يغمسن أصابعهن. أصابع السـتات الطويلـة والجميلة والناعمة. فى الدماء. ويرسمن على الحيطان شـكل الطفل. فى البداية، كانت كل واحدة ترسـم طفـلاً يخصـها وحدها. ولكن مع مرور الوقت، وتسلل حالة من الحزن الى نفوسهن. بدأن يشتركن جميعاً فى رسم طفل واحـد. وكـل واحدة ترسم الجزء الذى تحب رسمه. الجزء الذى حلمت به لوحدها من الطفل. وفى النهاية يكون هناك طفـل اشـتركن جميعاً فى رسمه. وبعد أن ينتهى الرسم. تبدأ الخناقات علـى ملكية الطفل المرسوم.

هذا ما كان يجرى فى الليالى الطويلة..

- ١٢ -

لا أحد يعرف فى العزبة، من التى فكرت لأول مرة فى حكاية الطاوقة. و الصعوبة ناتجة مـن أن النـاس فـى العزبة لا يستطيعون التفرقة بدقة بـين الاخـوات السـبع. الملامح متقاربة، وهن يعشن فى عزلة تامـة عـن النـاس.



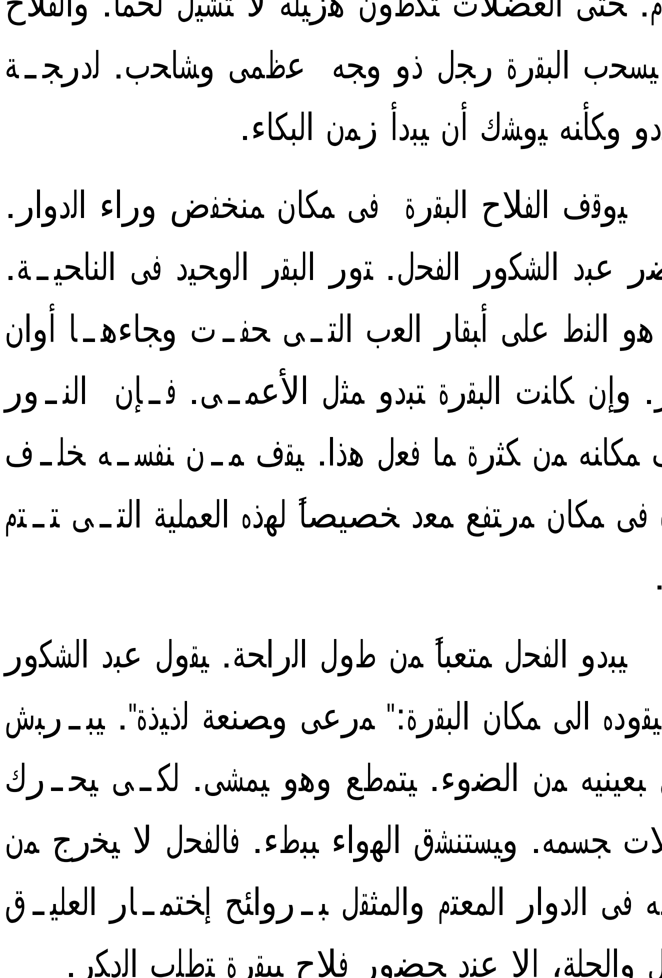
لدرجة أنه يقال فى العزبة، ربما فكرن مـرة واحـدة، فـى موضوع الطلوقة وهن أيضاً اللاتى إختـرن عبشـكور ذات نفسه، دون غيره من خلق ا . لكى يتولى حدوتة التور.

كان عبشكور يعمل قبل ذلك علافـاً للبهـائم ولكـن الأشراف على الطلوقة عملاً آخر. قالوا انه يستلذ من القيـام به. وانه كان يحصل على حلوان عن كل نطة.

وهكذا وجدت العزبة من يمنحها إسماً جديـداً، وان كان الذين أطلقوا الاسم هذه المرة. أهالى النواحى المجاورة. قالوا: عزبه التور ثم عادوا وأكدوا أن الاسـم هـو: عزبـة الطلوقة.

كان عبد الشكور يقف وراء البهائم، ومعـه الفحـل يحاول أن ينطاطه على بقرة جاء بها فلاح من عزبة قريبـة. والفلاح الذى لا بد وان يكون مسكينا. يمسك بيمنـاه حبـل البقرة. وقد طبق يسراه على جنيه ونصف. مبلولـة بعـرق يديه. أجرة النطة.

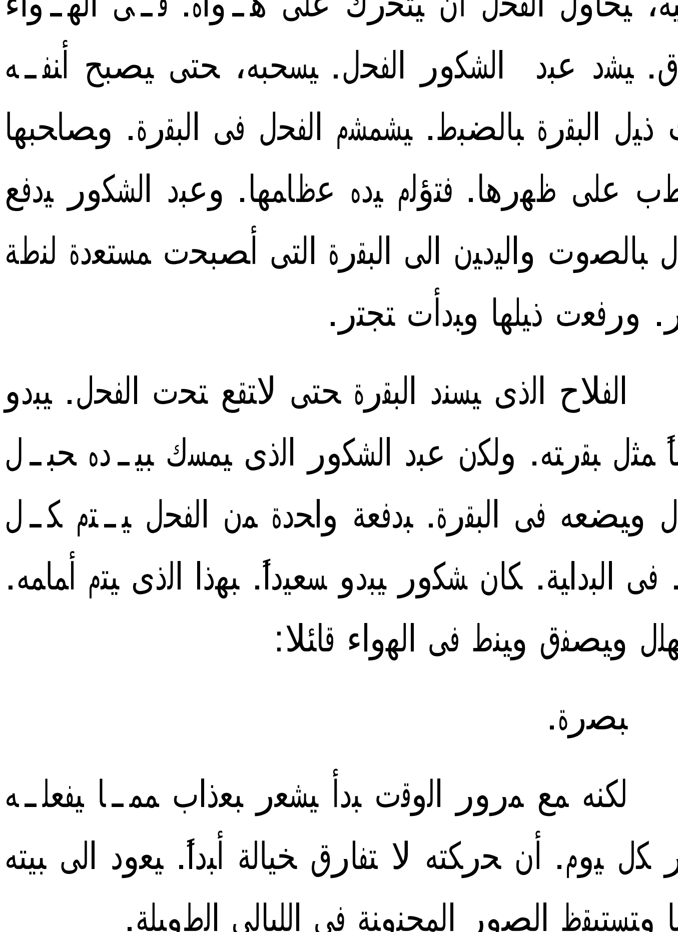
وبقدر ما كان الفحل قوياً. يشيل اللحم على جسـمه. تكون البقرة عجفاء. جلد فوق عظم، تكـاد أن تقـع علـى



الأرض من شدة الضعف، وأبقار الفقراء، هياكل معكونة من العظام. حتى العضلات تكطون هزيلة لا تشيل لحماً. والفلاح الذى يسحب البقرة رجل ذو وجه عظمى وشاحب. لدرجـة انه يبدو وكأنه يوشك أن يبدأ زمن البكاء.

يوقف الفلاح البقرة فى مكان منخفض وراء الدوار. ويحضر عبد الشكور الفحل. تور البقر الوحيد فى الناحيـة. عمله هو النط على أبقار العب التـى حفـت وجاءهـا أوان العشر. وإن كانت البقرة تبدو مثل الأعمـى. فـإن النـور يعرف مكانه من كثرة ما فعل هذا. يقف مـن نفسـه خلـف البقرة فى مكان مرتفع معد خصيصاً لهذه العملية التـى تـتم يومياً.

يبدو الفحل متعباً من طول الراحة. يقول عبد الشكور وهو يقوده الى مكان البقرة:" مرعى وصنعة لذيذة". يبـربش الفحل بعينيه من الضوء. يتمطع وهو يمشى. لكـى يحـرك عضلات جسمه. ويستنشق الهواء ببطء. فالفحل لا يخرج من مربطه فى الدوار المعتم والمثقل بـروائح إختمـار العليـق والبول والجلة، إلا عند حضور فلاح ببقرة تطلب الدكر.

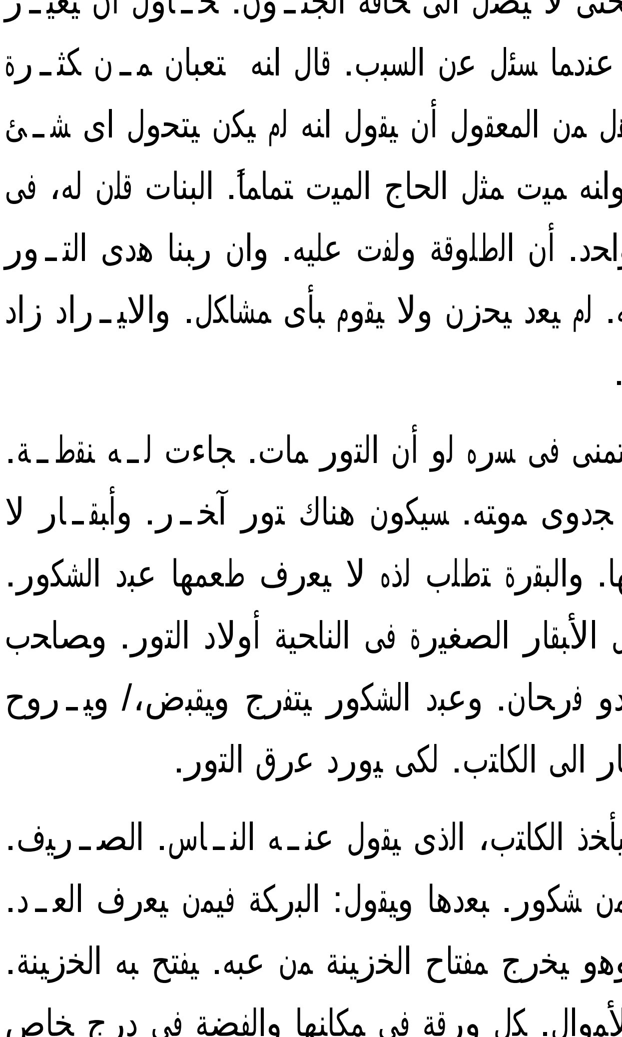


ولأن البقرة التى فى انتظار الفحل لا يوجد فيها ما يغريه، يحاول الفحل أن يتحرك على هواه. فى الهواء الطلق. يشد عبد الشكور الفحل. يسحبه، حتى يصبح أنفه تحت ذيل البقرة بالضبط. يشمشم الفحل فى البقرة. وصاحبها يطبطب على ظهرها. فتؤلم يده عظامها. وعبد الشكور يدفع الفحل بالصوت واليدين الى البقرة التى أصبحت مستعدة لنطة التور. ورفعت ذيلها وبدأت تجتر.

الفلاح الذى يسند البقرة حتى لاتقع تحت الفحل. يبدو متعباً مثل بقرته. ولكن عبد الشكور الذى يمسك بيده حبل الفحل ويضعه فى البقرة. بدفعة واحدة من الفحل يتم كل شئ. فى البداية. كان شكور يبدو سعيداً. بهذا الذى يتم أمامه. ثم يهلل ويصفق وينط فى الهواء قائلا:

بصرة.

لكنه مع مرور الوقت بدأ يشعر بعذاب مما يفعله التور كل يوم. أن حركته لا تفارق خيالة أبداً. يعود الى بيته فتحيا وتستيقظ الصور المجنونة فى الليالى الطويلة.



حتى لا يصل الى حافة الجنـون. حـاول أن يغيـر الشغلانه عندما سئل عن السبب. قال انه تعبان مـن كثـرة العمل، هل من المعقول أن يقول انه لم يكن يتحول اى شـئ بداخله؟ وانه ميت مثل الحاج الميت تماماً. البنات قلن له، فى صوت واحد. أن الطاوقة ولفت عليه. وان ربنا هدى التـور على يديه. لم يعد يحزن ولا يقوم بأى مشاكل. والايـراد زاد فى أيامه.

تمنى فى سره لو أن التور مات. جاءت لـه نقطـة. ولكن ما جدوى موته. سيكون هناك تور آخـر. وأبقـار لا حصر لها. والبقرة تطلب لذه لا يعرف طعمها عبد الشكور. ثم أن كل الأبقار الصغيرة فى الناحية أولاد التور. وصاحب البقرة يبدو فرحان. وعبد الشكور يتفرج ويقبض،/ ويـروح آحر النهار الى الكاتب. لكى يورد عرق التور.

يأخذ الكاتب، الذى يقول عنـه النـاس. الصـريف. الفلوس من شكور. بعدها ويقول: البركة فيمن يعرف العـد. يستدير وهو يخرج مفتاح الخزينة من عبه. يفتح به الخزينة. ويضع الأموال. كل ورقة فى مكانها والفضة فى درج خاص

بها. يقفل الخزينة ويسوجرها ويلف المفتاح فـى الـدوبارة المربوط بها ويضعه فى عبه.

يسأل:

- آدى عرق التور. عديناه وخزناه.

- طيب وعرق اللبى مشغل التور.

يبلع شكور ريقه مع السؤال ولكن الكاتب يقول:

- حيرت الخلايق يا بنى.

يقول له شكور، وهو لا يدرى كم مرة. جرى هـذا الكلام بينه وبين كاتب العزبة وصريفها من قبل:

- ليه يابا الصريف؟

يشوح الصريف بيده وكأن الأمر لم يعد يعنيه كثيراً:

- تانى. الجسم البطال نجس.

يشرح له:

- طول بعرض وبطال. دا موضوع يا راجـل ولا فى الحواديت.

وعندما يخرج شكور، كل يوم، من مكتب الصريف. يحاول أن يهيمن على الكلام. الذى أصبح يضيق من كثـرة سماعه له. لكن العيار الذى لا يصيب يدوش. والدوى علـى الودان امر من السحر.

وهكذا فعل الكلام فعله. وسرح فى نفـس عبشـكور حى دون أن يدرى. بدأ ينظر حوله. الأرض تحبل وتعشـر من سن المحراث. الذى يشقها. توضع البذرة وراء البـذرة، ويغمرها الماء. وتحبل الأرض. فى رحمها تنبـت البـذرة. تصبح الحبة عوداً. يشق قشرة الأرض، ويطلع. يشرب مـن قلب المحمل برذاذ الماء.

وتور شكور- هكذا يسميه الناس- إختصر المسافة بدلاً من وضع الناف على كتفيه، وتغمية عينيه. ويدور بدون نهاية فى الساقية، حتى تروى الأرض الشراقى بالماء. ها هو يعطى ماء الحياة لأبقار الحتة كلها. يساعده عبد الشكور فى اللحظة المقدسة. لدرجة أن الناس أصبحت تقول فى الناحيـة كلها: تور شكور.

وعندما يرغبون فى إغاظته، يختصـرون الكـلام. فتصبح الجملة: التور عبد الشكور. وعنـدما كـان يصـله

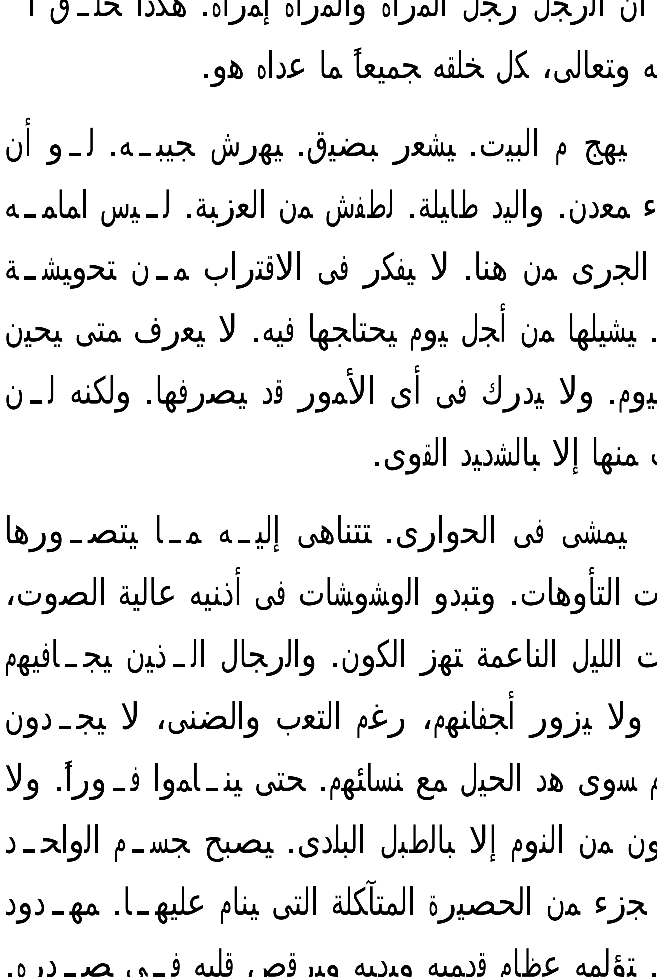
الكلام، كان عبد الشكور يقول: السلطان من هيبته، ينشتم فى غيبته.

ولكنه كان عندما يخلو إلى نفسه فى بيته الموحش، الذى يعيش فيه فردانى. يضرب كفاً بكف. التور عبشكور. يقول فى عقل باله، لأنه يخاف أن يستمع إليه احد من أهل العزبة. التور. يا ريت. هو أنا حصلت، أبقى زيه. واعز المنا.

يتوقف عن التفكير. الحيطان قادرة على أن تعرف ما يدور فى ذهنه. لكن عبد الشكور بدأ يضيق بالبيت والدار وبوقته وزمانه فى العزبة.

وفى النهارات البطيئة. يلف عبد الشكور ويدور فى العزبة ينام تحت شجرة الجميز العجوز. يضع قدميه فى الماء. تحت الطلمبة. يلعب بيديه فى تراب الأرض.

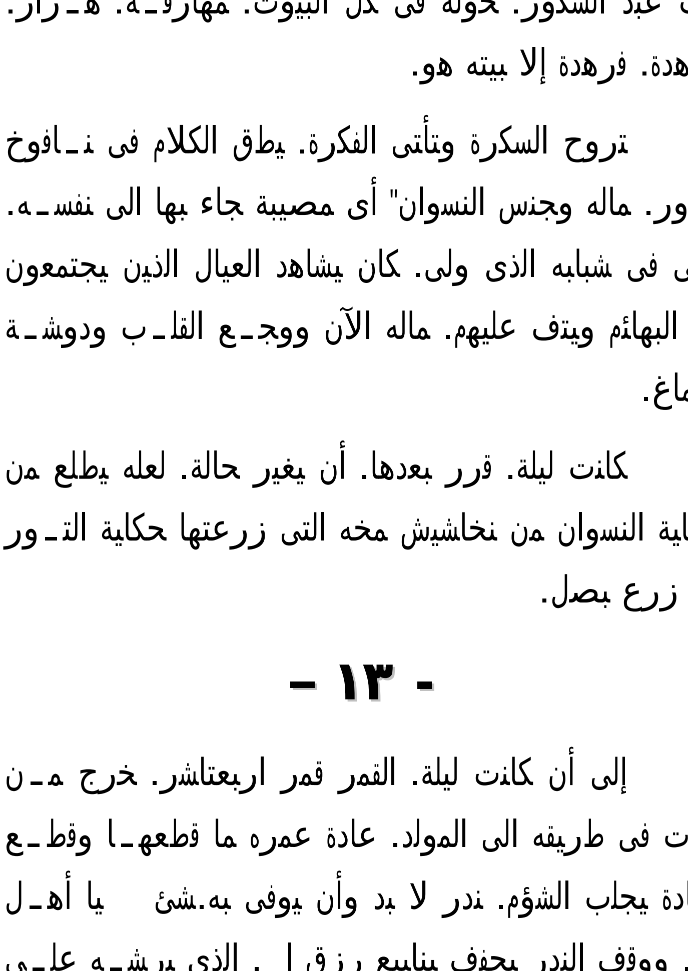
وفى الليل يتسكع الزمان وتموت الظلال. ونسوان العزبة، اللاتى يشعرن بالحنين للرجالة الخشنة الملمس. وبالرغبة فى شم رائحة عرقهم كل هذا يجعل عبد الشكور



يدرك أن الرجل رجل المرأة والمرأة إمرأة. هكذا خلـق ا
سبحانه وتعالى، كل خلقه جميعاً ما عداه هو.

يهج م البيت. يشعر بضيق. يهرش جيبـه. لـو أن الأشياء معدن. واليد طايلة. لطفش من العزبة. لـيس امامـه سوى الجرى من هنا. لا يفكر فى الاقتراب مـن تحويشـة العمر. يشيلها من أجل يوم يحتاجها فيه. لا يعرف متى يحين هذا اليوم. ولا يدرك فى أى الأمور قد يصرفها. ولكنه لـن يقترب منها إلا بالشديد القوى.

يمشى فى الحوارى. تتناهى إليـه مـا يتصـورها اصوات التأوهات. وتبدو الوشوشات فى أذنيه عالية الصوت، همسات الليل الناعمة تهز الكون. والرجال الـذين يجـافيهم النوم، ولا يزور أجفانهم، رغم التعب والضنى، لا يجـدون امامهم سوى هد الحيل مع نسائهم. حتى ينـاموا فـوراً. ولا يصحون من النوم إلا بالطبل البلدى. يصبح جسـم الواحـد منهم، جزء من الحصيرة المتآكلة التى ينام عليهـا. مهـدود الحيل. تؤلمه عظام قدميه ويديه ويرقص قلبه فـى صـدره. وكأنه يرقص رقصته الأخيرة يجرى هذا فى كل البيوت، إلا



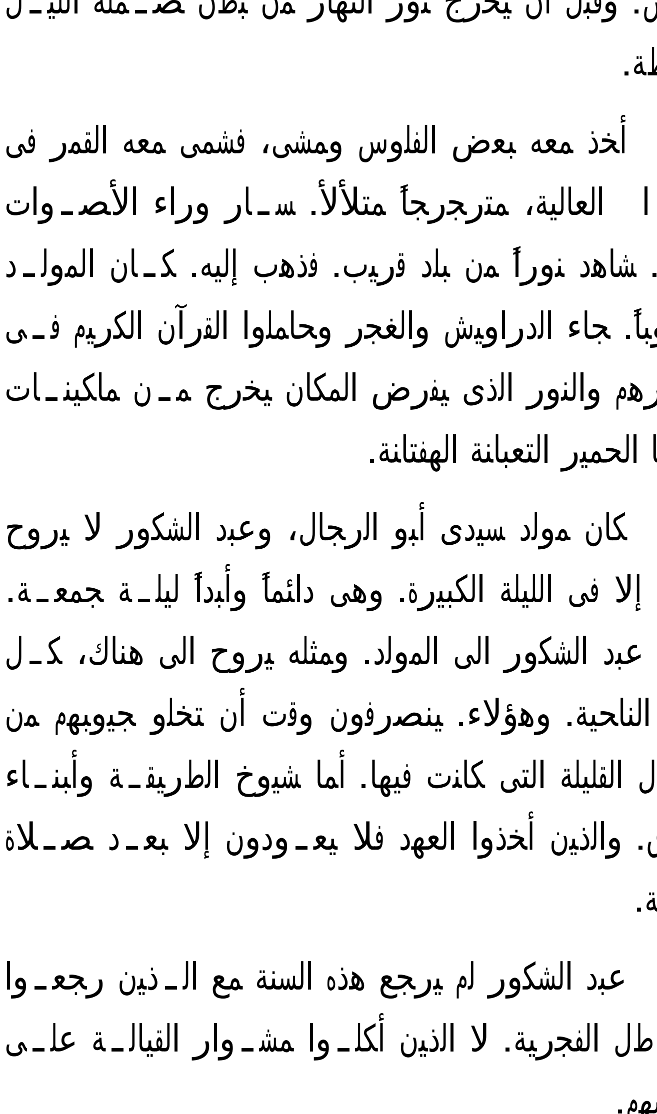
بيت عبد الشكور. حوله فى كل البيوت. مهارفـه. هـزاز. مفاهدة. فرهدة إلا بيته هو.

تروح السكرة وتأتى الفكرة. يطق الكلام فى نـافوخ شكور. ماله وجنس النسوان" أى مصيبة جاء بها الى نفسـه. حتى فى شبابه الذى ولى. كان يشاهد العيال الذين يجتمعون مع البهائم ويتف عليهم. ماله الآن ووجـع القلـب ودوشـة الدماغ.

كانت ليلة. قرر بعدها. أن يغير حالة. لعله يطلع من حكاية النسوان من نخاشيش مخه التى زرعتها حكاية التـور فيه زرع بصل.

- ١٣ -

إلى أن كانت ليلة. القمر قمر اربعتاشر. خرج مـن البيت فى طريقه الى المولد. عادة عمره ما قطعهـا وقطـع العادة يجلب الشؤم. ندر لا بد وأن يوفى به.شئ يا أهـل ا . ووقف الندر يجفف ينابيع رزق ا . الذى يرشـه علـى الأرض والعباد والحيوانات والحشرات والنباتات قبل بكـة



الشمس. وقبل أن يخرج نور النهار من بطن ضـملة الليـل الغويطة.

أخذ معه بعض الفلوس ومشى، فشمى معه القمر فى سماء ا العالية، مترجرجاً متلألأ. سـار وراء الأصـوات الليلية. شاهد نوراً من بلد قريب. فذهب إليه. كـان المولـد منصوباً. جاء الدراويش والغجر وحاملوا القرآن الكريم فـى صدورهم والنور الذى يفرض المكان يخرج مـن ماكينـات تجرها الحمير التعبانة الهفتانة.

كان مولد سيدى أبو الرجال، وعبد الشكور لا يروح المولد إلا فى الليلة الكبيرة. وهى دائماً وأبداً ليلـة جمعـة. يذهب عبد الشكور الى المولد. ومثله يروح الى هناك، كـل أولاد الناحية. وهؤلاء. ينصرفون وقت أن تخلو جيوبهم من الأموال القليلة التى كانت فيها. أما شيوخ الطريقـة وأبنـاء الطرق. والذين أخذوا العهد فلا يعـودون إلا بعـد صـلاة الجمعة.

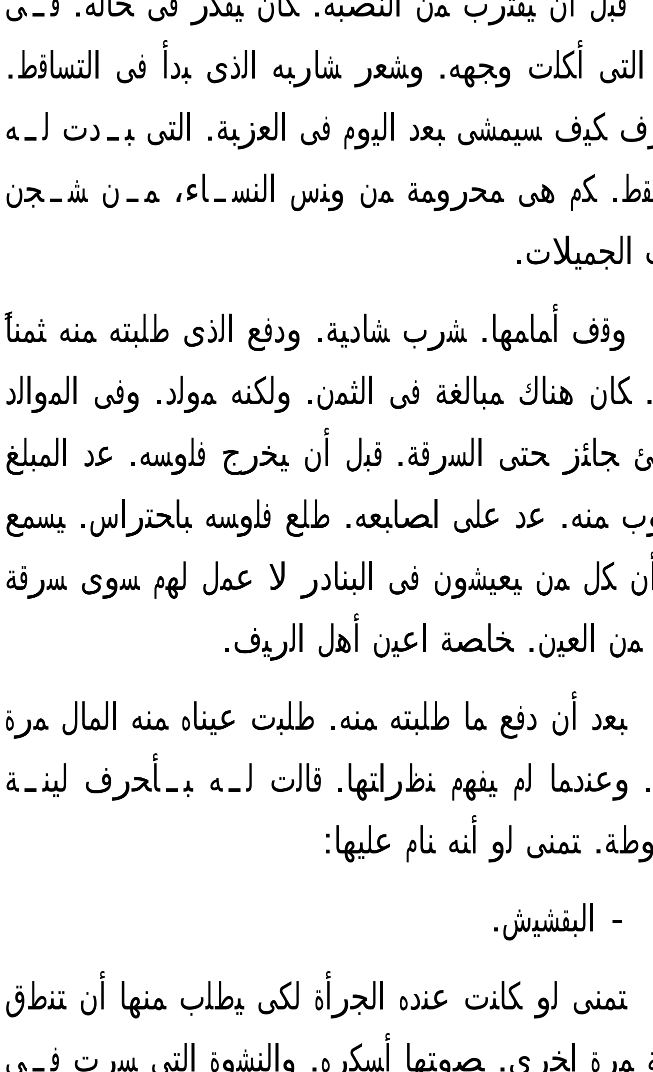
عبد الشكور لم يرجع هذه السنة مع الـذين رجعـوا تحت طل الفجرية. لا الذين أكلـوا مشـوار القيالـة علـى رءوسهم.

فى المولد أسلم نفسه لعالم من الألـوان الملعلطـة. وفعل مثلما يفعل الآخرون. كان قد وشوش الدكر. تكلم عما بنفسه. الدكر يبحث عن أنثاه. ها هو الوليـف ولكـن أيـن الوليفة. حضنه يطلب الحضـن الطـرى. خاصـة بعـد أن خاصمه النوم وهرب منه المنام.

والذين عادوا الى الغربة قبل عبشكور، قـالوا انـه سحر للتور وعنمل له عملاً. والبعض منهم أكد أن عبشكور بقى فى المولد حتى يصل الجمعة لأول مرة. وناظر العزبـة غضب. وقال انه سيصلى الجمعة جماعة هناك. التور مـن سينطله على الأبقار. يوم الجمعة يحضر ولكن له الجميـع، ولا يستطيع أحد غير عبد الشكور أن يقترب من التور.

- ١٤ -

ولكن ما جرى لعبد الشكور فى المولد حكاية أخرى. بعد أن لف وداخ. وقف عند غرزة لكى يشرب شاياً. شـاى سوقى فى لون دم الغلابة. الذين يملأون العزبة. شئ يسد به جوعه. ويملأ بطنه. بدلاً من الفراغ الذى بدأ يشعر به.



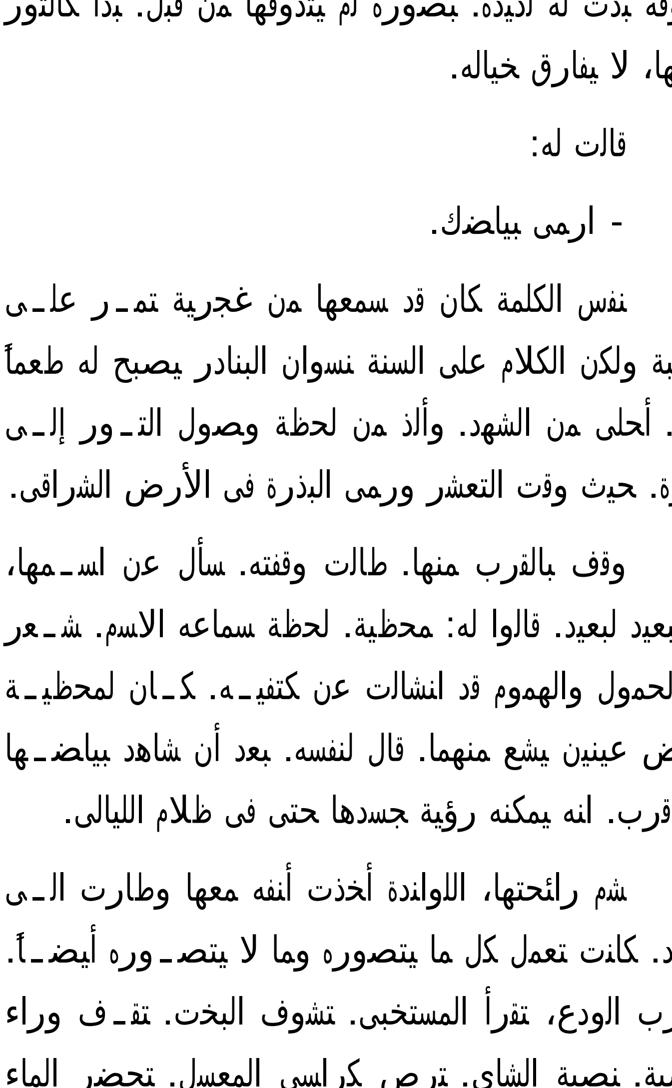
قبل أن يقترب من النصبة. كان يفكر فى حاله. فـى الناس التى أكلت وجهه. وشعر شاربه الذى بدأ فى التساقط. لا يعرف كيف سيمشى بعد اليوم فى العزبة. التى بـدت لـه الآن فقط. كم هى محرومة من ونس النسـاء، مـن شـجن الفتيات الجميلات.

وقف أمامها. شرب شادية. ودفع الذى طلبته منه ثمناً للشاى. كان هناك مبالغة فى الثمن. ولكنه مولد. وفى الموالد كل شئ جائز حتى السرقة. قبل أن يخرج فلوسه. عد المبلغ المطلوب منه. عد على اصابعه. طلع فلوسه باحتراس. يسمع دائماً أن كل من يعيشون فى البنادر لا عمل لهم سوى سرقة الكحل من العين. خاصة اعين أهل الريف.

بعد أن دفع ما طلبته منه. طلبت عيناه منه المال مرة أخرى. وعندما لم يفهم نظراتها. قالت لـه بـأحرف لينـة وممطوطة. تمنى لو أنه نام عليها:

- البقشيش.

تمنى لو كانت عنده الجرأة لكى يطلب منها أن تنطق بالكلمة مرة اخرى. صوتها أسكره. والنشوة التى سرت فـى



عروقه بدت له لذيذة. بصورة لم يتذوقها من قبل. بدأ كالتور أمامها، لا يفارق خياله.

قالت له:

- ارمى بياضك.

نفس الكلمة كان قد سمعها من غجرية تمـر علـى العزبة ولكن الكلام على السنة نسوان البنادر يصبح له طعماً آخر. أحلى من الشهد. وألذ من لحظة وصول التـور إلـى البقرة. حيث وقت التعشر ورمى البذرة فى الأرض الشراقى.

وقف بالقرب منها. طالت وقفته. سأل عن اسـمها، من بعيد لبعيد. قالوا له: محظية. لحظة سماعه الاسم. شـعر أن الحمول والهموم قد انشالت عن كتفيـه. كـان لمحظيـة وميض عينين يشع منهما. قال لنفسه. بعد أن شاهد بياضـها عن قرب. انه يمكنه رؤية جسدها حتى فى ظلام الليالى.

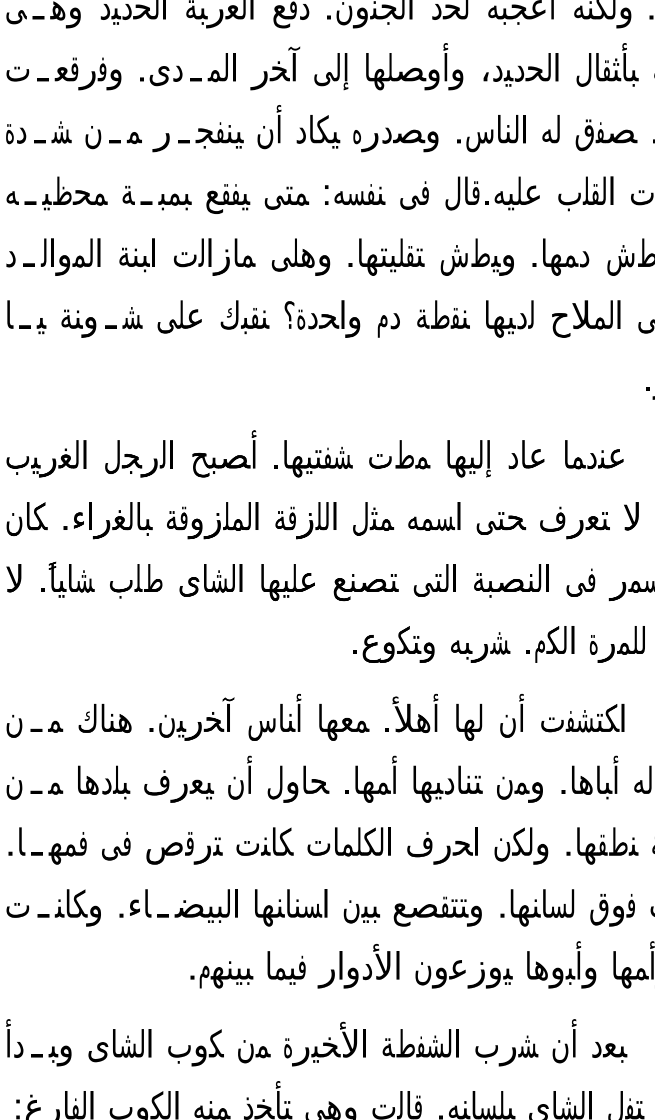
شم رائحتها، اللواندة أخذت أنفه معها وطارت الـى البعيد. كانت تعمل كل ما يتصوره وما لا يتصـوره أيضـاً. تضرب الودع، تقرأ المستخبى. تشوف البخت. تقـف وراء النصبة. نصبة الشاى. ترص كراسى المعسل. تحضر الماء

وما أكثر العطاش. رأى مشيتها. راقصة عذبة. لا ينقصـها سوى الدربكة والصاجات وتصفيق المهـاويش. ويغـرزون الجنيهات ام مادنه وسط نهديها.

تحركت فرقص الهواء طرباً من حولها. وقفت فـلا مس شعر رأسها الذى يكب لوناً أحمر. سـماء ا السـابعة ذات نفسها. حته نتفه نتابه. قال شكور لنفسه وهو يتسكع فى المولد " اما البقرة " قالها ولعابه يسيل. ها هى البقرة. ولكنه ترك التور فى العزبة. فمن ينط له عليها؟ مهـرة. رهـوان. سبحان من صور.

لف فى المولد، وكنه عاد إليها. نقر فى حلقـة ذكـر تطوع فى الهواء. وقال مع من حوله" ا حى.. ا حـى". أخذته الجلالة، وبدأو يوشوشون له فى أذنيه " وحد ا ، وحد ا ، ولكنه لم يهدأ باله. ولم يصف خاطره. إلا عندما عادت خيوط النظرات تشده إليها من جديد.

بعد الذكر، جاء دور اللعب. جرب حظـه. أمسـك البندقية ونشن وضرب فى المليان. كسب وأخذ مكسبه مـن نتاية أخرى. صوتها عبارة عن كلمات ممطوطة. ولكنه لـم يعد قادراً على أن يرى صوى محظيه. لـم يفهـم معنـى



اسمها. ولكنه أعجبه لحد الجنون. دفع العربة الحديد وهى محملة بأثقال الحديد، وأوصلها إلى آخر المدى. وفرقعت البمبة. صفق له الناس. وصدره يكاد أن ينفجر من شدة ضربات القلب عليه.قال فى نفسه: متى يفقع بمبة محظيه ويطرطش دمها. ويطش تقليتها. وهلى مازالت ابنة الموالد والليالى الملاح لديها نقطة دم واحدة؟ نقبك على شونة يا شكور.

عندما عاد إليها مطت شفتيها. أصبح الرجل الغريب والذى لا تعرف حتى اسمه مثل اللزقة المازوقة بالغراء. كان قد تمسمر فى النصبة التى تصنع عليها الشاى طلب شاياً. لا تدرى للمرة الكم. شربه وتكوع.

اكتشفت أن لها أهلاً. معها أناس آخرين. هناك من تقوله له أباها. ومن تناديها أمها. حاول أن يعرف بلدها من طريقة نطقها. ولكن احرف الكلمات كانت ترقص فى فمها. وتلعب فوق لسانها. وتتقصع بين اسنانها البيضاء. وكانت هى وأمها وأبوها يوزعون الأدوار فيما بينهم.

بعد أن شرب الشفطة الأخيرة من كوب الشاى وبدأ يلحس تفل الشاى بلسانه. قالت وهى تأخذ منه الكوب الفارغ:

- زق عجلك.

إستفهم منها. فقالت:

- طريقك زراعى يا بلطز

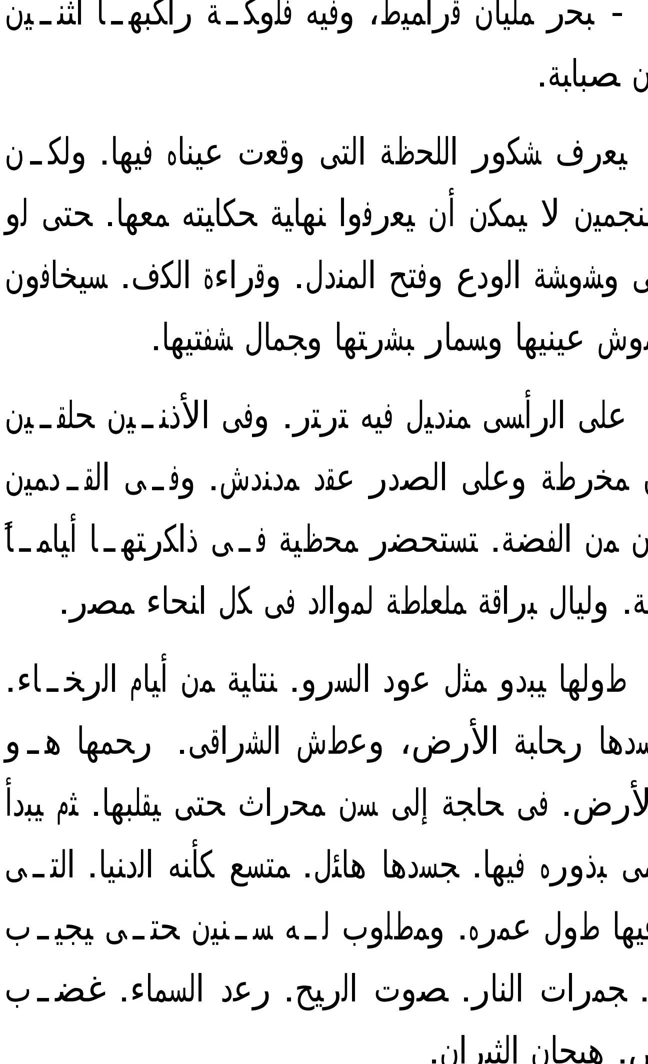
قال أنه لن يتحرك من مكانه ولا بالطيـل البلـدى. ضحكت وقالت له وهى تدفعه فى صدره:

أشارت للنصـبة والبـراد والأكـواب. وخلـق ا المترصصين حولها. والأرزاق التى وزعها الخـلاق علـى عباده. أمامها عدة الشغل. وتحتها المونة. وهذه هـى الليلـة الكبيرة. رزقها لا يتكرر سوى فى ليلة كبيرة أخرى. لا أحد يعرف متى تأتى. ولا أين. قال انه لن يتزحزح من مطرحـه ولا بالبوليس ذات نفسه. الحكيم وصف لعلته الشاى. شـاى من يديها. كوب وراء كوب.

قالت له:

- بطنك بحر.

استهواه الحكى معها:



- بحر مليان قراميط، وفيه فلوكـة راكبهـا اثنـين مغرمين صبابة.

يعرف شكور اللحظة التى وقعت عيناه فيها. ولكـن كل المنجمين لا يمكن أن يعرفوا نهاية حكايته معها. حتى لو عاد إلى وشوشة الودع وفتح المندل. وقراءة الكف. سيخافون من رموش عينيها وسمار بشرتها وجمال شفتيها.

على الرأسى منديل فيه ترتر. وفى الأذنـين حلقـين كبيرين مخرطة وعلى الصدر عقد مدندش. وفـى القـدمين خلخالين من الفضة. تستحضر محظية فـى ذاكرتهـا أيامـاً متوهجة. وليال براقة ملعاطة لموالد فى كل انحاء مصر.

طولها يبدو مثل عود السرو. نتاية من أيام الرخـاء. فى جسدها رحابة الأرض، وعطش الشراقى. رحمها هـو بطن الأرض. فى حاجة إلى سن محراث حتى يقلبها. ثم يبدأ فى رمى بذوره فيها. جسدها هائل. متسع كأنه الدنيا. التـى مشى فيها طول عمره. ومطلوب لـه سـنين حتـى يجيـب آخرها. جمرات النار. صوت الريح. رعد السماء. غضـب الأراض. هيجان الثيران.

فى آخر السهرة. قالت له بالمختصر المفيد:

- قول وخلصنا

قال:

- هيمان

قالت بحسم:

- يبقى تتجوزنى الليلة.

تمحك وهرش فى عرق الهيافة:

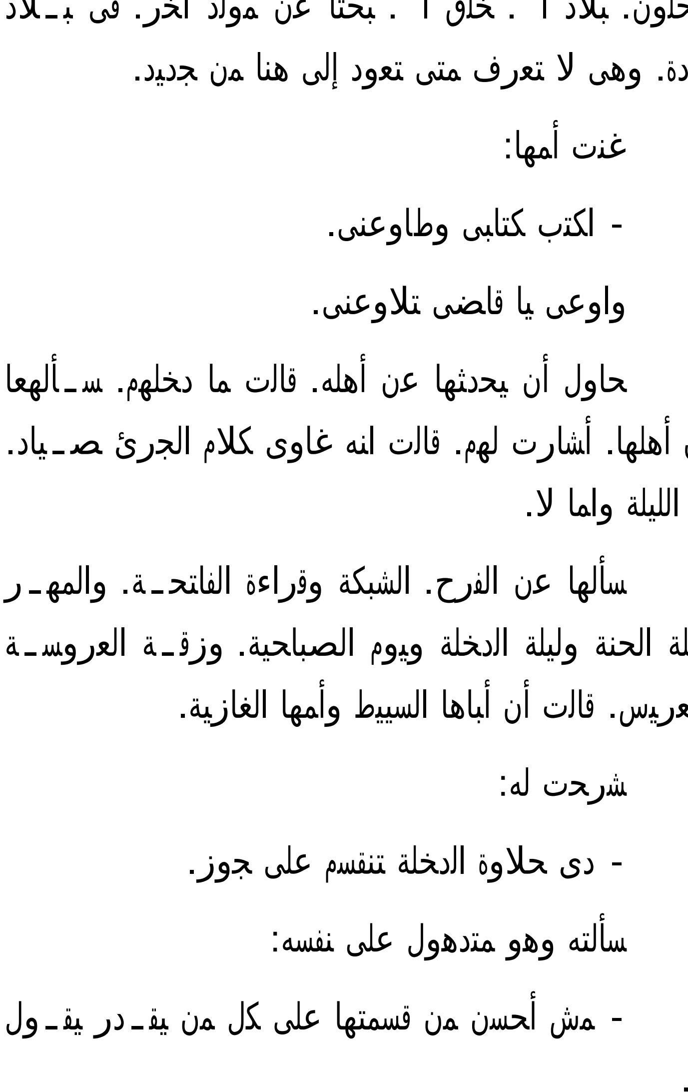
- المأذون نلاقيه فين؟!

كانت الكلمات تقف على طرف لسانها:

- فى المولد مأذون.

اكتشف وهو يستمع إليها انه مغرم صبابة، ولهـان. لمست يده يدها خلسة. شعر أن شقوق أصابعه قد اسـتراحت لأنامل أصابعها النواعم.

طلب وقتاً حتى يشاور نفسه. يأخذ الأمر وقته معـه. يقلبه فى دماغه. رفضت. إما أن يكتب عليها الليلـة. أو أن يوريها عرض أكتافه. الليلة هى الليلة الكبيرة. فى الفجريـة



يرحلون. بلاد ا . خلق ا . بحثاً عن مولد آخر. فى بـلاد بعيدة. وهى لا تعرف متى تعود إلى هنا من جديد.

غنت أمها:

- اكتب كتابى وطاوعنى.

واوعى يا قاضى تلاوعنى.

حاول أن يحدثها عن أهله. قالت ما دخلهم. سـألهعا عن أهلها. أشارت لهم. قالت انه غاوى كلام الجرئ صـياد. اما الليلة واما لا.

سألها عن الفرح. الشبكة وقراءة الفاتحـة. والمهـر وليلة الحنة وليلة الدخلة ويوم الصباحية. وزفـة العروسـة والعريس. قالت أن أباها السييط وأمها الغازية.

شرحت له:

- دى حلاوة الدخلة تنقسم على جوز.

سألته وهو متدهول على نفسه:

- مش أحسن من قسمتها على كل من يقـدر يقـول ا .

قالت أمها لزبون آخر الليل، وهى تحاسبه:

- اشرب قهوتك وسمعنا خطوتك ورانا جـواز يـا بلادينا.

وكانت البنت قد لفت دماغ الجدع، وجابته تحـت باطها شرب شايه، لم يعد قادراً على حساب. كم شاياً شربه. وقبل أن يمضى. قالت فى نفسها. انـه عامـل مثـل لـوح العجين. وهو يمشى. سمعها. كانت تغنى لنفسها:

- ياسم هزاز.

أنا قلبى قزاز.

لو مات عليه

راح يتفرتك.

أخذ لفته الثالثة أو الرابعة فـى المولـد. حـاول أن يهرب منها. أن يبتعد عنها. ولكنه عاد إليها. دون ارادة منه. حام حولها. وما أن رأته حتى قالت للهواء:

- خلى بالك لحسن تتكعبل فى النملة.

لم يرد عليها. قال فى نفسه. أن بنت المولـد تلقـح عليه. و احدة رفعت منذ زمان برقع الحياء. عيارها فالـت. شعر أنها نتاية. بحرها غويط. ليس له قرار. ومع هذا أحس انه مربوط لها بحبال لا يستطيع رؤيتها. ولا يمكنه أن يفكها.

سأل عن أنواع المشاريب الأخرى عندهم. وطلب من كل صنف كوب. فهمت هدفه. كادت أن تسأله عن غرضـه وهو لقط السؤال من فوق ملامح وجهها.

قال لها:

- عايزك

رفست الأرض بقدميها:

- مش كل الطير اللى يتاكل لحمه.

خبط صدره:

- فهمتينى غلط يا بت الناس

بلع ريقه بصعوبة

- عايزك فى الحلال.

شاورت على مقام سيدى ابـو الرجـال، صـاحب المولد:

- على سنة ا ورسوله.

ردد وراءها:

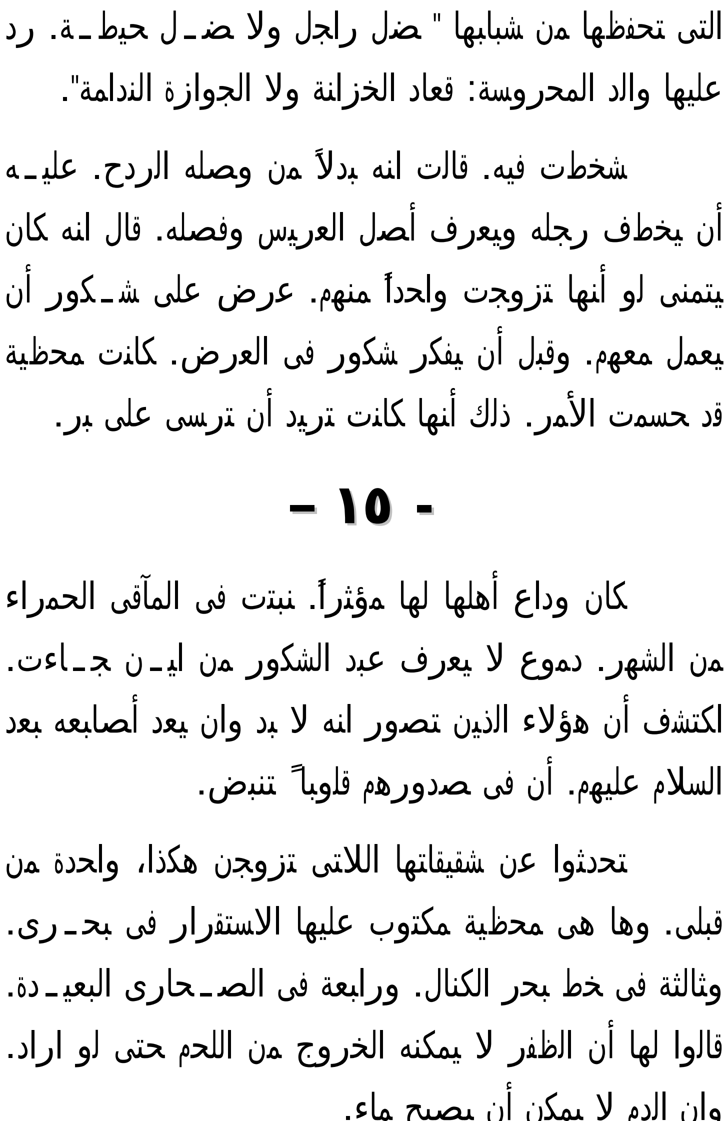
- المأذون هوه اللى حا يعقد لينا. وحا أجيب اثنـين شهود.

قالت فى عقل بالها، نفسى بالى يرتاح، وقلبى يهـدأ، الرمح فى السكك هد حيلها. والطرق أكلت منها راقات. طول عمرها، يقولون عنها، رد سكك. مرد والـد. رد أفـراح. و ليالى ملامح. وهى الآن تريد أن تحط على الأرض.

كان ابوها متردداً. البنت تشيل الشغل على أكتافهـا. شاطرة وعفية. ولكن أمها حسمت الأمر:

- الجواز للبنت سترة. المرة من غير راجـل. زى البهيمة من غير صاحب.

سمعها شكور فتذكر الطاوقة فـى العزبـة. وأبقـار الناس الغلابة. قال والد المحروسة، أنه لا يعتـرض علـى الجواز. ولكن من يعرف العريس؟ استحضرت أمها الأمثال



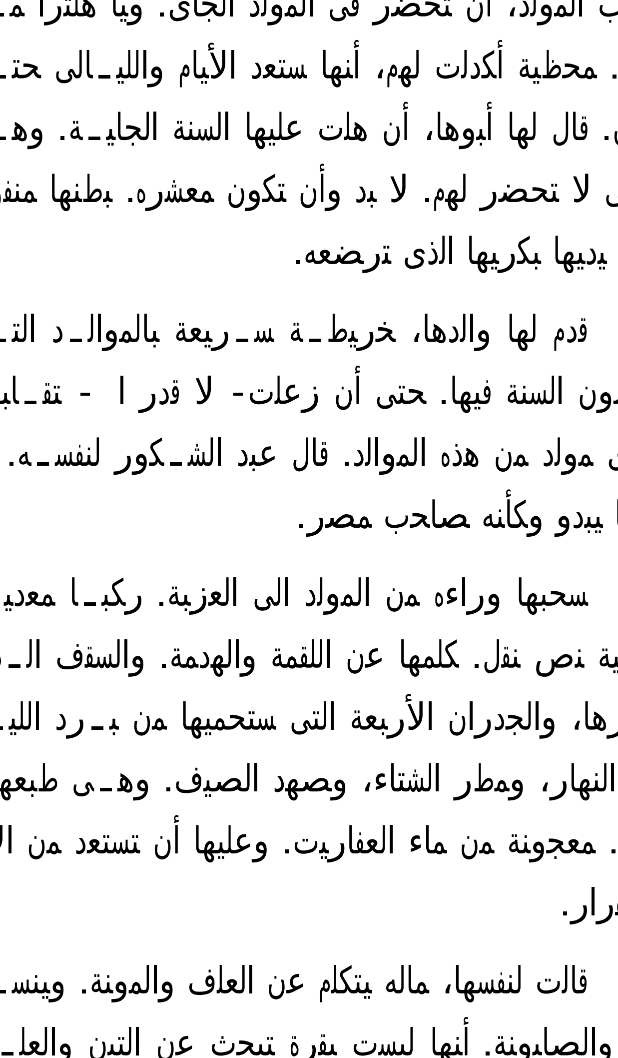
التى تحفظها من شبابها " ضل راجل ولا ضـل حيطـة. رد عليها والد المحروسة: قعاد الخزانة ولا الجوازة الندامة".

شخطت فيه. قالت انه بدلاً من وصله الردح. عليـه أن يخطف رجله ويعرف أصل العريس وفصله. قال انه كان يتمنى لو أنها تزوجت واحداً منهم. عرض على شـكور أن يعمل معهم. وقبل أن يفكر شكور فى العرض. كانت محظية قد حسمت الأمر. ذاك أنها كانت تريد أن ترسى على بر.

- ١٥ -

كان وداع أهلها لها مؤثراً. نبتت فى المآقى الحمراء من الشهر. دموع لا يعرف عبد الشكور من ايـن جـاءت. اكتشف أن هؤلاء الذين تصور انه لا بد وان يعد أصابعه بعد السلام عليهم. أن فى صدورهم قلوباً تنبض.

تحدثوا عن شقيقاتها اللاتى تزوجن هكذا، واحدة من قبلى. وها هى محظية مكتوب عليها الاستقرار فى بحـرى. وثالثة فى خط بحر الكنال. ورابعة فى الصـحارى البعيـدة. قالوا لها أن الظفر لا يمكنه الخروج من اللحم حتى لو اراد. وان الدم لا يمكن أن يصبح ماء.

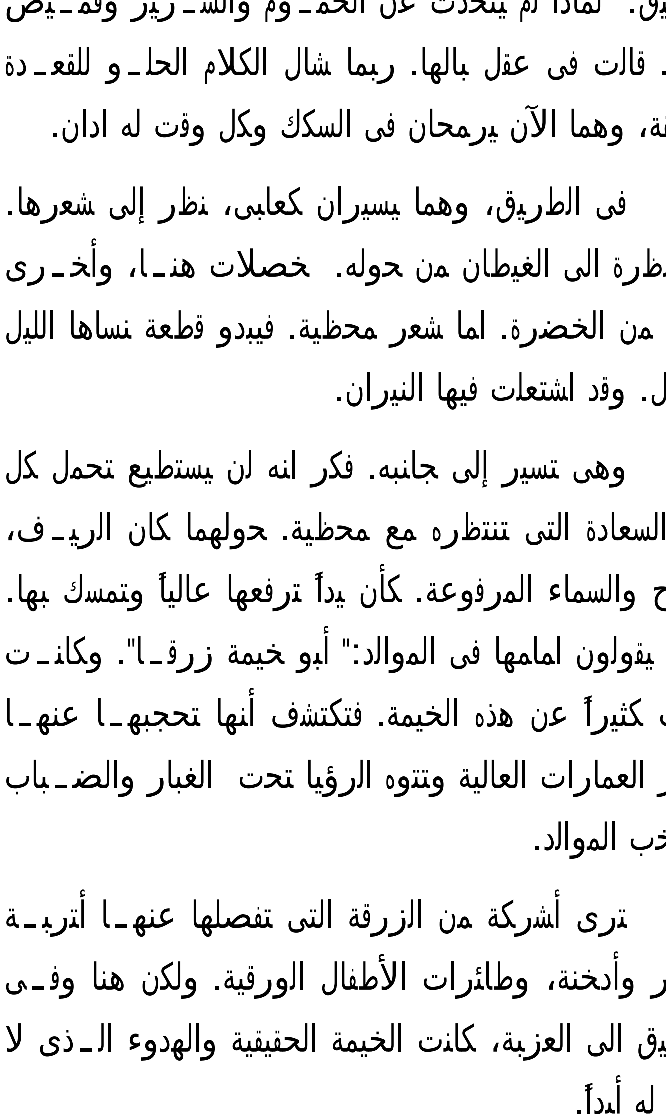


حلفاها بالغالى والعزيز، ورحمة من مـاتوا، ومقـام صاحب المولد، أن تحضر فى المولد الجاى. ويا هلترا مـن يعيش. محظية أكدلت لهم، أنها ستعد الأيام والليـالى حتـى يلتقون. قال لها أبوها، أن هات عليها السنة الجايـة. وهـى فردانى لا تحضر لهم. لا بد وأن تكون معشره. بطنها منفوخ وعلى يديها بكريها الذى ترضعه.

قدم لها والدها، خريطـة سـريعة بالموالـد التـى سيقضون السنة فيها. حتى أن زعلت- لا قدر ا - تقـابلهم فى أى مولد من هذه الموالد. قال عبد الشـكور لنفسـه. أن والدها يبدو وكأنه صاحب مصر.

سحبها وراءه من المولد الى العزبة. ركبـا معديـة وعربية نص نقل. كلمها عن اللقمة والهدمة. والسقف الـذى سيسترها، والجدران الأربعة التى ستحميها من بـرد الليـل وحر النهار، ومطر الشتاء، وصهد الصيف. وهـى طبعهـا حامى. معجونة من ماء العفاريت. وعليها أن تستعد من الآن للاستقرار.

قالت لنفسها، ماله يتكلم عن العلاف والمونة. وينسـى الليفة والصابونة. أنها ليست بقرة تبحث عن التبن والعلـف

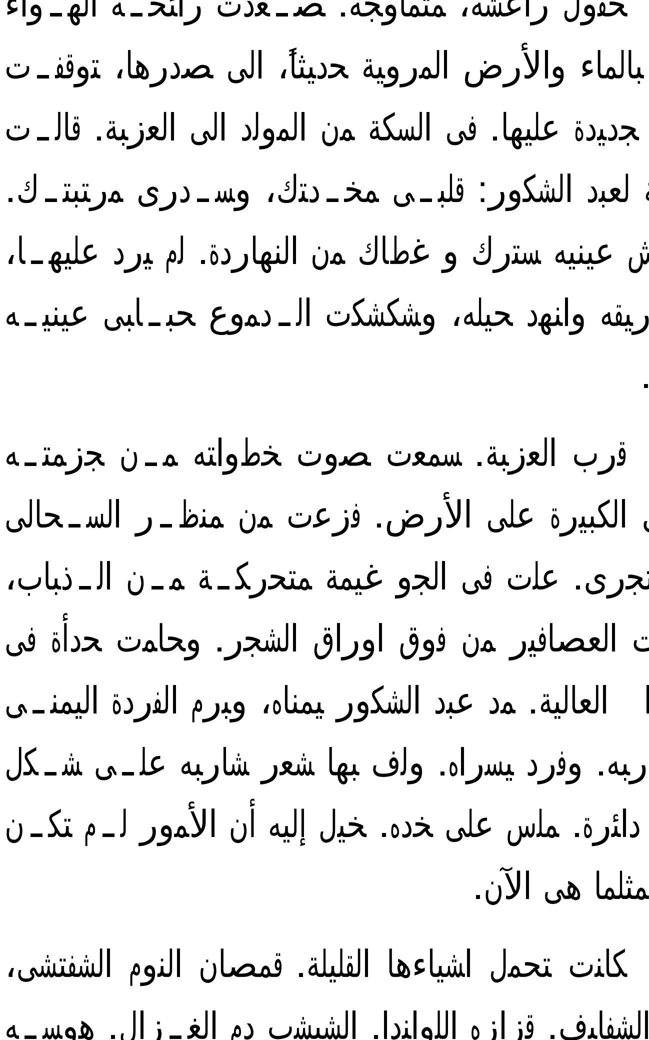


والعليق. لماذا لم يتحدث عن الحموم والسرير وقميص النوم. قالت فى عقل بالها. ربما شال الكلام الحلو للقعدة الرايقة، وهما الآن يرمحان فى السكك وكل وقت له اذان.

فى الطريق، وهما يسيران كعابى، نظر إلى شعرها. نقل نظرة الى الغيطان من حوله. خصلات هنا، وأخرى هناك من الخضرة. اما شعر محظية. فيبدو قطعة نساها الليل ورحل. وقد اشتعلت فيها النيران.

وهى تسير إلى جانبه. فكر انه لن يستطيع تحمل كل هذه السعادة التى تنتظره مع محظية. حولهما كان الريف، البراح والسماء المرفوعة. كأن يداً ترفعها عالياً وتمسك بها. كانوا يقولون امامها فى الموالد:" أبو خيمة زرقا". وكانت تبحث كثيراً عن هذه الخيمة. فتكتشف أنها تحجبها عنها ستائر العمارات العالية وتتوه الرؤيا تحت الغبار والضباب وصخب الموالد.

ترى أشركة من الزرقة التى تفصلها عنها أتربة وغبار وأدخنة، وطائرات الأطفال الورقية. ولكن هنا وفى الطريق الى العزبة، كانت الخيمة الحقيقية والهدوء الذى لا نهاية له أبداً.



حقول راعشة، متماوجه. صـعدت رائحـة الهـواء المبلل بالماء والأرض المروية حديثاً، الى صدرها، توقفـت روائح جديدة عليها. فى السكة من المولد الى العزبة. قالـت محظية لعبد الشكور: قلبـى مخـدتك، وسـدرى مرتبتـك. ورموش عينيه سترك و غطاك من النهاردة. لم يرد عليهـا، نشف ريقه وانهد حيله، وشكشكت الـدموع حبـابى عينيـه فسكت.

قرب العزبة. سمعت صوت خطواته مـن جزمتـه الميرى الكبيرة على الأرض. فزعت من منظـر السـحالى وهى تجرى. علت فى الجو غيمة متحركـة مـن الـذباب، وطارت العصافير من فوق اوراق الشجر. وحامت حدأة فى سماء ا العالية. مد عبد الشكور يمناه، وبرم الفردة اليمنـى من شاربه. وفرد يسراه. ولف بها شعر شاربه علـى شـكل نصف دائرة. ملس على خده. خيل إليه أن الأمور لـم تكـن حسنة مثلما هى الآن.

كانت تحمل اشياءها القليلة. قمصان النوم الشفتشى، أحمر الشفايف. قزازه اللواندا. الشبشب دم الغـزال. هوسـه

منظر الفساتين ذات الألوان الصارخة. والمرآة علـى شـكل قلب. مرود الكحل.

غنت لنفسها:

- البنت سن تلاتاشر.

والوش قمر اربعتاشر.

والجسم ما شاء ا   راخر.

نظرت إلى العزبة. جاشت نفسـها بلحظـة فـرح. تزوجت وحيدة وجدت نفسها تحاول من جديد أن تغنى:

- هوه ضربنى بالدبوس.

وأنا ضربته بالدبوس.

طول الليل. يحضن ويدوس.

يا وعدى.

وقف عبد الشكور فى مكانه. نظر إليها. بعينى رجل آخر. زجرها وقف. الناس يشاهدونه من بعيـد. أوشـك أن يضربها.

قالت له:

- هيه كده من أولها.

رد عليها، وهو يخشى أن تتركه وتمشى:

- اللى أوله شرط آخره نور.

ضحكت:

- تانى، حفضناها. قول حاجة جديدة.

تحركت قبله نحو العزبة:

- ما تبقاش تقف.

زعق فيها.

- نعم يا بت انت.

ساعة أن وصل شـكور للعزبـة، ووراءه النتايـة الغرباوية التى كانت تبحلق فى النـاس و الأشـياء بعينـين مفنجلتين. قال الرجال:

- شكور دخل الجنة برجليه. ما بدهاش كلام.

وقلبوا فلبى حديثهم القديم. والجديد.

ساعة ما وصل شكور للعزبة، تمشى وراءه المرأة الغرباوية. قالوا:

- غرباوى اتلم على غرباوية. يبقوا حايخلفوا شـيخ منسر.

وأهل العزبة قالوا أن شكور من حقه الآن أن يلـون بيته ويرسم على جدرانه، وان يركب باباً قويـاً علـى داره. حتى يحميه من الجدعان. الذى سـيحاولون كسـر البـاب المصنوع من الورق. والذى كان يقف علـى شـكور قبـل حضور الغرباوية.

عندما شاهد عرابـى الشـايب المـرأة الغرباويـة. اكتشف- ولأول مرة- انه من الصعب العثور على كلمـات على قد غصنها وقوامها. كلمـات يمكنـه أن يشـكل منهـا حكايات تفصل عليها مثل التوب.

قال عرابى الشايب: أن النسوان صنفان، نوع بيتـى يولف، يريد أن يعيش. وصنف براوى من سكة لسكة. مـن عش لعش.. من راجل لراجل. وهذه الغرباوية التى جاء عبد الشكور يشنطها فى يديه. مره براوية.

عرابى الشايب، قال: أن الغرباوية التـى أحضـرها شكور ستكون أغرب حكاياته. بعد حكاية الحاج الميت عندما كمان ولداً فلاتياً. سألوه عن الحكايات قال أن الناس مداريا‌ها الحيكان وربنا أمر بالستر.

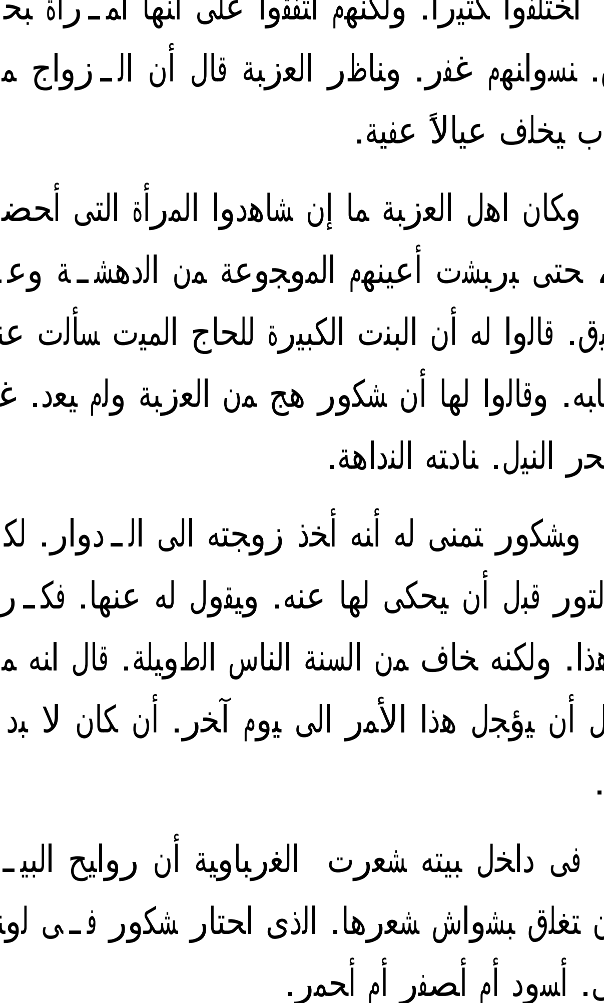
تمنى لو أن الحاج فؤاد الميت، كان ما يزال على قيد الحياة، ربما حركت الغرباوى اللينة مواته الداخلى. وأخرجت الأولاد المتجمدون فى ظهره، منذ سـنوات. و كـانوا فـى انتظار نتاية لا تتكرر كثيراً. واحدة فقط فى الدنيا كلها، قادرة على فعل هذا. أنها النتاية التى حضرت مـع شـكور مـن المولد.

قال شكور للناس أنها حلاله. عقد عليها على سنة ا ورسوله. قبل أن ينفض المولد. وعندما يسافر الـى البنـدر سيحضر قسيمة الجواز. التى لا بد من مرور بعض الأيـام حتى تكون جاهزة.

- هوه فيه مأذون فى المولد؟

رد عليهم:

- امال، ومطر وحلاق صحة وحكيم.

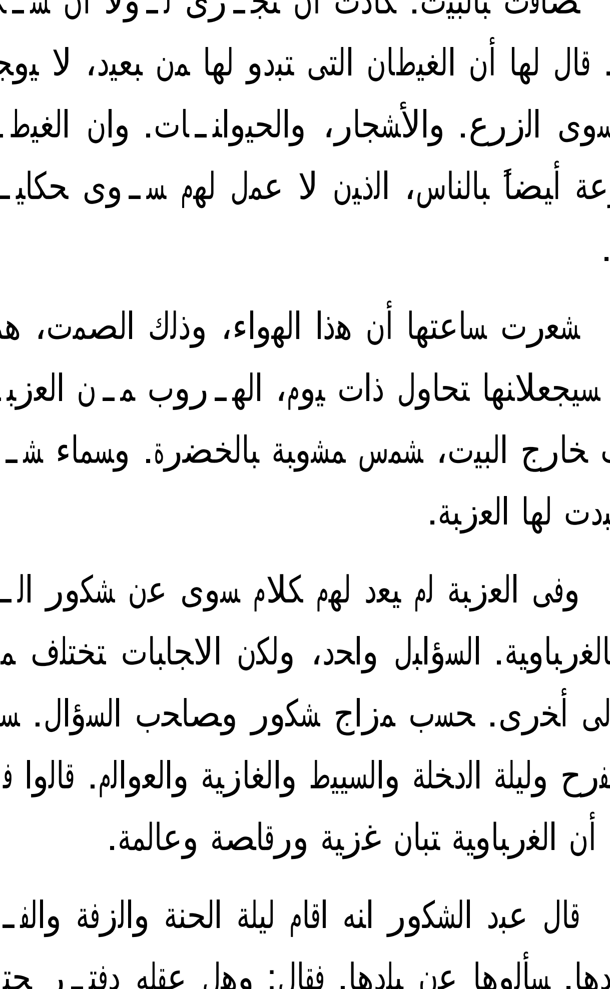


اختلفوا كثيراً. ولكنهم اتفقوا على أنها امـرأة بحـق وحقيق. نسوانهم غفر. وناظر العزبة قال أن الـزواج مـن الأغراب يخاف عيالاً عفية.

وكان اهل العزبة ما إن شاهدوا المرأة التى أحضرها شكور، حتى بربشت أعينهم الموجوعة من الدهشـة وعـدم التصديق. قالوا له أن البنت الكبيرة للحاج الميت سألت عنـه فى غيابه. وقالوا لها أن شكور هج من العزبة ولم يعد. غوته جنيه بحر النيل. نادته النداهة.

وشكور تمنى له أنه أخذ زوجته الى الـدوار. لكـى ترى التور قبل أن يحكى لها عنه. ويقول له عنها. فكـر أن يفعل هذا. ولكنه خاف من السنة الناس الطويلة. قال انه مـن الأفضل أن يؤجل هذا الأمر الى يوم آخر. أن كان لا بد من حدوثه.

فى داخل بيته شعرت الغرباوية أن روايح البيـت، تكاد أن تغلق بشواش شعرها. الذى احتار شكور فـى لونـه الحقيقى. أسود أم أصفر أم أحمر.



ضاقت بالبيت. كادت أن تجرى لولا أن شكور منعها. قال لها أن الغيطان التى تبدو لها من بعيد، لا يوجد فيها سوى الزرع. والأشجار، والحيوانات. وان الغيطان مزروعة أيضاً بالناس، الذين لا عمل لهم سوى حكايات الناس.

شعرت ساعتها أن هذا الهواء، وذلك الصمت، هما اللذان سيجعلانها تحاول ذات يوم، الهروب من العزبة، نظرت خارج البيت، شمس مشوبة بالخضرة. وسماء شفافه هكذا بدت لها العزبة.

وفى العزبة لم يعد لهم كلام سوى عن شكور الذى عاد بالغرباوية. السؤال واحد، ولكن الاجابات تختلف من مرة إلى أخرى. حسب مزاج شكور وصاحب السؤال. سألوه عن الفرح وليلة الدخلة والسيط والغازية والعوالم. قالوا فى عبهم، أن الغرباوية تبان غزية ورقاصة وعالمة.

قال عبد الشكور انه اقام ليلة الحنة والزفة والفرح فى بلدها. سألوها عن بلدها. فقال: وهل عقله دفتر حتى يفتكر كل صغيرة وكبيرة؟

بعد أن تركوا شكور قالوا: انه فرح مثل الميتم. ولكن العقلاء منهم قرروا أن يكفوا على الخبر ماجور:

- العروسة للعريس. والجرى للمتاعيس.

عاد شكور إلى البيت فى أول الليل، دخـل بهـدوء. وكانت محظية تغنى بشويش. ولكن شكور سمعها بوضوح:

- قطعنى حتت... أنا ماك ايديك

وسهر الليالى... حكى لى عليك.

قال لها، انه كان يحلم أن يرى من نواحيها شـبورة حنية، فغنت له على لافور، وهى ترقص رقصة كـادت أن تخلع عقله من جذوره:

- بلد حبيبى جنينه \

يجرى فيها بحر النيل

والنخل يرس ع الشطين

بلح زغاليل

كان شكور وهو يرى رقصها المهول ويستمع الـى غنائها الذى يذيب حتى الصخور. يفكر كيف يبلغ أمر زواجه

المفاجئ للستات. وهل تذهب معه محظية الـى السـراية، أم يروح الى الشكمة لوحده؟

ولأنه كان يرى ما لا عين رأت، ويستمع الى ما لن تستمع إليه اذن من قبل قرر أن يؤجل الأمر كله الى ما بعد.

قال لنفسه:

- الصباح رباح.

- ١٦ -

أصبحنا بمفردهما لأول مـرة منـذ أن التقيـا ليلـة الأمس، بدا له كما لو أن ما جرى كان يحدث لشخص آخـر سواه. أخذها من يدها. لكى يريها البيت:

- بت يا محظية

وقبل أن ترى البيت. شدت يدها من يده:

- انا ما اسميش محظيه

صاح فيها

- يا نهارك أسود من شعر راسك.

قالت:

- اسمى أسرار

حاول أن يتذوق دهشته:

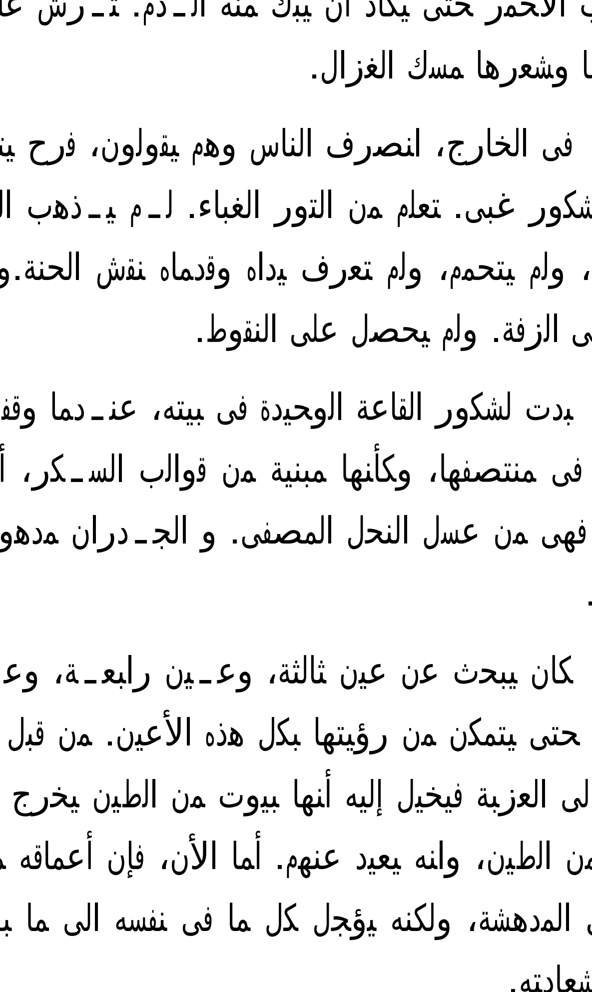
- محظية دا اسم الكتوبة. اسرار اسمى انـا مـالى ومال اللى ف ورقات الحكومة.

لكنه لم يستطع أن يخلع اسم محظية مـن نافوخـه. ركب الاسم على الكسم و انتهى الأمر. وهى مـن ناحيتهـا أفهمته أنها لن ترد عليه، ما لم تسمع منه كلمة اسرار.

أسرار الليل: ضحك وفرفشه. ولكنها وقـت الفجـر الموحش، وبعد أن تكون قج وصلت معه الى ما بعد المدى، تخنقها الدموع.

محظية: تتثاءب، تصحو لتنام مرة أخرى. تتحسـس جسدها بيديها، بعد الصحو من النوم. تغنى اغـانى غجريـة وقت الأصيل.

محظية: تغير فستاناً كل ساعة. لا تتـرك مرآتهـا لحظة واحدة. تبحلق فى وجهها دون ملل على امتداد الليـل والنهار. تنتف شعرها. تزوق وجهها. تحك كعـب قـدميها

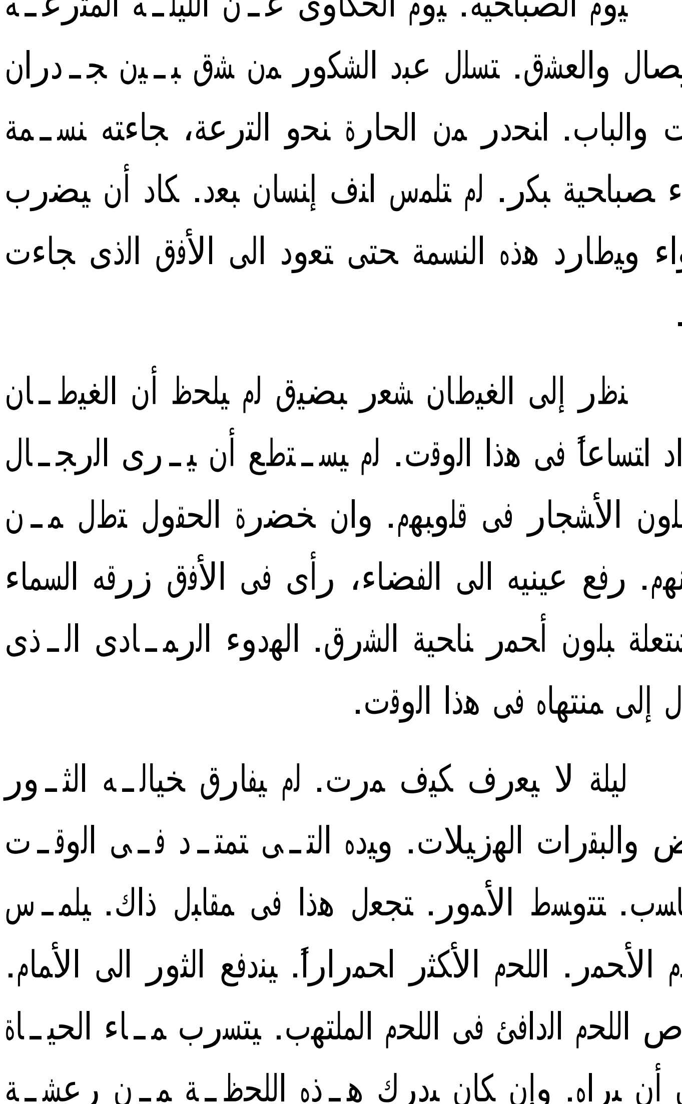


بالطوب الأحمر حتى يكاد أن يبك منه الـدم. تـرش علـى صدرها وشعرها مسك الغزال.

فى الخارج، انصرف الناس وهم يقولون، فرح يتامى عبد الشكور غبى. تعلم من التور الغباء. لـم يـذهب الـى المزين، ولم يتحمم، ولم تعرف يداه وقدماه نقش الحنة.ولـم يمش فى الزفة. ولم يحصل على النقوط.

بدت لشكور القاعة الوحيدة فى بيته، عنـدما وقفـت أسرار فى منتصفها، وكأنها مبنية من قوالب السـكر، أمـا المونة فهى من عسل النحل المصفى. و الجـدران مدهونـة بالشهد.

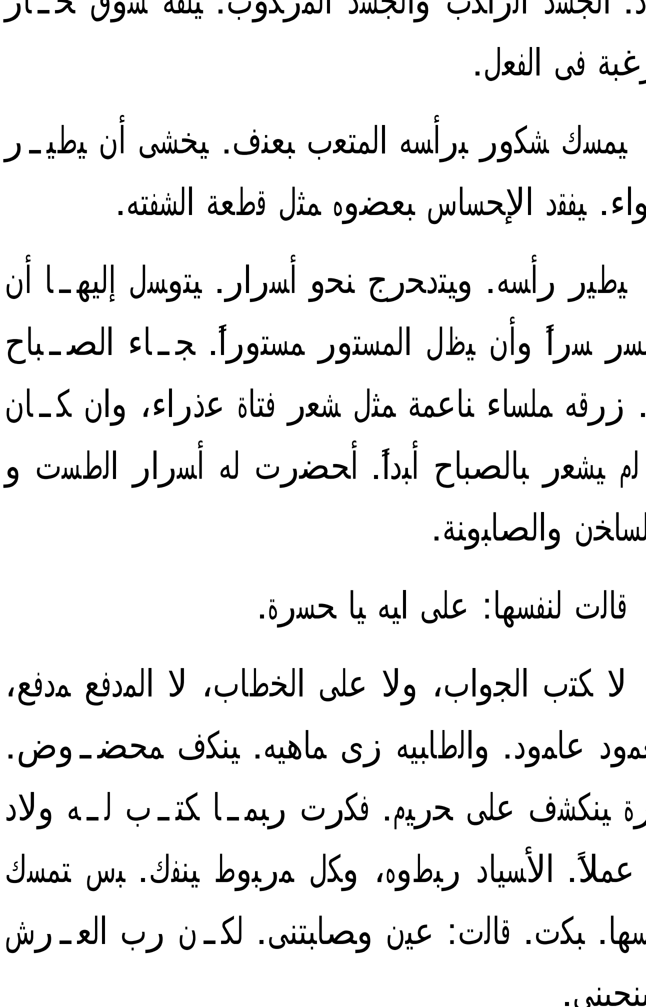
كان يبحث عن عين ثالثة، وعـين رابعـة، وعـين خامسة حتى يتمكن من رؤيتها بكل هذه الأعين. من قبل كان ينظر الى العزبة فيخيل إليه أنها بيوت من الطين يخرج منها أناس من الطين، وانه يعيد عنهم. أما الأن، فإن أعماقه مليئة بالرؤى المدهشة، ولكنه يؤجل كل ما فى نفسه الى ما بعـد يذوق شعادته.



يوم الصباحية. يوم الحكاوى عـن الليلـة المترعـة بالوصال والعشق. تسلل عبد الشكور من شق بـين جـدران البيت والباب. انحدر من الحارة نحو الترعة، جاءته نسـمة هواء صباحية بكر. لم تلمس انف إنسان بعد. كاد أن يضرب الهواء ويطارد هذه النسمة حتى تعود الى الأفق الذى جاءت منه.

نظر إلى الغيطان شعر بضيق لم يلحظ أن الغيطـان تزداد اتساعاً فى هذا الوقت. لم يسـتطع أن يـرى الرجـال يحملون الأشجار فى قلوبهم. وان خضرة الحقول تطل مـن اعينهم. رفع عينيه الى الفضاء، رأى فى الأفق زرقه السماء المشتعلة بلون أحمر ناحية الشرق. الهدوء الرمـادى الـذى يصل إلى منتهاه فى هذا الوقت.

ليلة لا يعرف كيف مرت. لم يفارق خيالـه الثـور العض والبقرات الهزيلات. ويده التـى تمتـد فـى الوقـت المناسب. تتوسط الأمور. تجعل هذا فى مقابل ذاك. يلمـس اللحم الأحمر. اللحم الأكثر احمراراً. يندفع الثور الى الأمام. يغوص اللحم الدافئ فى اللحم الملتهب. يتسرب مـاء الحيـاة دون أن يراه. وإن كان يدرك هـذه اللحظـة مـن رعشـة



الأجساد. الجسد الراكب والجسد المركوب. يلفه شوق حـار الى الرغبة فى الفعل.

يمسك شكور برأسه المتعب بعنف. يخشى أن يطيـر فى الهواء. يفقد الإحساس بعضوه مثل قطعة الشفته.

يطير رأسه. ويتدحرج نحو أسرار. يتوسل إليهـا أن يبقى السر سراً وأن يظل المستور مستوراً. جـاء الصـباح عليهما. زرقه ملساء ناعمة مثل شعر فتاة عذراء، وان كـان شكور لم يشعر بالصباح أبداً. أحضرت له أسرار الطست و الماء الساخن والصابونة.

قالت لنفسها: على ايه يا حسرة.

لا كتب الجواب، ولا على الخطاب، لا المدفع مدفع، ولا العمود عامود. والطابيه زى ماهيه. ينكف محضـوض. أول مرة ينكشف على حريم. فكرت ربمـا كتـب لـه ولاد الحرام عملاً. الأسياد ربطوه، وكل مربوط ينفك. بس تمسك هيه نفسها. بكت. قالت: عين وصابتنى. لكـن رب العـرش لزمن ينجينى.

وقفت وراء الفرن. بنت جن مصور. كيف عرفـت كل ما فى البيت من نفسها. دون أن تسأله. أو أن يقول لهـا من نفسه عن أى شئ فى البيت. فى يدها كوز مملوء المـاء الساخن، والبخار المتصاعد منه، جعل وجهها قطعـة مـن الحمار والحلاوة.

نحى شكور يدها. وضع اللاسة الشاهى اللامعة على كتفيه. ركب مداسه. وقبل أن يخرج قال لها انه سيأخذ غطساً فى الترعة. وعندما اصبح وجهها علامة استفهام. قال لها:

- ساو بادنا.

فى الحارة قالوا:

- مبروك يا عريس.

رد عليهم:

- عقبال البكارى

زعقوا عندما عدى عليهم

- صباحية مباركة

لم يرد عليهم عندما سألوه:

- سبع واللا ضبع؟

رمى نفسه فى الترعة، قال الخبثاء من رجال العزبة، انه يطش ناره فى مياه الترعة الباردة. روت النساء أن تقليته لم يتم طشها فى زيت النتاية التى اشتراها من مولد البنـادر التى كان فيها. وعندما لا تبرد المـرأة مـن نـار زوجهـا المصهرجة. يكون فى الأمر خطأ

حاول أن يسبح فى الترعة. اكتشف أنها صغيرة. بدا لمن يراه من بعيد انه يتطهر. ثم يبدأ فى الوضوء. كان يقول لنفسه: انه لا بد من البحث عن بئر الآبار فى الناحية كلهـا، ليدفن فيه سرة ويردم عليه من الآن والى الأبد.

أن السر أن انقسم الى اثنين لا يصبح سراً. وأسرار هى الطرف الآخر الوحيد فى معرفة سره الذى لن يصـدقه أحد. وهل يملك فى عيون الآخرين سوى رجولته!

همست أسرار لنفسها. وهى تخلع القميص الشفتشـى المصنوع من قماش احمر لميع. وتقف فى الطست:

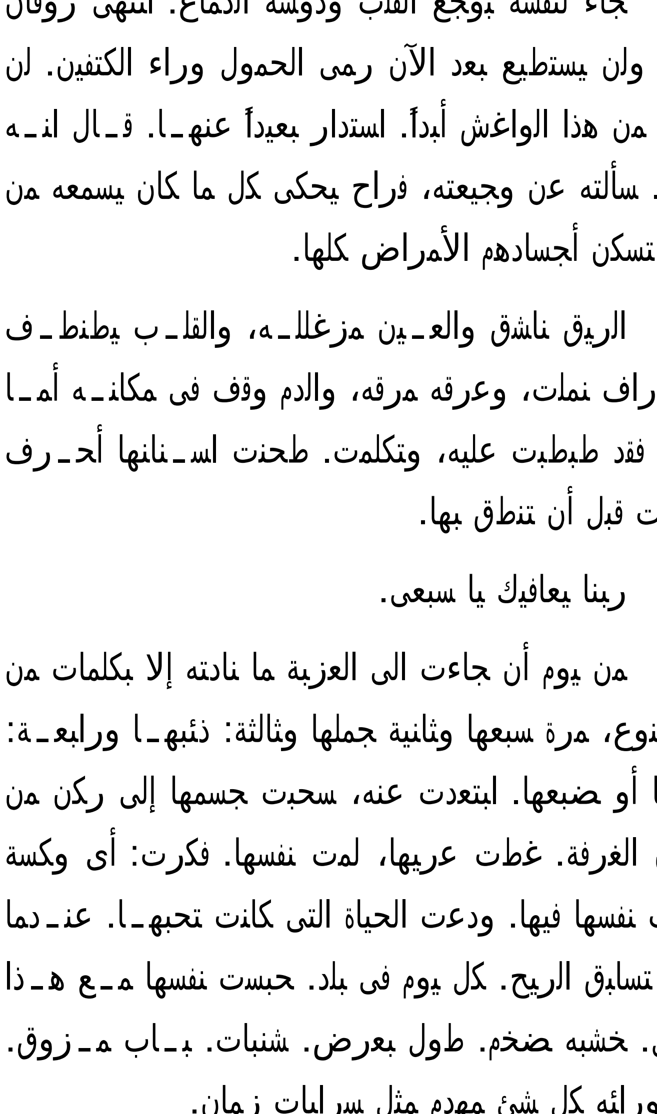
- الصيت ولا الغنى

أصبح يخاف سكون الليل، يخشـى صـمته. يكـره هدوءه، يفزع من ظلامه. يهرب من رحابه القاتمة الضـيقة المرشوشة بضوء شمعة تتراقص.

قالت له: أنها لا تحب الجماع سوى تحـت ضـوء شمعة شاحبة. النور المبهر يتعب عينيها. وفى الظلام لا ترى شيئاً وضوء الشموع المتراقص يهدهد أعصـابها. ويفـيض على الجماع لذة.

ما أن يشاهد ضوء شمعة تتـراقص ويـرى لعبـه الضوء الباهت والظلال على الجدران والسقف حتى يصـاب بحالة من الفزع. يبدأ فزعه فى الوقت الذى يشاهد فيه أمواج الغروب الرمادية. تأتى نوبات ضيق التنفس تبحث فتحتا انفه عن نسمه هواء واحدة فلا تجدها.

تبدو أسرار فى البيت عاشقة تغزل مواعيدها. قلبهـا طائر فى الهواء. وعندما تسهم، و تروح بعيداً. يحتار فـى أمرها. يضرب أخماساً فى أسداس. ولكنه لا يعرف أبداً، أنها إنما تحاول الإنصات لصهيل الخيول البعيدة.

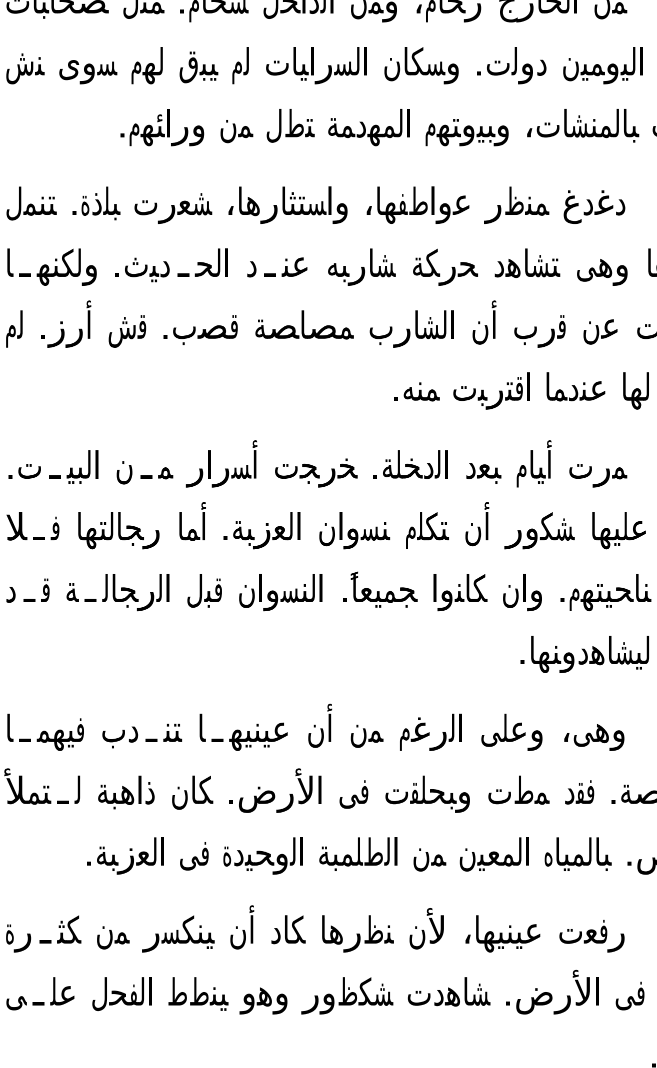


جاء لنفسه بوجع القلب ودوشة الدماغ. انتهى روقان البال، ولن يستطيع بعد الآن رمى الحمول وراء الكتفين. لن ينتهى من هذا الواغش أبداً. استدار بعيداً عنها. قال انه تعبان. سألته عن وجيعته، فراح يحكى كل ما كان يسمعه من الذين تسكن أجسادهم الأمراض كلها.

الريق ناشف والعين مزغللة، والقلب يطنطف والأطراف نملت، وعرقه مرقه، والدم وقف فى مكانه أما هى، فقد طبطبت عليه، وتكلمت. طحنت اسنانها أحرف الكلمات قبل أن تنطق بها.

ربنا يعافيك يا سبعى.

من يوم أن جاءت الى العزبة ما نادته إلا بكلمات من هذا النوع، مرة سبعها وثانية جملها وثالثة: ذئبها ورابعة: فرسها أو ضبعها. ابتعدت عنه، سحبت جسمها إلى ركن من اركان الغرفة. غطت عريها، لمت نفسها. فكرت: أى وكسة أوقعت نفسها فيها. ودعت الحياة التى كانت تحبها. عندما كانت تسابق الريح. كل يوم فى بلد. حبست نفسها مع هذا الرجل. خشبه ضخم. طول بعرض. شنبات. باب مزوق. ومن ورائه كل شئ مهدم مثل سرايات زمان.



من الخارج رخام، ومن الداخل سخام. مثل صحابات عزب اليومين دولت. وسكان السرايات لم يبق لهم سوى نش الذباب بالمنشات، وبيوتهم المهدمة تطل من ورائهم.

دغدغ منظر عواطفها، واستثارها، شعرت بلذة. تنمل جسدها وهى تشاهد حركة شاربه عند الحديث. ولكنها اكتشفت عن قرب أن الشارب مصاصة قصب. قش أرز. لم يشكو لها عندما اقتربت منه.

مرت أيام بعد الدخلة. خرجت أسرار من البيت. حرج عليها شكور أن تكلم نسوان العزبة. أما رجالتها فلا تنظر ناحيتهم. وان كانوا جميعاً. النسوان قبل الرجالة قد وقفوا ليشاهدونها.

وهى، وعلى الرغم من أن عينيها تندب فيهما رصاصة. فقد مطت وبحلقت فى الأرض. كان ذاهبة لتملأ البلاص. بالمياه المعين من الطلمبة الوحيدة فى العزبة.

رفعت عينيها، لأن نظرها كاد أن ينكسر من كثرة النظر فى الأرض. شاهدت شكظور وهو ينطط الفحل على البقرة.

قالت فى سريرها:

- كفاية عليه كده.

سألت نفسها

- طب وأنا

قال عرابى الحاج، بعد أن مرت عليه فـى طريـق العودة. أدى الراجل فاق والمرة نقاية. تبقى العيال حـاتيجى وراء بعضها زى العفاريت.

تسمع حسد الناس لها عليه و تسكت. تبلغ الكلام ولا تنطق. ولكنها تقول فى الليالى الطويلة..

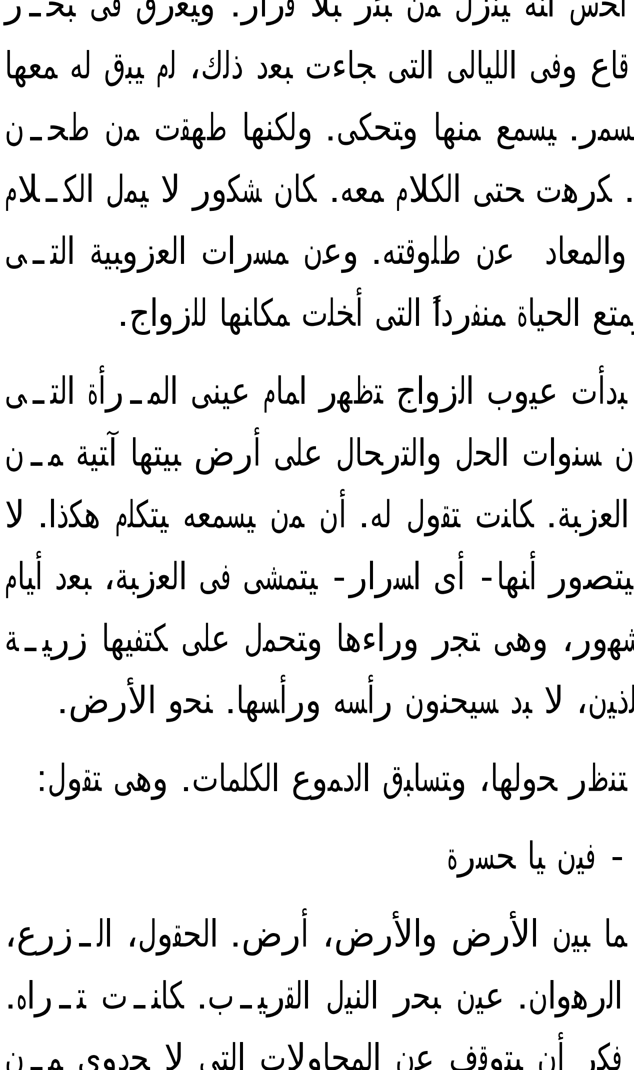
- منظرع الفاضى.

بعد ليالى المناهدة والفرهدة والتعب. رفسته بقـدمها فى محاشمه. وعندما كانت ديوك الفجر تؤذن. قالت له:

- كان عند أبويا اللقمة والهدمة

أكملت وهى ترتدى ملابسها:

- كان ناقصنى ايه؟!



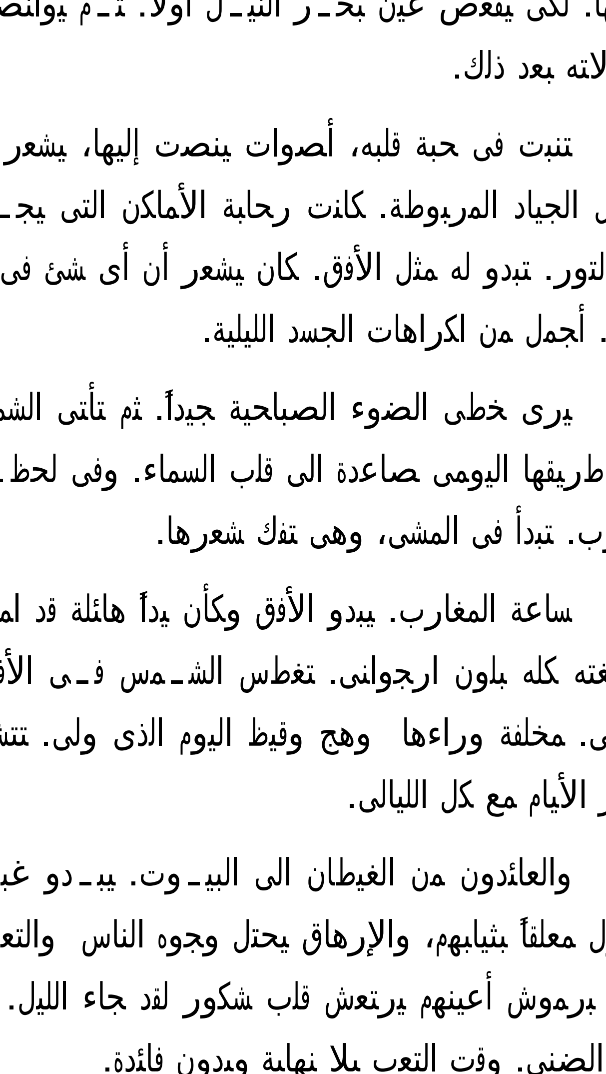
أحس انه ينزل من بئر بلا قرار. ويغرق فى بحـر ليس له قاع وفى الليالى التى جاءت بعد ذلك، لم يبق له معها سوى السمر. يسمع منها وتحكى. ولكنها طهقت من طحـن الكلمات. كرهت حتى الكلام معه. كان شكور لا يمل الكـلام المكرر والمعاد عن طلوقته. وعن مسرات العزوبية التـى ولت، ومتع الحياة منفرداً التى أخلت مكانها للزواج.

بدأت عيوب الزواج تظهر امام عينى المـرأة التـى حكت من سنوات الحل والترحال على أرض بيتها آتية مـن سنوات العزبة. كانت تقول له. أن من يسمعه يتكلم هكذا. لا بد وان يتصور أنها- أى اسرار- يتمشى فى العزبة، بعد أيام وربما شهور، وهى تجر وراءها وتحمل على كتفيها زريـة العيال الذين، لا بد سيحنون رأسه ورأسها. نحو الأرض.

تنظر حولها، وتسابق الدموع الكلمات. وهى تقول:

- فين يا حسرة

ما بين الأرض والأرض، أرض. الحقول، الـزرع، المهرة، الرهوان. عين بحر النيل القريـب. كانـت تـراه. تشاهده. فكر أن يتوقف عن المحاولات التى لا جدوى مـن



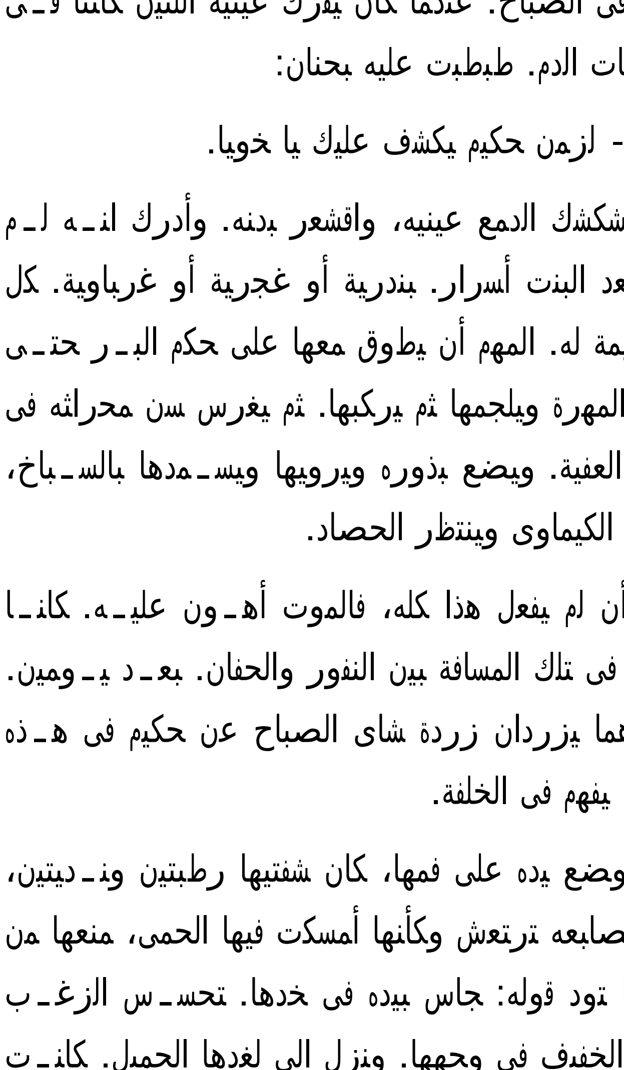
ورائها. لكى يفعص عين بحـر النيـل أولاً. ثـم يواصـل محاولاته بعد ذلك.

تنبت فى حبة قلبه، أصوات ينصت إليها، يشعر أنها صهيل الجياد المربوطة. كانت رحابة الأماكن التى يجـرى فيها التور. تبدو له مثل الأفق. كان يشعر أن أى شئ فى هذا العالم. أجمل من اكراهات الجسد الليلية.

يرى خطى الضوء الصباحية جيداً. ثم تأتى الشمس، تشق طريقها اليومى صاعدة الى قلب السماء. وفى لحظـات الغروب. تبدأ فى المشى، وهى تفك شعرها.

ساعة المغارب. يبدو الأفق وكأن يداً هائلة قد امتدت وصبغته كله بلون ارجوانى. تغطس الشـمس فـى الأفـق الغربى. مخلفة وراءها وهج وقيظ اليوم الذى ولى. تتشابك أزهار الأيام مع كل الليالى.

والعائدون من الغيطان الى البيـوت. يبـدو غبـار الحقول معلقاً بثيابهم، والإرهاق يحتل وجوه الناس والتعـب معلق برموش أعينهم يرتعش قلب شكور لقد جاء الليل. جاء وقت الضنى. وقت التعب بلا نهاية وبدون فائدة.



فى الصباح. عندما كان يفرك عينيه اللتين كانتا فى لون كاسات الدم. طبطبت عليه بحنان:

- لزمن حكيم يكشف عليك يا خويا.

شكشك الدمع عينيه، واقشعر بدنه. وأدرك انه لم يعرف بعد البنت أسرار. بندرية أو غجرية أو غرباوية. كل هذا لا قيمة له. المهم أن يطوق معها على حكم البر حتى يروض المهرة ويلجمها ثم يركبها. ثم يغرس سن محراثه فى الأرض العفية. ويضع بذوره ويرويها ويسمدها بالسباخ، ويلقم لها الكيماوى وينتظر الحصاد.

أن لم يفعل هذا كله، فالموت أهون عليه. كانا يتجولان فى تلك المسافة بين النفور والحفان. بعد يومين. سألته وهما يزردان زردة شاى الصباح عن حكيم فى هذه النواحى، يفهم فى الخلفة.

وضع يده على فمها، كان شفتيها رطبتين ونديتين، وكانت أصابعه ترتعش وكأنها أمسكت فيها الحمى، منعها من أكمال ما تود قوله: جاس بيده فى خدها. تحسس الزغب الأصفر الخفيف فى وجهها. ونزل الى لغدها الجميل. كانت

أصابعه ترتعش. وكان لحمها كفرخ حمـام ينـتفض تحـت لمسات وليفه. دارت أصابعه حول تفاحة آدم التـى يغطيهـا جلد ناعم. خافت منه. أبعدت يده:

- وماله الحكيم

شخط فيها:

- حتة عيل يساوى الجرسة

لم تفهم كلامه. شوح فى وجهها:

- الفضيحة يا وليه.

قالت له:

- البيوت أسرار

أكملت:

- وأنا سترك وغطاك

جاشت نفسه بمعانى كثيرة. فكر أن يقول لها، أن كل الأبواب مسكوكة ومصوجرة على سعادات بسيطة وأفـراح هشة.

ردت عليه:

- والمجالس أمانات

لم يصدقها:

- كان زمان وجبر

زعقت فيه:

- هوه الحكيم حايركب مكيرفون ويلـف ع الموالـد ويحكى.

مطوح الأمر، ـ وكل يوم جر وراءه يوماً آخر. وكل ليلة شدت التى وراءها. إلى أن قالت له ذات مساء.

- الظاهر انك مستكفى باللى بيعمله التور بتاعك.

ماتت النظرة فى عينيه. فكر أن يذبحها ويشرب من دمها ويشفى غليله. خافت من نظراته. طهقت مـن حالهـا. لطمت خدودها. وقالت:

- طيب وآنى ذنبى إيه؟

خرج من البيت. مشى، سمع إمرأة تقول لامرأة:

- باب النجار.

توقف ونظر إليها. طق الشرار من عينيه. فكـر أن يمزقها. يجعل أكبر قطعة منها فى حجم حبة العـدس. طـق شعر رأسه. خاف من الفضيحة.

وفى آخر ليلة. نام معها. قامت معه بآخر محاولاتها، وعندما غرق فى عرقه. عرت جسدها. فشـاهد رسـومات جميلة- يراها لأول مرة- على يديها وثدييها. وبـين هـذه الرسومات. كان هناك نقش الحنة. ما يزال كما هو. أن هـذا معناه أنها لم تستحم من يوم الدخلة. وهل هناك جرسة أكثـر من هذا؟!

حاول أن يطبطب عليها. جاء صوتها حاداً:

- غاب حمارك؟!

استجمع آخر ما لديه من عزم:

- نور شكور عمره ما يغاب

هى قالت الحمار. لم جاء التور على باله:

- ايه اللى دخل التور!

لم يرد. قالت:

- ما تجيبه يعمل بدالك

تباهى أمامها.

- من غيرى يغرق فى شبر مية. أنا اللى بأعمل له كل حاجة جاءه الصوت الذى كان يخشاه:

- باين عليك نخلة دكر.

كاد أن يضع إصبعه فى عينيها:

- فشر، سبع صنايع والبخت ضايع

- كفى من بقك

كاد يلهث:

- العيب منك

ضحكت فى سخرية:

- ورينى، وبعدين نتكلم عن العيب

أحضر سكيناً، فلم تشعر بالخوف. أمسك بها.

قال لها:

- التور بينط بأمرى.

- دى وحفضناها.

لم يتكلم. قالت:

- التور ينط بداك. يا ريت كنت بقرة وريحتك

شقت قميص نومها:

- ودا كان مكتوب لى فين؟

كان الليل فى وسامه الأرض الحبلى و النجوم تغرص سن محاريثها فى عتمته. والصمت يملأ عتبات البيوت ومغانورها وشبابيكها. كان الصمت أكثر صمتاً. كان الوقت يابساً.

رأى جسدها المهول. شعر بتقافز قلبها على صدرها. وارتفاع نهديها. عض بأسنانه على لسانه حتى تذوق طعم دمه.

- ١٧ -

سألوا عبد الشكور عن أحب أبنائه إليه. فقال: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يعود، والمريض حتى يشفى، والمجنون حتى يؤوب إليه عقله الشارد منه.

وهلى كان له أولاد من أصله؟!

يرد عرابى الشايب: الجعان يحلم بسوق القمح

أشار عبد الشكور لاسرارها وهما فى الطريق من المولد الى العزبة شاور لكتفه الأيمن. وقال لها: الكتف: دا زاد. واشار للكتف الأيسر: والكتف دامية. داس على الأرض: أن ما شالتكيش الأرض. أحطك جوه رموش عينيه. أقسم لها انه سيقطع من قلبه وكبده ويطعهما.

كانت العزبة قريبة. أصبحت على مد الشوف. حكى لها عن البيت الذى ستسكن فيه. مبنى من طوب من نوع آخر. غير الطوب الذى يبنى به خلايق ا بيوتهم. بيت عبد الشكور المهجور، ليس للفرح مطرح من سنوات طوال مضت.

قالت له أسرار:

- الناس أكلت وشى.

اشاح بوجهه الى الناحية الأخرى:

- انصبى لهم أى مولد. مش حاتغلبى.

تنهدت:

- الكدب ما يجبش همه

قالت:

- الكدب مالوش رجلين

تساءلت: هل سابت الموالد لكى تسكن بيت العيـاط؟ لم يبق أمام أسرار إلا أنها تهج وتطفش من بيت عبد الشكور ومن العزبة كلها فى انصاص الليالى. لم يهوب النوم نواحى عينيها منذ أن جاءت الرى العزبة. فكرت أن تلملم خلقاتهـا. حتى تكون جاهزة للهروب.

ولكنها أجلت الهجحان. لأن أمه قالت لهـا. وهـى تودعها. لكى تبدأ مشوارها مع شكور.

- الرضا بالمقسوم عبادة يا بنتى.

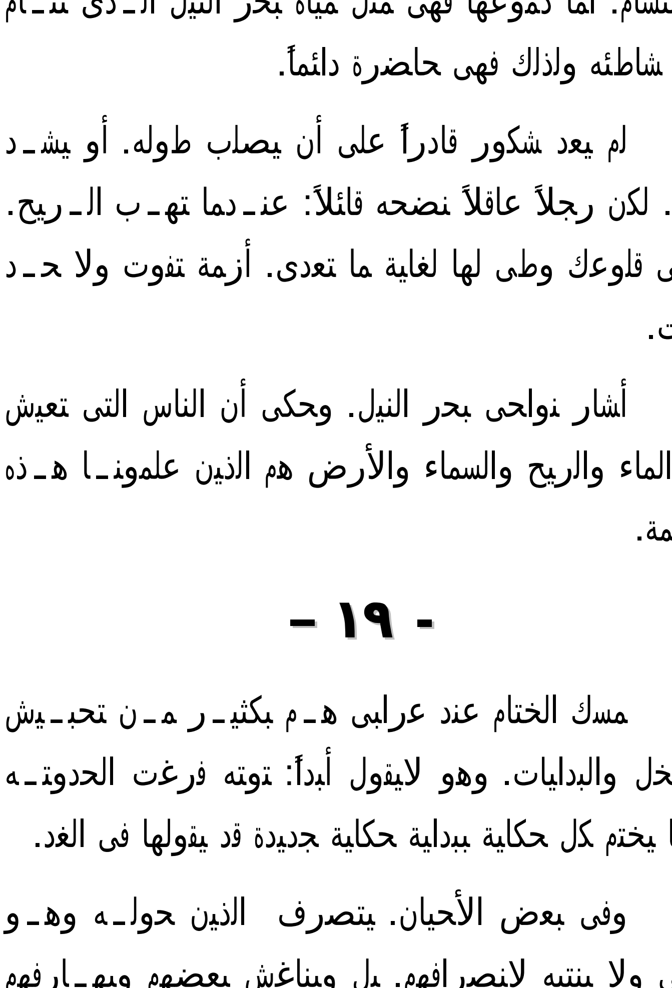
هل دارت معها الحكاية بالمقلوب؟ الكلام يشلب وما من غلبها. وان كانت تشعر أنها تلملم جرحها فى الكلمـات. كان القرف قد وصل الى ملاءة السـرير وقمـيص النـوم. ومخدة الصبابة وخددية الوجد.

شكور كانت حكايته حكاية..

لم تعد ركبتاه قادرتان على حمله. حتى يهرب مـن الأسئلة، التى تلاحقه، عن الإبن الذى لم يأت. قال لهـم. أن النار لا تحرق سوى من يكبشها. تاه شكور عن ليله، وتـاه ليله عنه. بدا لهم انه شايل ومستكفى. شايل أكثر من حملـه. ولكنه كان قليل الكلام خوفاً من الفضيحة بجلاجل التى تهدده فى كل لحظة تمر.

وحتى يجد اجابة على سؤالات الناس. سأل هو نجوم الليل. لم عزت العافية. ولكن الليل لم يرد عليه. أعطاه ظهره ووقف الليل أمامه عريض ومعتم. وفى العزبة لم يتركه أحد فى حاله. ثرثروا. قعدنا نقول بكرة الجـواز يخليـه زيـن. الجواز خلاه شين.

قالوا: الناقة تخلى الجمل يبرك وينخ. البندرية جابت شاله الأرض. جاءت أسرار فغارت خطوط وجهـه. كـأن الزمن قد محاها ومسحها بأستيكه مستوردة. وعندما يتحدث. يبدو وكأنه يتحدث ولا يتحدث فى نفس الوقت. تتحرك شفتاه فلا تنطقان. تحاول العزبة أن تستمع الى ما يقوله فلا يصلها اى صوت منه فتضحك من حاله. والعزبة نـادرة الضـحك



والابتسام. اما دموعها فهى مثل مياه بحر النيل الـذى تنـام على شاطئه ولذلك فهى حاضرة دائماً.

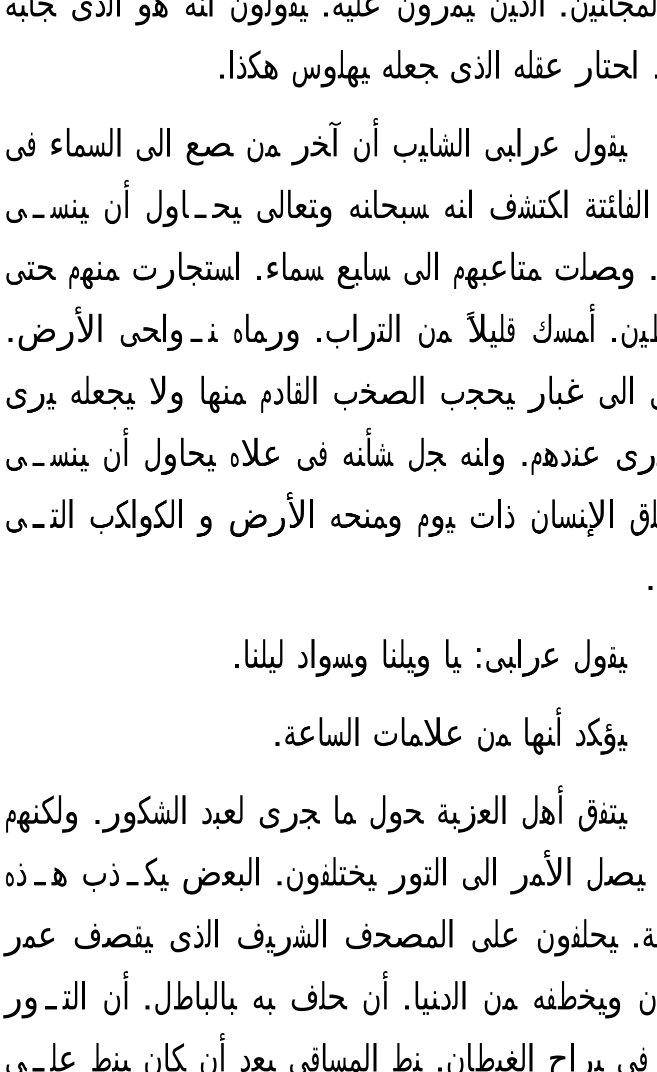
لم يعد شكور قادراً على أن يصلب طوله. أو يشـد حيله. لكن رجلاً عاقلاً نصحه قائلاً: عنـدما تهـب الـريح. ارخى قلوعك وطى لها لغاية ما تعدى. أزمة تفوت ولا حـد يموت.

أشار نواحى بحر النيل. وحكى أن الناس التى تعيش بين الماء والريح والسماء والأرض هم الذين علمونـا هـذه الحكمة.

- ١٩ -

مسك الختام عند عرابى هـم بكثيـر مـن تحبـيش المداخل والبدايات. وهو لايقول أبداً: توته فرغت الحدوتـه وانما يختم كل حكاية ببداية حكاية جديدة قد يقولها فى الغد.

وفى بعض الأحيان. يتصرف الذين حولـه وهـو يحكى ولا ينتبه لإنصرافهم. بل ويناغش بعضهم ويهـارفهم وكأنه لم يكتشف أن كل واحد منهم راح لحاله وانه يكلم نفسه



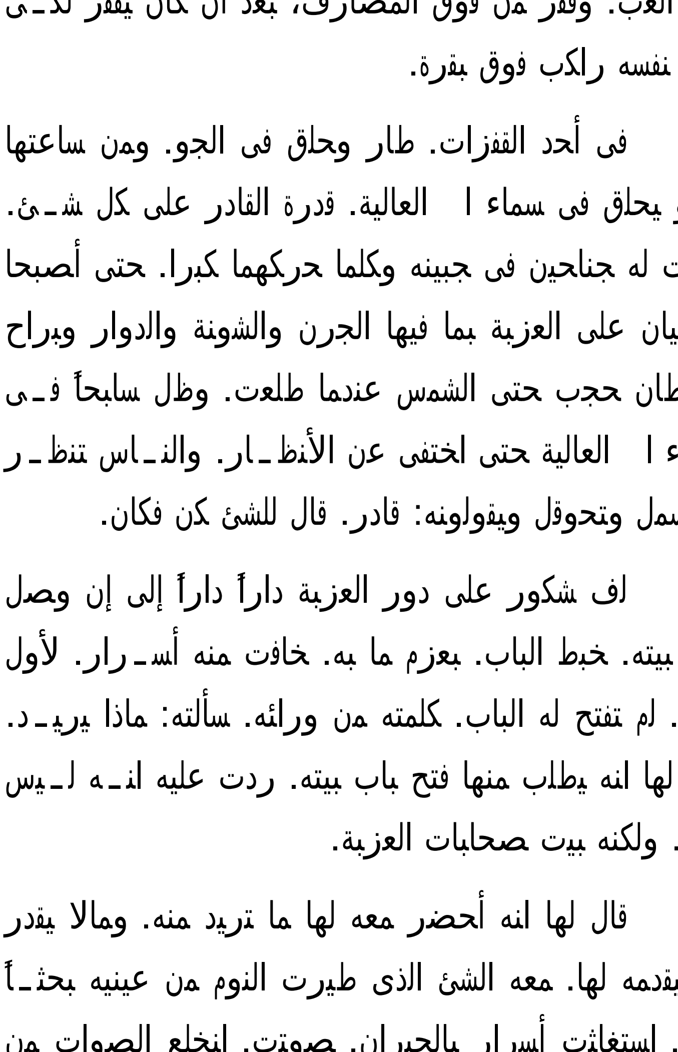
مثل المجانين. الذين يمرون عليه. يقولون انه هو الذى جابه لنفسه. احتار عقله الذى جعله يهلوس هكذا.

يقول عرابى الشايب أن آخر من صعد الى السماء فى السنة الفائتة اكتشف انه سبحانه وتعالى يحـاول أن ينسـى الناس. وصلت متاعبهم الى سابع سماء. استجارت منهم حتى الشياطين. أمسك قليلاً من التراب. ورماه نـواحى الأرض. فتحول الى غبار يحجب الصخب القادم منها ولا يجعله يرى ما يجرى عندهم. وانه جل شأنه فى علاه يحاول أن ينسـى انه خلق الإنسان ذات يوم ومنحه الأرض و الكواكب التـى حولها.

يقول عرابى: يا ويلنا وسواد ليلنا.

يؤكد أنها من علامات الساعة.

يتفق أهل العزبة حول ما جرى لعبد الشكور. ولكنهم عندما يصل الأمر الى التور يختلفون. البعض يكـذب هـذه الحكاية. يحلفون على المصحف الشريف الذى يقصف عمر الإنسان ويخطفه من الدنيا. أن حلف به بالباطل. أن التـور جرى فى براح الغيطان. نط المساقى بعد أن كان ينط علـى

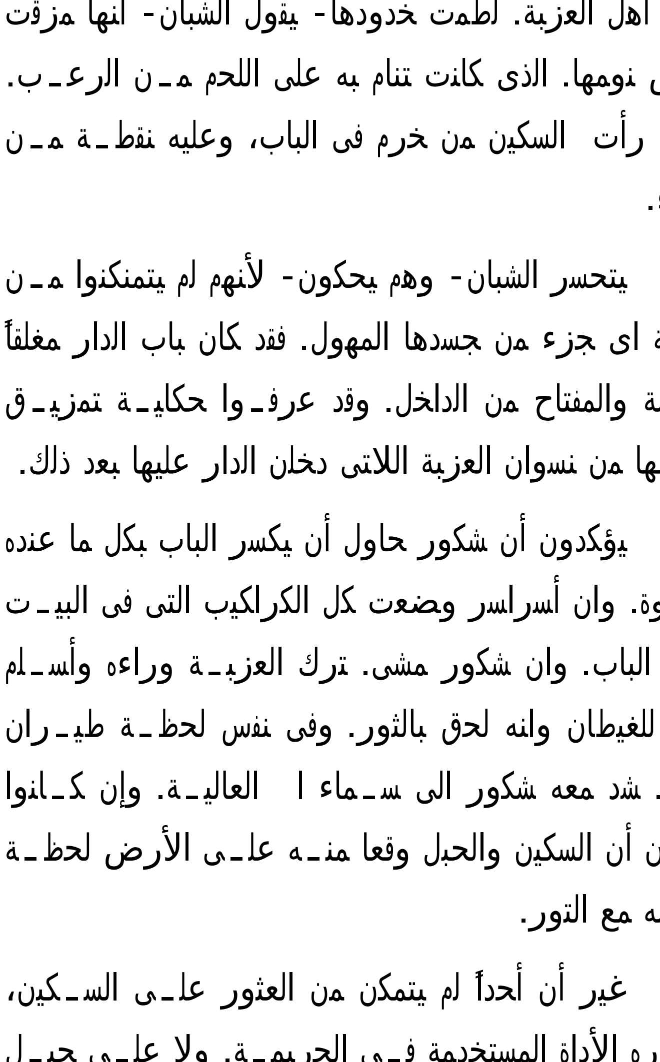


بقر العب. وقفز من فوق المصارف، بعد أن كان يقفز لكـى يجد نفسه راكب فوق بقرة.

فى أحد القفزات. طار وحلق فى الجو. ومن ساعتها وهو يحلق فى سماء ا   العالية. قدرة القادر على كل شـئ. أنبتت له جناحين فى جبينه وكلما حركهما كبرا. حتى أصبحا يغطيان على العزبة بما فيها الجرن والشونة والدوار وبراح الغيطان حجب حتى الشمس عندما طلعت. وظل سابحاً فـى سماء ا   العالية حتى اختفى عن الأنظـار. والنـاس تنظـر وتبسمل وتحوقل ويقولونه: قادر. قال للشئ كن فكان.

لف شكور على دور العزبة داراً داراً إلى إن وصل الى بيته. خبط الباب. بعزم ما به. خافت منه أسـرار. لأول مرة. لم تفتح له الباب. كلمته من ورائه. سألته: ماذا يريـد. قال لها انه يطلب منها فتح باب بيته. ردت عليه انـه لـيس بيته. ولكنه بيت صحابات العزبة.

قال لها انه أحضر معه لها ما تريد منه. ومالا يقدر أن يقدمه لها. معه الشئ الذى طيرت النوم من عينيه بحثـاً عنه. استغاثت أسرار بالجيران. صوتت. انخلع الصوات من حبه قلبها المرعوب، حلاوة الروح جعلت صـوتها الحيـاتى

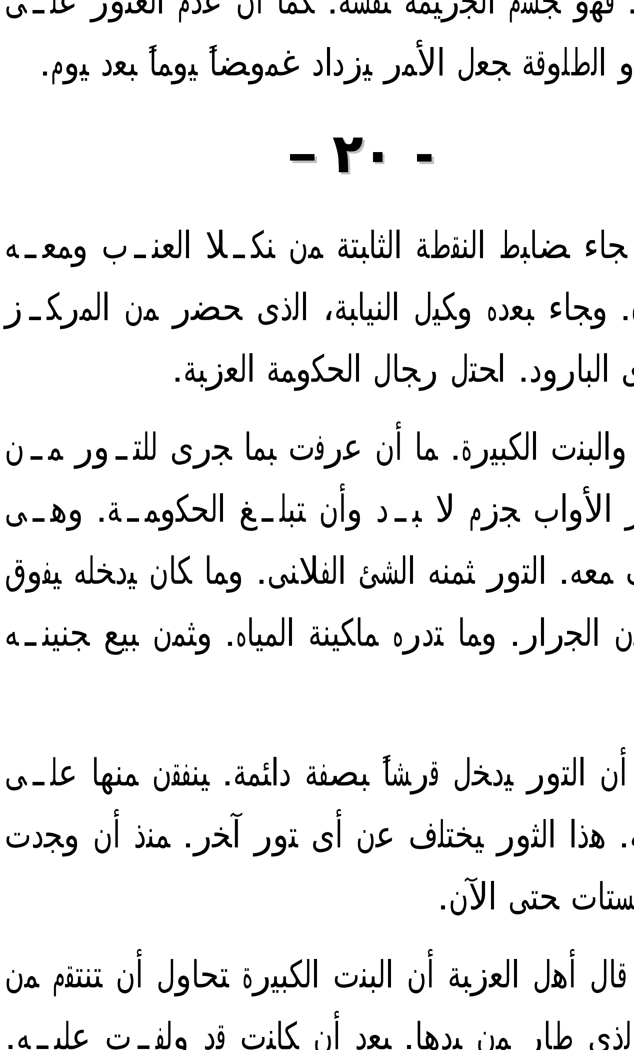


يجمع أهل العزبة. لطمت خدودها- يقول الشبان- أنها مزقت قميص نومها. الذى كانت تنام به على اللحم من الرعب. عندما رأت السكين من خرم فى الباب، وعليه نقطة من الدماء.

يتحسر الشبان- وهم يحكون- لأنهم لم يتمكنوا من معاينة اى جزء من جسدها المهول. فقد كان باب الدار مغلقاً بالضبة والمفتاح من الداخل. وقد عرفوا حكاية تمزيق قميصها من نسوان العزبة اللاتى دخلن الدار عليها بعد ذلك.

يؤكدون أن شكور حاول أن يكسر الباب بكل ما عنده من قوة. وان أسراسر وضعت كل الكراكيب التى فى البيت وراء الباب. وان شكور مشى. ترك العزبة وراءه وأسلم نفسه للغيطان وانه لحق بالثور. وفى نفس لحظة طيران الثور. شد معه شكور الى السماء العالية. وإن كانوا يقولون أن السكين والحبل وقعا منه على الأرض لحظة طيرانه مع التور.

غير أن أحداً لم يتمكن من العثور على السكين، باعتباره الأداة المستخدمة فى الجريمة. ولا على حبل



الطاوقة. فهو جسم الجريمة نفسه. كما أن عدم العثور على شكور أو الطاوقة جعل الأمر يزداد غموضاً يوماً بعد يوم.

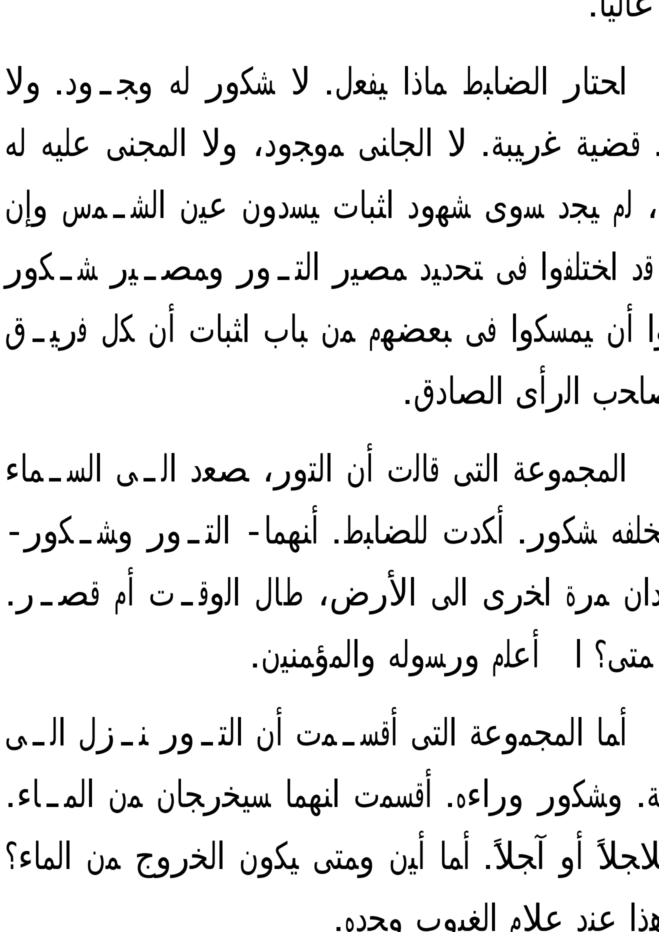
- ٢٠ -

جاء ضابط النقطة الثابتة من نكلا العنب ومعه عساكره. وجاء بعده وكيل النيابة، الذى حضر من المركز فى إيتاى البارود. احتل رجال الحكومة العزبة.

والبنت الكبيرة. ما أن عرفت بما جرى للتور من عبشكور الأواب جزم لا بد وأن تبلغ الحكومة. وهى تتصرف معه. التور ثمنه الشئ الفلانى. وما كان يدخله يفوق العائد من الجرار. وما تدره ماكينة المياه. وثمن بيع جنينه الموالح.

أن التور يدخل قرشاً بصفة دائمة. ينفقن منها على الزراعة. هذا الثور يختلف عن أى تور آخر. منذ أن وجدت عزبة الستات حتى الآن.

قال أهل العزبة أن البنت الكبيرة تحاول أن تنتقم من شكور الذى طار من يدها. بعد أن كانت قد ولفت عليه.

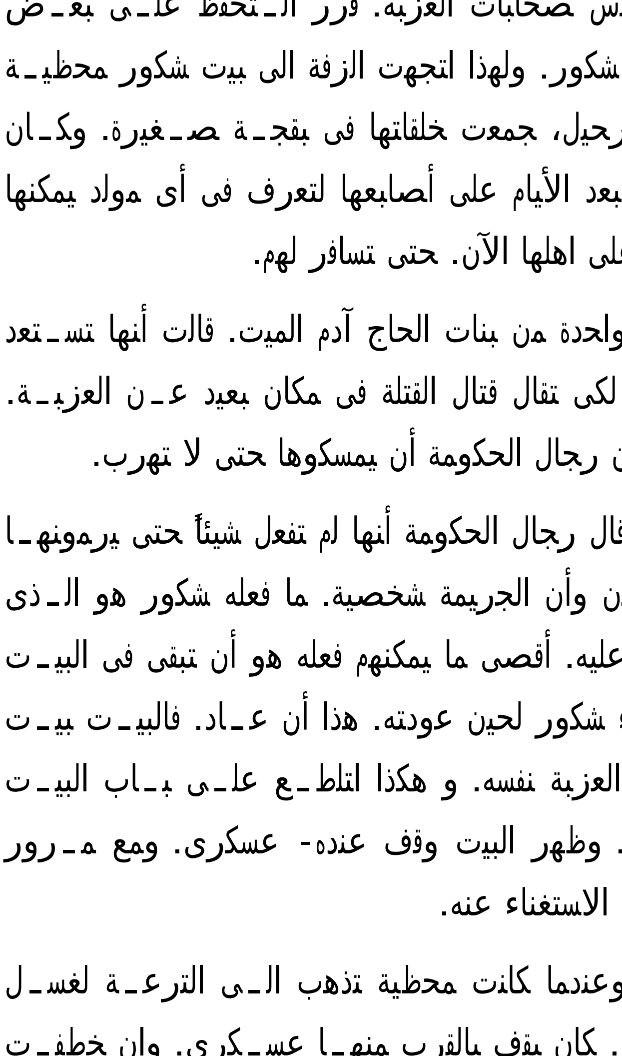


قدمته له النعمة ولكنه بطر عليها فقررت أن تجعلـه يـدفع الثمن غالياً.

احتار الضابط ماذا يفعل. لا شكور له وجـود. ولا التور. قضية غريبة. لا الجانى موجود، ولا المجنى عليه له وجود، لم يجد سوى شهود اثبات يسدون عين الشـمس وإن كانوا قد اختلفوا فى تحديد مصير التـور ومصـير شـكور وكادوا أن يمسكوا فى بعضهم من باب اثبات أن كل فريـق هو صاحب الرأى الصادق.

المجموعة التى قالت أن التور، صعد الـى السـماء يجر خلفه شكور. أكدت للضابط. أنهما- التـور وشـكور- سيعودان مرة اخرى الى الأرض، طال الوقـت أم قصـر. ولكن متى؟ ا أعلم ورسوله والمؤمنين.

أما المجموعة التى أقسـمت أن التـور نـزل الـى الترعة. وشكور وراءه. أقسمت انهما سيخرجان من المـاء. أن علاجلاً أو آجلاً. أما أين ومتى يكون الخروج من الماء؟ فعلم هذا عند علام الغيوب وحده.

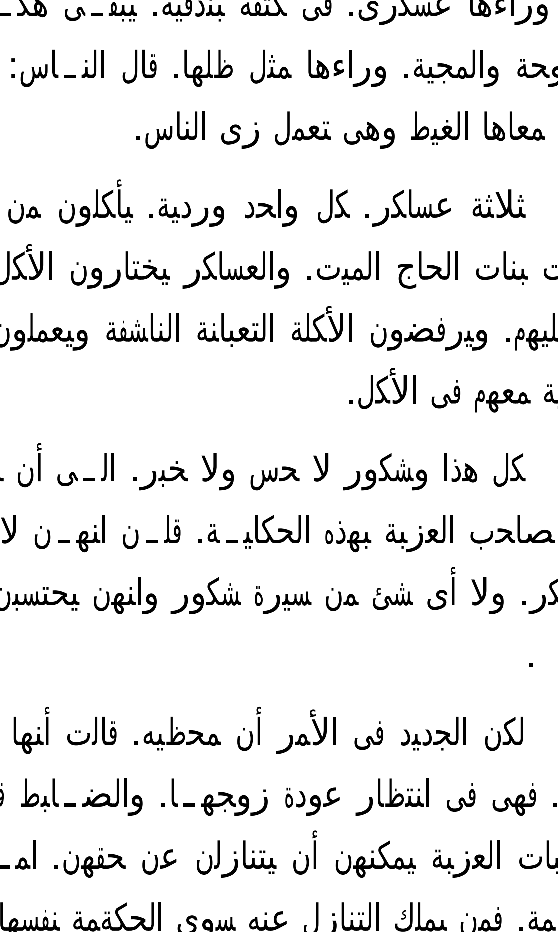


ولكن يحافظ وكيل النيابة على حق ومال، الأوانـس أو العوانس صحابات العزبة. قرر الـتحفظ علـى بعـض متعلقات شكور. ولهذا اتجهت الزفة الى بيت شكور محظيـة تستعد للرحيل، جمعت خلقاتها فى بقجـة صـغيرة. وكـان مشغولة بعد الأيام على أصابعها لتعرف فى أى مولد يمكنها العثور على اهلها الآن. حتى تسافر لهم.

واحدة من بنات الحاج آدم الميت. قالت أنها تسـتعد للهروب لكى تقال قتال القتلة فى مكان بعيد عـن العزبـة. طلبت من رجال الحكومة أن يمسكوها حتى لا تهرب.

قال رجال الحكومة أنها لم تفعل شيئاً حتى يرمونهـا فى السجن وأن الجريمة شخصية. ما فعله شكور هو الـذى يحاسب عليه. أقصى ما يمكنهم فعله هو أن تبقى فى البيـت مع أشياء شكور لحين عودته. هذا أن عـاد. فالبيـت بيـت صاحب العزبة نفسه. و هكذا اتلاطـع علـى بـاب البيـت عسكرى. وظهر البيت وقف عنده- عسكرى. ومع مـرور الوقت تم الاستغناء عنه.

وعندما كانت محظية تذهب الـى الترعـة لغسـل المواعين. كان يقف بالقرب منهـا عسـكرى. وان خطفـت

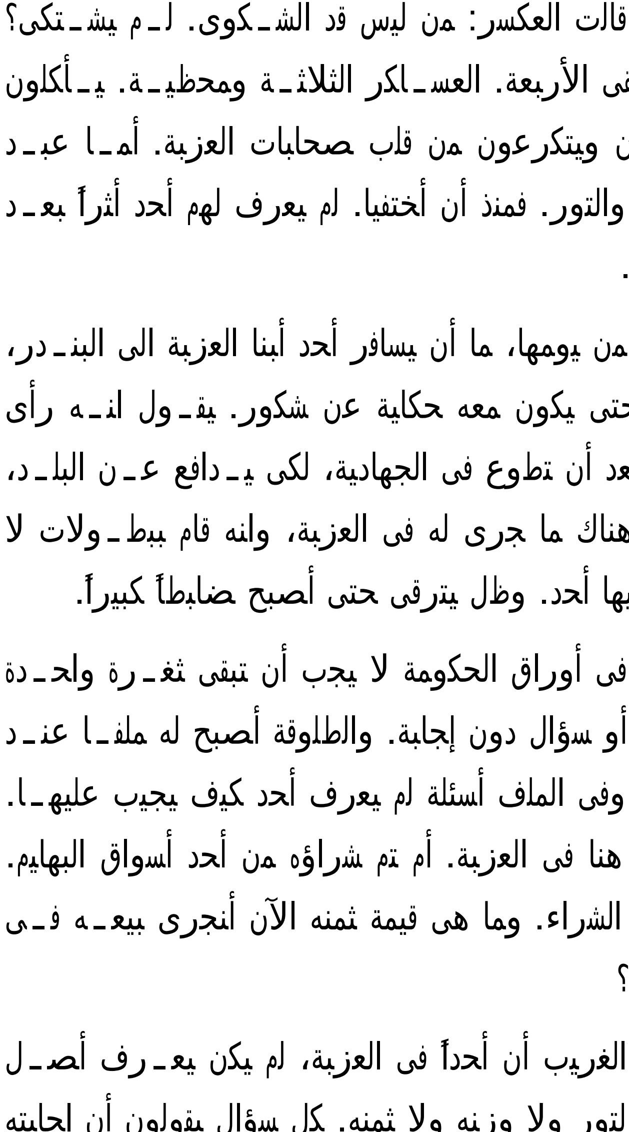


رجلها الى الطلمبة لتملا المياه المعين لعمـل زردة الشـاى مشى وراءها عسكرى. فى كتفه بندقية. يبقـى هكـذا فـى المراوحة والمجية. وراءها مثل ظلها. قال النـاس: نـاقص يروح معاها الغيط وهى تعمل زى الناس.

ثلاثة عساكر. كل واحد وردية. يأكلون من شـكمة الستات بنات الحاج الميت. والعساكر يختارون الأكل الـذى يلذ عليهم. ويرفضون الأكلة التعبانة الناشفة ويعملون حساب محظية معهم فى الأكل.

كل هذا وشكور لا حس ولا خبر. الـى أن ضـاقت بنات صاحب العزبة بهذه الحكايـة. قلـن انهـن لا يـردن العساكر. ولا أى شئ من سيرة شكور وانهن يحتسبن أمرهن عند ا .

لكن الجديد فى الأمر أن محظيه. قالت أنها لم تترك البيت. فهى فى انتظار عودة زوجهـا. والضـابط قـال أن صحابات العزبة يمكنهن أن يتنازلن عن حقهن. امـا حـق الحكومة. فمن يملك التنازل عنه سوى الحكةمة نفسها؟

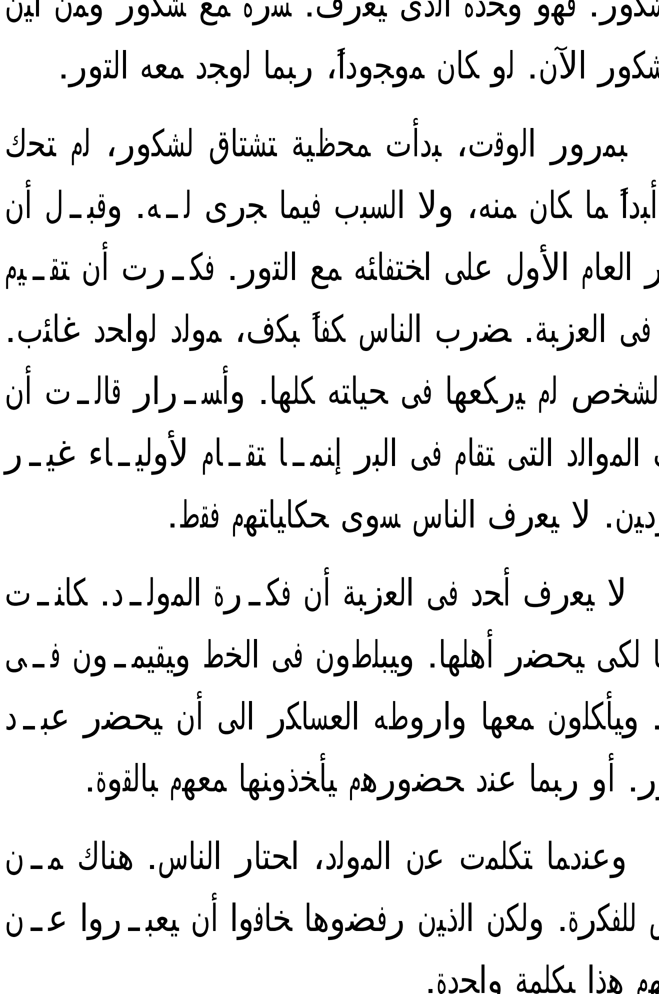


قالت العكسر: من ليس قد الشـكوى. لـم يشـتكى؟ وهكذا بقى الأربعة. العسـاكر الثلاثـة ومحظيـة. يـأكلون ويشربون ويتكرعون من قلب صحابات العزبة. أمـا عبـد الشكور والتور. فمنذ أن أختفيا. لم يعرف لهم أحد أثراً بعـد ذلك أبداً.

من يومها، ما أن يسافر أحد أبنا العزبة الى البنـدر، ويعود حتى يكون معه حكاية عن شكور. يقـول انـه رأى شكور بعد أن تطوع فى الجهادية، لكى يـدافع عـن البلـد، وينسى هناك ما جرى له فى العزبة، وانه قام ببطـولات لا يقدر عليها أحد. وظل يترقى حتى أصبح ضابطاً كبيراً.

فى أوراق الحكومة لا يجب أن تبقى ثغـرة واحـدة مفتوحة أو سؤال دون إجابة. والطلوقة أصبح له ملفـا عنـد بوليس، وفى الملف أسئلة لم يعرف أحد كيف يجيب عليهـا. هل ولد هنا فى العزبة. أم تم شراؤه من أحد أسواق البهايم. وبكم تم الشراء. وما هى قيمة ثمنه الآن أنجرى بيعـه فـى الأسواق؟

الغريب أن أحداً فى العزبة، لم يكن يعـرف أصـل وفصل التور ولا وزنه ولا ثمنه. كل سؤال يقولون أن اجابته

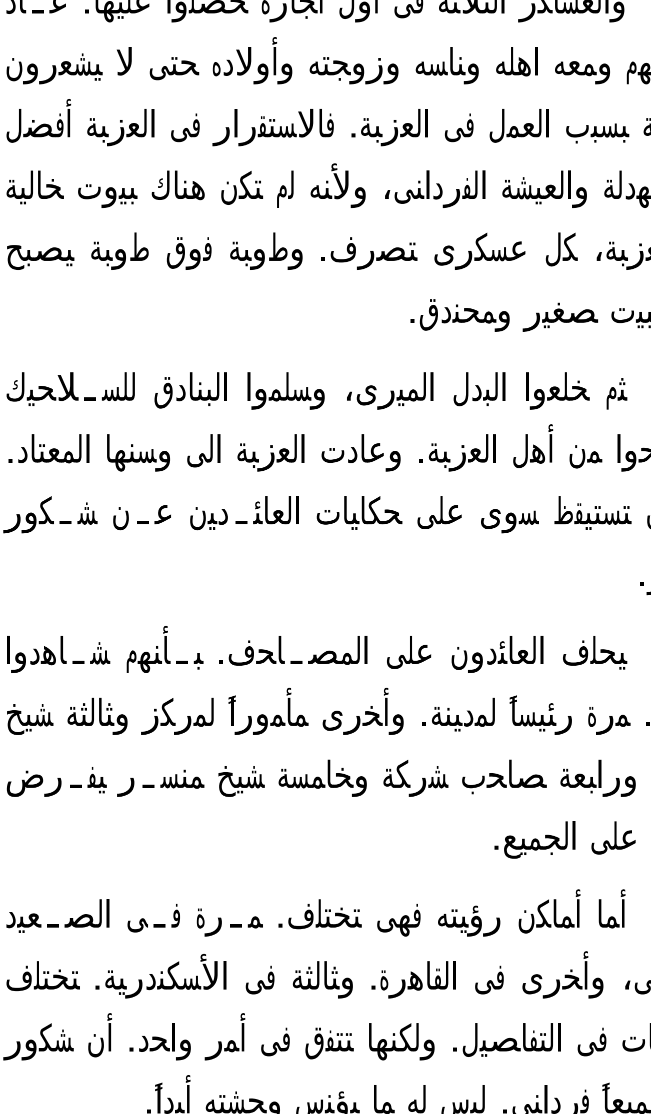


عند شكور. فهو وحده الذى يعرف. سره مع شكور ومن اين لهم بشكور الآن. لو كان موجوداً، ربما لوجد معه التور.

بمرور الوقت، بدأت محظية تشتاق لشكور، لم تحك لأحد أبداً ما كان منه، ولا السبب فيما جرى له. وقبل أن يستدير العام الأول على اختفائه مع التور. فكرت أن تقيم مولداً فى العزبة. ضرب الناس كفاً بكف، مولد لواحد غائب. مولد لشخص لم يركعها فى حياته كلها. وأسرار قالت أن نصف الموالد التى تقام فى البر إنما تقام لأولياء غير موجودين. لا يعرف الناس سوى حكاياتهم فقط.

لا يعرف أحد فى العزبة أن فكرة المولد. كانت وسيلتا لكى يحضر أهلها. ويبلطون فى الخط ويقيمون فى البيت. ويأكلون معها واروطه العساكر الى أن يحضر عبد الشكور. أو ربما عند حضورهم يأخذونها معهم بالقوة.

وعندما تكلمت عن المولد، احتار الناس. هناك من تحمس للفكرة. ولكن الذين رفضوها خافوا أن يعبروا عن رفضهم هذا بكلمة واحدة.



والعساكر الثلاثة فى أول أجازة حصلوا عليها. عـاد كل منهم ومعه اهله وناسه وزوجته وأولاده حتى لا يشعرون بالغربة بسبب العمل فى العزبة. فالاستقرار فى العزبة أفضل من البهدلة والعيشة الفردانى، ولأنه لم تكن هناك بيوت خالية فى العزبة، كل عسكرى تصرف. وطوبة فوق طوبة يصبح هناك بيت صغير ومحندق.

ثم خلعوا البدل الميرى، وسلموا البنادق للسـلاحيك وأصبحوا من أهل العزبة. وعادت العزبة الى وسنها المعتاد. لم تكن تستيقظ سوى على حكايات العائـدين عـن شـكور والتور.

يحلف العائدون على المصـاحف. بـأنهم شـاهدوا شكور. مرة رئيساً لمدينة. وأخرى مأموراً لمركز وثالثة شيخ طريقة ورابعة صاحب شركة وخامسة شيخ منسـر يفـرض اتاواته على الجميع.

أما أماكن رؤيته فهى تختلف. مـرة فـى الصـعيد الجوانى، وأخرى فى القاهرة. وثالثة فى الأسكندرية. تختلف الحكايات فى التفاصيل. ولكنها تتفق فى أمر واحد. أن شكور فيها جميعاً فردانى. ليس له ما يؤنس وحشته أبداً.

كانت العزبة قد نسيت شكور وطاوقته ولا تفتكره إلا عندما ترى احد العساكر الثلاثة. أو الذين كانوا عسـاكر. أو عندما يمشى فيها واحد من طرفه.

ذات صباح، حضر من قال انه رأى شـكور ومعـه الطاوقة. يحومان حول العزبة، من بعيد لبعيد:

- شكور... لسه فاكر

- دا زمانه بقى مكحكح. ماش على تلاتة.

حلف الذى قال انه شاهده، أن شكور لم يكبر لحظـة واحدة عن الوقت الذى ترك فيه العزبة. لم يكبر يوماً واحداً. ربما يكون قد صغر.

أخذ الناس وذهبوا الى المكان الذى شاهد فيه شكور. لم يكن هناك أحد.

ولكن الحكاية الأخيرة. جعلت محظية، التى رفضت الزواج من كل الذين تقدموا لها، تبدأ فى بناء مقـام عـال. للشيخ عبد الشكور. و الناس تنظر إليها وتضرب كفاً بكـف. وتقول لك من يمر عليها...

- المولد السنة الجاية بإذن واحد أحد.

- يا عالم من يعيش

١٩٩٢/٨/٣